

لنشر وبيع
بمطبعة دار الكتب

زقاق المدق

تأليف

نجيب محفوظ

obeykandi.com

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق ، كان من تحف العهود النابرة ،
وأنه تألق يوماً في تاريخ القاهرة المعزية كالسكوكب الدرى . أى القاهرة
أعنى ؟ . . . الفاطمية ؟ . . . المماليك ؟ السلاطين ؟ علم ذلك عند الله ، وعند
علماء الآثار ، ولكنه على أية حال أثر ، وأثر نفيس . كيف لا وطريقه
المباغت بصفايح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية ، تلك العنقة التاريخية ،
وقهوته المعروفة بقهوة كرشة ، تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا
إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى
صار مع مرور الزمن عطارة اليوم والغد . . . !

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحيط به من مسارب
الدنيا . إلا أنه على رغم ذلك يضحج بحياته الخاصة ، حياة تتصل فى أعماقها
بمجنون الحياة الشاملة ، وتمتدظ — إلى ذلك — بقدر من أسرار العالم
المنطوى . . .

أذنت الشمس بالمغيب . والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق
الغروب ، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة .
له باب على الصنادقية ، ثم يصعد صعوداً فى غير انتظام ، تحف بجانب منه
دكان وقهوة وفرن ، وتحف بجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهى سريعاً
— كما انتهى مجده الفابر — ببنتين متلاصقتين ، يتسكون كلاهما من
طوابق ثلاثة .

سكنت حياة النهار ، وسرى ديب حياة المساء . همسة هنا وهمسة هناك :
يا رب يا معين . يا زقاق يا كريم . حسن الختام يا رب . كل شئ بأمره .

مساء الخير يا جماعة . تفضوا جاء وقت المسر . امسح ياعم كامل وأغلق الدكان .
غير يا سنقر ماء الجوز . أطفئ الفرن يا جميلة . انصص كبس على قلبي .
إذا كنا نذوق أهوال الظلام والفجرات منذ سنوات خمس فهذا من
شر أنفسنا .

بيد أن دكانين -- دكان عم كامل بألح البسبوسة على بين المدخل وصالون
الحلو على يساره -- يطلان مفتوحين إلى ما بعد المغرب بقليل . ومن مادة
عم كامل أن يعتمد كرسيًا على عتبة دكانه -- أو حقه على الأصح -- ينط
في نومه والمذبة في حبه ، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس
الحلو اللطيف . هو كتاة بشرية جسيمة ، ينحسر جلها به عن ساقين كقربتين .
وتتدلى خلفه عجيذة كالقبة مركزها على الكرسي ومحيطها في الهواء ،
ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياء ، ولا ترى له رقبة ، فبين
الكتفين وجه مستدير منتفخ ، محقق بالدم ، أخفى انتفاخه معالم قسماته ،
فلا تكاد ترى في صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان ، وقة
ذلك كاه رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال
يلهث ويشخر كأنه قطع شوطًا عدوا ، ولا ينتهي من بيع قطعة بسبوسة
حتى يغلبه النعاس . قالوا له مرات ستموت بفتة ، وسيتلك الشحم الضاغط
على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا يضيره الموت
وحياته نوم متصل ؟ .

أما صالون الحلو ، فدكان صغير ، تمد في الزقاق أنيقة ، ذات مرآة
ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبها شاب متوسط القامة ، ميال للبدانة ،
بيضاوى الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر صرطل ضارب للصفرة على سمرة
بشرته ، يرتدى بدلة ، ولا يفوته لبس المريلة اقتداءً بكبار الأسطوانات !

لث هذان الشخصان في دكانيهما في حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة
للصالون تلتق أبوابها وينصرف عماها ، وكان آخر من غادرها صاحبها
السيد سليم علوان ، يرفل في جيبته وقطعانه . فاتجه صوب الحانطور الذي

ينتظره على باب الرقاق ، وصعد إليه في وقار ، ومأذ مقعده بجسمه المسكتر
يتقدمه ثاربان شركسيان . ودق الخوذي الجرس بقدمه فرق بقوة ،
وانحدرت العربية ذات الحصان الواحد إلى النورية في طريقها إلى الحامية .
وأغلق البيتان في الصدر نوافذهما اتقاء البرد ، ولاحت أنوار المصابيح
وراء خصاصها ، وكاد اللدق يفرق في الصمت لولا أن مضت قهوة كرشة
ترسل أنوارها من مصابيح كبرائية عشب الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها
السمار . هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية ، ولسكنها على غفائها
تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطابخ الجدد إلا تاريخها ،
وعدة أرائك تحيط بها . وعند مدخلها كان يكب حامل على تركيب مبالغ
نصف عمر بحدارها . وتفرق نهر قليل بين مقاعدها يدخنون البور
ويشربون الشاي . وعلى كשב من المدخل تربع على الأريكة رجل
في الخمسين يرتدي جلبابا ذا بنية موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأندلسية
ويضع على عينيه المضمضعتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قباقبه عن
الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامداً كالقشال ، صامتاً كالأموات .
لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه في دنيا وحده . ثم أقبل على القيوة عجوز
مهديم ، لم يترك له الدهر عضواً سالماً ، يحرقه غلام يسراه ، ويحمل تحت
إبط عناء ربابة وكتابا . فسلم الشيخ على الحاضرين ، وسار من فوره إلى
الأريكة الوسطى في صدر المكان ، واعتلاها بمهونة الغلام ، ثم صعد
الغلام إلى جانبه ، ووضع بينهما الربابة والسكرتاب . وأخذ الرجل يهيء
نفسه ، وهو يتفرس في وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره في
نقوسهم ، ثم استقرت عيناه الذابلتان اللتهبتان على صبي القهوة سنقر في
انتظار وقلق ، ولما طال انتظاره ، ولمس تجاهل الغلام له ، خرج عن صمته
قائلاً بصوت غليظ :

— القهوة يا سنقر . . . !

والتمت الغلام نحوه قليلاً ، ثم ولاه ظهره بعد تردد ، دون أن ينبس

بكلمة ، ضاربا عن طلبه صفحا . وأدرك المعجوز إهمال الغلام له . ولم يكن يتوقع غير ذلك ، ولكن جاءت نجدة من السماء ، إذ دخل في تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف المعجوز ولاحظ إهمال الصبي ، فقال للغلام بلهجة الأمر :

— هات قهوة الشاعر يا ولد . . .

وحدث الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل من أسي :

— شكرا لله يا دكتور بوشى . . .

فسلم الدكتور عليه ، وجلس قريبا منه . وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقيّة وقبةابا ! هو دكتور أسنان ، إلا أنه أخذ منه من الحياة بغير حاجة إلى مدرسة الطب أو أية مدرسة أخرى . اشتغل في بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان في الجمالية ، ففقه فنه بمحذقه وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة ، وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج . وربما كان خلع الضرس في عيادته المتنقلة ألما موجعا ، إلا أنه رخيص ، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدق طبعا) ، فإذا حدث نزيف — وليس هذا بالأمر النادر — اعتبر حادثة من عند الله ، وترك منه أيضاً لله ! وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين بغير زيادة . وهو يدعى في الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور ، وإله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه .

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور فتناول الرجل القدرح ، وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته ، وراح يرشف منه رشقات متتابعات حتى أتى عليه ، ثم نحاه جانبا . وذكر عند ذاك لحسب سوء سلوك صبي القهوة معه ، فحذجه بنظرة شرراء وتمتم ساخطا :

— قليل الأذنب . . .

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها ، متعاميا نظرات الغضب التي أطلقها عليه سنقر ، وراح يعزف مطلقا ، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء ، عشرين عاما أو يزيد من حياتها ، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة ،

ثم تنحسح ، وبصق ، وبسمل ، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبدي اليوم نصلي على النبي .

نبي عربي صفوة ولد عدنان .

يقول أبو سعدة الزناتي . . .

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول :

— هس ! . . . ولا كلمة أخرى . .

فرفع بصره الذابل عن الرابة فرأى العلم كرشة ، بجسمه الطويل النحيل
ووجهه الضارب للسواد وعينييه المظلمتين الناعمتين ، فنظر إليه واجماً . وتردد
قليلاً كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه . وأراد أن يتجاهل شره ،
فاستدرك منشداً :

يقول أبو سعدة الزناتي . . .

ولكن المعلم صاح به مفيظاً محنقاً .

— بالقوة تنشد ؟ . . . انتهى . . انتهى ! ألم أذكرك من أسبوع مضى ؟ !

فلاح الاستياء في وجه الشاعر ، وقال بليجة ملؤها العتاب :

— أراك تكثر من « الكيف » ، ثم لا تجد من ضحية سواي !

فصاح المعلم في غضب وحنق :

— رأسي صاح يا مخرف . وأنا أعلم ما أريد . أتحسب أني آذن لك

بالإنشاد في قهوتي إذا ما سلقتنى بلسانك القدر ؟ !

خفف الشاعر من طريجه مستوها عطف الرجل الغاضب وراح يقول :

— هذه قهوتي أيضاً . ألسنت شاعرها لعشرين عاماً خلون ؟ !

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق المراكات :

— عرفنا القصص جميعاً وحفظناها . ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد ،

والناس في أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبوني بالراديو ، وها هو

ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله . . .

فاكفهر وجه الشاعر . وذكر محسوراً أن قهوة كرشة آخر ما تبقى له من

القهورات ، أو من أسباب الرزق في دنياه : بعد جاهد عريض قديم . وبالألمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة . عمر طويل ورزق منقطع فاذا يفعل بحياته ؟ ! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد ؟ ! وماذا ينجي له المستقبل وماذا يضمم لعلامه ؟ ! اشتد به القنوط ، وضاعف قنوطه ما لاح في وجه المعلم من الجزع والاصرار ، فقال :

— رويدك يا معلم كرشة ، إن ليلالي لجدة لا تزول ، ولا يغني عنها الراديو أبدا . . .

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :

— هذا قولك . ولكنك قول لا يقره الزبائن . فلا تخرب بيتي . لقد

تغير كل شيء !

فقال الشاعر في قنوط :

— ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبي عليه

الصلاة والسلام ؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق المراكات بقوة وصاح به :

— قالت لقد تغير كل شيء !

وتحرك عنده ذاك — لأول مرة — الرجل الجامد الداهل — ذو الجلباب والبنية ورباط الرقبة والنظارة الذهبية — فصعد بصره إلى سقف القهوة ، وتهد من الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده ، وقال بصوت كالمناجاة :

— آه تغير كل شيء ، أجل تغير كل شيء يا ستي ! كل شيء تغير إلا قلبي

فهب بحب آل البيت طامس . . .

وطامن رأسه ببطء ، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار ، في حركات أخذت في الضيق رويداً رويداً ، حتى طاد إلى موضعه الأول من الجمود ، وغرق مرة أخرى في غيبوبته . ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله ، إلا الشاعر ، فقد توجه إليه كالاستغاث وقال له برجاء :

— يا شيخ درویش ایرضیك هذا ؟

ولكنه لم يخرج من غيوبة ، ولم ينس بكامة . وهنا قدم شخص جديد تعلق به الأنظار في إجلال ومودة . وردوا تحيته بأحسن منها . كان السيد رضوان الحسيني ذا طلمة مهيبية ، تمتد طولا وعرضا ، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة ، ذو حية صهباء ، يشع النور من غرة جبينه ، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيماناً . سار متمهلاً خافض الرأس ، وعلى شفقيه ابتسامة تشي بحبه للناس وللدنيا جميعاً ، واختار مجلسه على المقعد التالي لأريكة الشاعر . وسرطان ما رحب به الشاعر وبته شكواه . ومنحته السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه ، وكان حاول مراراً أن يثنى المعلم كرشة عما اعترمه من الاستغناء عنه دون جدوى . ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره ، ووعد به بأن يبحث لفلامه عن عمل يرتزق منه ، ثم غمز كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس في أذنه « كلنا أبناء آدم ، فإذا أُلحت عليك الحاجة فاقصد أخاك ، والرزق رزق الله ، والفضل فضله » . وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقاً ، شأن الكريم الفاضل ، يحب الخير ويصنعه ويزداد بصنعه رضا وجمالاً . كان يحرص دائماً على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل ، أو ينقلب إلى بيته ملوماً محسوراً . وإنه ليبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من المومنين المثقلين بالمال والمتاع ، وإن كان في الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق وبضع أفدنة بالمرج . وقد وجد فيه سكان بيته — المعلم كرشة في الطابق الثالث وعم كامل والحلو في الطابق الأول — مالمكا طيب القلب والمعاملة ، حتى أنه تنازل عن حقه في الزيادة التي قررهما الأمر العسكري الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين ، فسكان رحمة حيث حل وحيث يقيم . وقد كانت حياته — وخاصة في مدارجها الأولى — مرتعاً للخصية والألم . فأنتهى عهده طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل ، وقطع بين أرواقته شوطاً طويلاً من عمره دون أن

يظفر بالمالية ، وابتلى — إلى ذلك — بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال . ذاق مرارة الحمية حتى ارتع قلبه باليأس أو كاد ، وتمزج غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجوع والبرم ، وانطوى على نفسه طويلاً في ظلمة فاشية . ومن دجنة الأحران أخرجه الإيمان إلى نور الحب ، فلم يعد يسرف قلبه كرباً ولا همّاً . انقلب حباً شاملاً وخيراً عمياً وصبراً جميلاً . وطأ أحران الدنيا بنعليه ، وطار بقلبه إلى السماء ، وأفرغ حبه على الناس جميعاً . وكان كلما تذكر الزمان عنتاً ازداد صبراً وحباً . رآه الناس يوماً يشيع ابناً من أبنائه إلى مقبره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه ، فأحاطوا به مواسين معزين ، لسكنه ابتسم لهم ، وأشار إلى السماء وهو يقول : « أعطى وأخذ ، كل شيء بأمره وكل شيء له ، والحزن كفر » فكان هو العزاء . ولذلك قال عنه الدكتور بوشى : « إذا كنت مريضاً فالس السيد الحسيني يأتك الشفاء ، وإذا كنت يائساً فطالع نور غرته يدركك الرجاء ، أو محزوناً فاستمع إليه يبادرك الهدوء » . وكان وجهه صورة من نفسه فهو الجمال الجليل في أبهى صورته .

أما الشاعر فقد رضى بعض الرضاء ، ووجد شيئاً من العزاء ، وتزحزح تاركاً الأريكة ، وتبعه الغلام وهو يلم الرابة والكتاب . وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسيني ، وحيا الجلوس متجاهلاً للعلم كرمية ، ثم ألقى نظرة ازدراء على المذيع الذي كاد العامل يفرغ من تشيته ، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج ، وفابا عن الأنظار . ودبت الحياة مرة أخرى في الشيخ درويش ، فأدار رأسه نحو الجهة التي اختفى فيها الناهبان ، وتأوه قائلاً : — ذهب الشاعر وجاء المذيع . هذه سنة الله في خلقه . وقدما ذكرت في

التاريخ ، وهو ما يسمى بالانجليزية History وتهجيتها .. history وقبل أن يختم تهجية السكامة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد أن أغلقا دكانيهما . ظهر الحلو أولاً ، وقد غسل وجهه ، ورجل شعره الضارب للصفرة وتبعه عم كامل يتبعثر كالمحمل ، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً . وساما

على الحاضرين : وجلسا جنباً لجنب ، وطلبوا الشاي . ولم يكونا يحلان بمكان حتى بملاحة ثرثرة . قال عباس الحلو :

— يا قوم اسمعوا . شكنا إلى صديق عم كامل قال : إنه عرضة للموت في أية لحظة ، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به . . .

فقال بعض الحاضرين متهمكاً :

— أمة محمد بخير . . .

وقال البعض الآخر :

— إن له لتركته من البسبوسة تكفي لدفن أمة بأسرها . . .

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلاً :

— لا تقفأ تذكر الموت . وتالله لتدفننا جميعاً بيديك . . .

فقال عم كامل بصوت رفيع برىء كالأطفال :

— اتق الله يا شيخ . أنا رجل مسكين . . .

واستطرد عباس الحلو قائلاً :

— يا قوم : عزت على شكاة عم كامل ، ولبسبوسته فضل علينا جميعاً

غير منكرور ، فابتعت له كفنًا احتياطياً ، واحتفظت به في مكان حريز لساعة

لا مفر منها ، (والتفت إلى عم كامل قائلاً) هذا سر أخفيته عنك ، وها أنا

أعلنه على الملأ ليكونوا على شهوداً . . .

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم ، متصنعين الجذ ، ليجوز الكلام على

عم كامل المشهور بسرعة تصديقه ، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه ،

وقالوا إن هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذي يحبه ويساكنه شقة

واحدة ، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه ، حتى السيد رضوان الحسيني

ابتسم راضياً ، مما جعل عم كامل ينظر إلى الشاب في سذاجة ودهشة

ويقول متسائلاً :

— أحقاً ما تقول يا عباس ؟ !

فقال الدكتور بوشى :

— لا يداخلك الشك يا عم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورأيت الكفن بعيني رأسي وهو كفن قيم وددت لو يكون لي مثله . .

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

— حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تتمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاماً مريئاً للدود ، فيرعى لحماك ألهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدع . ومعناها بالإنجليزي frog وتمجيتها Frog .

وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحاو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدرجه ، ثم دعا له طويلاً ، وانبسط وحمد الله . وارتفع عند ذلك صوت فتى آتياً من الطريق يقول :

— مساء الخير . .

وانجبه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسيني . كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى في العشرين ، في مثل لون أبيه الضارب إلى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الخلق والفتوة والنشاط . كان يرتدى قميصاً من الصوف الأزرق وينطاوناً خاكياً وقبعة ، وحذاء ثقيل ، تلوح على سيماء مظاهر نعمة المشتغلين بالبحر البريطاني . وكان ذلك ميعاد عودته من « الأرنس » كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الإعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الحاو إلى القهوة ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله .

ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعاً من نور تمكسر بعض أضلعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصائص نوافذ البيتين تنطفئ واحداً في إثر واحد . وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومي ، إلا الشيخ درويش فقد أغرق في ذهوله ، وعم كامل مال رأسه على ثدييه وراح في سبات . وظل منقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمي بالماركات في الصندوق ، والمعلم

كرشة يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خمول ذوبان الفص في جوفه
ويستنجم إلى سلطنة لذيدة . وتقدمت جحافل الليل ، فنادر السيد رضوان
السيني القهوة إلى بيته . وتبعه بعد قليل الدكتور يرشى إلى شقته في الدور
الأول من البيت الثاني . ثم لحق بهما الحلو وعم كامل . وأخذت المقاعد تخلو
تباعاً ، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة : المعلم والصبي والشيخ
درويش . وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم كرشة ، وصعدوا جميعاً إلى
حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان ، وتخلعوا الجمره ، وبدءوا
سهرة جديدة لا تنتهي حتى يتبين الخط الأبيض من الأسود من الفجر .
ونحاطب سنقر الشيخ درویش فائلاً برقة :

— انتصف الليل يا شيخ درویش ...

فانتبه الشيخ إلى صوته . وخلع نظارته بهدوء ، وجلالها بطرف جلجابه .
ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبتة ونهض قائماً واضعاً قدميه في الققباب
وخادر القهوة دون أن ينبس بكلمة ، يخرق السكون بضربات قبقابه على
بلاط الرقاق . كان السكون شاملاً ، والظلمة ثقيلة . والطرق والدروب خالية
مقفرة ، فترك لقدميه مقوده ، حيث لا دار له ولا غاية . وغاب في الظلمة .

كان الشيخ درویش على عيد شبابه مدرساً في إحدى مدارس الأوقاف ،
بلى كان مدرس لغة الإنجليزية . وقد عرف بالاجتهاد والنشاط ، وأسمعته
الحظ أيضاً فكان رب أسرة سعيدة . ولما أن انضمت مدارس الأوقاف
إلى وزارة المعارف ، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوي المؤهلات
المالية ، فاستحال كاتباً بالأوقاف ، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة ،
وعدل مرتبه على هذا الأساس . كان من الطبيعي أن يحزن الرجل لمصيره
حزناً عميقاً . وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة ، يعلنها حيناً ، ويكتُمها
— مقصوراً مغلوباً على أمره — أحياناً . ولقد سعى كل مسعى ، وقدم
الالتماسات . واستشفع الرؤساء ، وشكا الحال وكثرة العيال ، دون

جدوى . ثم سلم للقنوط بعد ان تحطمت أعصابه أو كادت . واشتهر أمره في الوزارة كوظف كثير التبرم والشكوى ، عظيم اللجاج والعناد ، سريع التأثير ، لا يكاد يمضى يوم من حياته دون شجار أو اصطدام ، كبير الاعتداد بنفسه ، والتحدى الآخرين . وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف — وكثيراً ما يحدث — تعالى استكباراً ، وخاطب خصمه بالإنجليزية ، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب ، صاح به في ازدراء شديد « تعلم أولاً ثم خاطبني ! » . وكان أنباء شجاره وعناقه تتصل برؤسائه أولاً فأول ، وكانوا يتساحون معه ، عطفاً عليه من ناحية ، وتحامياً لشره من ناحية أخرى . ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات ، وخصم يوم أو يومين . ولكنه ازداد بكروار الأيام صلفاً ، حتى تراءى له يوماً أن يحرق خطاباتته المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل . وكان يقول في تسويف ذلك إنه موظف فنى لا كغيره من الكتاب ، وتمطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة ، ولكن المقدر كان أسرع من حزم المدير ، فطلب الرجل يوماً مقابلة وكيل الوزارة ، ودخل درويش افندى — كما كان وقتذاك — حجرة الوكيل في تؤدة ووقار ، وحياء تحية الند للند ، وبادره قائلاً بثقة ويقين :

— باسمادة الوكيل لقد اختار الله رجلاه .

فطلب إليه الوكيل أن ينصح عما يريد ، فاستدرك قائلاً بوقار وجلال :

— أنا رسول الله إليك بكادر جديد .

هكذا ختمت حياته بالأوقاف . وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحداً منها . هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها ، ولم يستبق من آثار الماضي شيئاً إلا نظارته الذهبية . ومضى في طامله الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى . ودلت حياته على أن بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين ، ثم لا يجدون همّاً ولا كراً ولا حاجة . لا جاع يوماً ولا تمرى

ولا تشرد . وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والنبطة لا عيب له بها .
وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعاً صارت بيتاً له ، وإذا كان قد حرم مرتبه
فالتعلق بالمال قد انقطع عنه ، وإذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس
جميعاً انقلبوا له أهلاً . يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد ، ويتمزق رباط
الرقبة فيجيئته رباط جديد ، ولا يحمل مكاناً حتى يرحب به ناسه . وبحسبه
أن يفتقده المعلم كرشة نفسه — على ذهوله — إذا غاب عن القهوة يوماً .
ومع ذلك فلم يكن يأتي شيئاً عما يمتد فيه العامة من المعجزات والخوارق
وقرارة الغيب . فهو إما ذاهل صامت ، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى
أنى يكون موقعه من النفوس . بيد أنه رجل محبوب مبارك ، يستبشر
الجميع بوجوده بينهم خيراً ، ويقولون عنه إنه ولي من أولياء الله الصالحين
يأتيه الوحى باللغتين العربية والإنجليزية . . .

٣

نظرت إلى المرأة بعين غير ناقدة ، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع
الرضا ، فعكست المرأة وجهاً نحيلاً مستطيلاً فعل الزواق بخدييه وحاجبيه
وعينييه وشفتيه الأجاجيب . وجعلت تعطفه يمنة ، وتعطفه يسرة ، وأصابها
تمسق ضفيريها ، منغممة بصوت لا يكاد يسمع « لا بأس . جميل . وأيم الله
جميل » . والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاماً ،
والدنيا لا تدع وجهاً سالماً نصف قرن من الزمان . أما جسمها فنجيل ،
أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق ، وأما الصدر فأوسع ، بيد أن فستاناً حسناً
يستره . هذه هي الست سنية عفيفي صاحبة البيت الثانى بالزقاق ، حيث
يسكن الدكتور بوشى طابقه الأول . وفى ذلك اليوم كانت تأخذ أهبتها
لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها أم حميدة . ولم يكن من حادثها إلا كثار
من زيارة أحد ، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتمصيل

الأجرة ، إلا أن باعنا جديداً دب في أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة . وهكذا فادرت شقتها ، ونزلت السلايليم ، متبهمة برجاء « اللهم حقق الآمال » . ودقت الباب بكنفها المبروكة ففتحت لها حميدة ، واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة ، وقادتها إلى حجرة الضيوف ، ثم ذهبت تدعو أمها . كانت الحجرة صغيرة ، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين ، وفي الوسط خزان باهت عليه نافضة سجاجير ، وأما أرضها فمفروشة بمحصيرة . ولم يطل بالمرأة الانتظار ، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيرت جلباب البيت ، فسلمتها بشوق ، وتبادلتا قبيلتين ، وجلستا جنباً لجنب ، وأم حميدة تقول :
— أهلاً . . أهلاً . . زارنا النبي ياسر سنية .

كانت أم حميدة ربة ممتلئة ، في الستين ، ولكنها معافية قوية ، جاحظة العينين ، مجدورة الخدين ، ذات صوت غليظ قوى النبرات ، فإذا تحدثت فكأنها تزعق ، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزاع . ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال ، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه ، وقد يندر بالخطر . ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإنها على كثرة الحالين لقادرة . وكانت بحكم وظيفتها — خاطبة وبلانة — عميقة الملاحظة كثيرة الكلام . بل كانت لساناً لا يكف ولا يمسك ، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شيوخ الحي أو بيت من بيوته ، فهي مؤرخة راوية لأخبار السوء — على الغالب — ومعجم للمنكرات . وأرادت كهادتها أن تتسلل بالكلام فراحت ترحب بالضييفة ، وتطنب في الثناء عليها ، وتروي لها نتفاً من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة : أما علمت بنضيحة المعلم كرشة الجديدة ؟ هي كسما بقاتها ، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومنزقت جبينه . وحسنية القرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى إضر الدم من جبينه . والسيد رضوان الحسيني الطيب الورع زجر زوجه

زجراً شديداً ، لماذا يعاملها هذه المعاملة — وهو الرجل الطيب — إن لم تسكن شريرة خبيثة ! . الدكتور البوشي احتك بفتاة صغيرة في الحب في آخر غارة وضربه رجل محترم . كريمة الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ أبوها القسم . طابونة السكفراوى تبسع عيشاً غير مخلوط سراً ، الخ الخ .

أصفت الست سنية عفيق بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذى جاءت من أجله . وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختماره بنفسها مهما كانها الأمر . بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تنهيا لها فرصة مواثية . وقد تنهيات هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة :

— وكيف الحال يا ست سنية ؟

فعبست قليلا وقالت :

— الحق إنى تعبئة يا ست أم حميدة .

فرفعت أم حميدة حاجبها كالمنزعجة وقالت :

— تعبئة ؟ ! كفى الله الشر !

وأمسكت ست سنية ريثما تضع حميدة — وكانت دخلت الحجرة في هذه اللحظة — صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت . ثم قالت بامتعاض :

— تعبئة يا ست أم حميدة . أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين ؟ تصويرى وقوف امرأة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة . . . وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات أسيفة :

— صدقت يا ستى . كان الله فى عونك .

ولم تفهم ملاحظة هامة فتساءلت : لماذا تكثر المرأة من ترداد هذه الشكوى ؟ وذكرت أنها أعادتها على سمعها مرات ! بل ذكرت أن هذه ثانى أو ثالث مرة تزورها فى غير أول الشهر . وخطر لها خاطر عجيب هشت له بحكم وظيفتها . وكانت فى أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى .

فصنعت أن تسبر الزائرة من وراء وراء ، فقالت بخبث :
— هذه إحدى شرور الوحدة . أنت امرأة وحيدة يا ست سنية . في
البيت وحدك ، وفي الطريق وحدك ، وفي « الفراش » وحدك
ألا قطعت الوحدة ...

وسرت الست سنية بحديث المرأة الذي كأنه يلبي خواطرها ، وقال
وهي تخفي سرورها به :

— وما عسى أن أصنع ؟ أقاربى ذوو أسر ، وأنا لا أرتاح إلا في
بيتي . والحمد لله الذي أغنانى عن الناس جميعا ...

وكانت أم حميدة تلاحظها بمكر ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :
— الحمد لله ألف مرة ، ولكن بالله خبرينى لماذا قضيت على نفسك
بالعزوبة هذا الدهر الطويل ... ؟ !

نخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه حيال ماتريد
ولسكنها تنهدت بانسكار وقالت بتأفف متكلف :
— حسبي ماذقت من مرارة الزواج ... !

كانت الست سنية عفيفي قد تزوجت في شبابها من صاحب دكان روائع
عطارية ، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق ، فأساء الرجل معاملتها
وأشقى حياتها ، ونهب مالها ، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام . ولبثت
أرملة طوال تلك الأعوام لأنها — على حد قولها — كرهت حياة الزوجية
ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به إهمال الجنس الآخر لها ، فقد
كرهت الحياة الزوجية حقاً ، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها ، وظلت
على تقورها من الزواج وفرحها بحريتها عيدا طويلا ، ثم أنسيت تلك العاطفة
بكروار الزمن . ولم تكن تتردد عن تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب
يدها طالب . وجعلت تراود الأمل حيناً بعد حين ، حتى طال به الأمد ،
فغلبها القنوط ، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب ، ووطنت
النفس على الرضا بحياتها كما هي . ولما كان من الضروري أن يوجد في حياة

الإنسان شيء، تنعقد حوله آماله، شيء، يقرر لحياته قيمة ولو وهمية أو سخيفة، فقد وجدت ضالتها كذلك. ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة هازبة مثلها، فأولمت بالقهوة والسجائر واكتتاز الأوراق المالية الجديدة. وقد كانت في الأصل تميل قليلا نحو الخرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد ذلك الميل القديم وتقويه وتمتقوى به. وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة في صندوق طاجي صغير أخفته في أعماق صيوان ملابسها، ووزعتها رزما من ذوات الخمس والعشر، تتسلى بمشاهدتها ومباردة عددا وترتيبها. ولما كانت الأوراق خرسا لا كالمقود المدنية فقد أمنت الأخطار، ولم يدربها أحد من شطار اللدق على شدة حساسيتهم. وجدت في حياتها المالية عزاء، واتصلت منها اعتذارا لعزوبتها، وقالت لنفسها إن أي زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج الرحوم، وبأن يضيع عليها في غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال، ومع ذلك فما كاد يتسرب إلى قلبها الإيحاء بنسكرة الزواج حتى تناسلت الأعذار والخاوف جميعا. وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول العجيب، سرء عن قصد أو عن غير قصد، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز. ففكرت في الأمر على أنه يمكن التحقيق، وسرطان ما استولى على إرادتها، فتدافعت إلى طاعته لاتلوى على شيء. ظنت يوما أنها نسيت الزواج، فإذا بالزواج أمليا المنشود الذي لا يغنى عنه شيء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة. وجعلت تتساءل في جزع كيف ضاع ذلك العمر هباء، كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة؟! وقالت إن هذا هو الجنون، وحملت زوجها الرحوم تبعته، وصمتت على أن تسكر عنه، وأن تسكر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن.

وأصغت الخاطبة إلى تأفقا المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها: «لا يجوز علي مكرك يا مرة». ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم:

— لا تنأى يا ست سنية . إذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشرق والمغرب . . .

فقلت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة :

— لا ينبغي لساقل أن يعاند الحظ إذا تبهم .

فاعترضتها أم حميدة قائلة :

— ما هذا الكلام يا ست العاقلات ! كفك وحدة كفك .

فدقت المرأة صدرها الأيسر بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع :

— يا خبر . أتريدى الناس على أن يرمونى بالجنون ؟ !

— أى أناس تعينى ؟ إن أ كبر منك يتزوجن كل يوم .

فتضايقت من « أ كبر منك » وقالت بصوت منخفض :

— لست من الكبر كما تظنين . . لعن الله الهيم .

— ما قصدت هذا يا ست سنية . وما أشك فى أنك مازلت فى حدود

الشباب ، ولكنك الهيم الذى تلتحفين به مختارة .

فارتاحت الست ، ولكنها كانت لا تزال منصرة على تشييل دور من

يماق إلى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة ، فتساءلت بعد تردد :

— ألا يعينى أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل

من العزوبة ؟ .

فخطبت أم حميدة نفسها قائلة : « لماذا قصدتى إذا يا مرة ؟ » . ثم

خطبت الست قائلة :

— كيف يعينك ما هو شرع وحق ! أنت ست عاقلة شريفة ، والكل

يشهد لك بذلك . والزواج نصف الدين يا حبيبتي ، وربنا شرعه حكمة ،

وأمر به النبي عليه الصلاة والسلام . .

فقلت الست سنية بإيمان :

— صلى الله عليه وسلم .

— كيف لا يا حبيبتي ! نى عربى ويحب عبده !

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر ، وتل فؤادها سروراً ، فقالت وهي تستخرج سيجارتين من علبتها :

— ومن يرضى بالزواج مني ؟

فتبت أم حميدة سبابة يسراها ، ولصقته بحاجبها ، وقالت باستنكار :

— ألف رجل ورجل !

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت :

— رجل واحد يكفي ..

فقالت أم حميدة بيقين :

— الرجال جميعاً يحبون الزواج في أعماقهم . ولا يكاد يشكو الزواج

إلا المتزوجون . وكم من رجل عازب راغب عن الزواج ، ما إن أقول له :

« عندي عروس لك ! » حتى تدب في عينيه الیقظة ، ويغلبه الابتسام ،

ويسألني في لطفة لا تخفي « حقاً .. من ! .. من ؟ » . الرجل يريد المرأة

ولو أقعده الكساح ، وهذه حكمة ربنا .

فهزت الست سنية رأسها في ارتياح وقالت :

— جلت حكمته ! .

— نعم يا ست سنية . لذلك خلق الله الدنيا . كان في وسعه أن يملأها

رجالاً فحسب ، أو نساء فحسب . ولكن خلق الذكر والأنثى ، ومنحنا

العقل كي نفهم مراده . فلا محيد عن الزواج .

فابتسمت الست سنية عفيفي وقالت برقة :

— كلامك كالسكر يا ست أم حميدة !

— حللى الله دنياك ، وآنس قلبك بالزوج الكامل .

فتشجعت الست وقالت :

— إن شاء الله ، وبفضلك .

— أم حميدة — بحمد الله — مباركة . زيجاتي لا انقضاء لها .

ياما عمرت بيوتا ، وأنجبت أطفالا ، وأسعدت قلوبا . فليكن اعتقادك على الله وعلى ..

— جزاؤك لن يقدر بمال .

فقالت أم حميدة في سرها : « لا .. لا يا مرة ، ينبغي أن يقدر بمال ، وبمال كثير . هاهنا إلى صندوق التوفير وأعطيني ، وكفاك تقطيرا .. » . ثم قالت بلبحة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا ألهام من الأمور .

— أظنك تفضلين رجلا متقدما في السن ؟ ! .

لم تدر الأخرى بماذا تجيب . لم تكن تطمع في الزواج من شاب ، ولا كان الشاب بالزوج الذي يناسبها ، ولكنها لم ترجح إلى « متقدم في السن » هذه ، وكان تدرج الحديث قد خلطها بام حميدة فأنست إليها ، واستطاعت أن تقول وهي تضحك لتداری ارتبا كيا :

— أصوم وأفطر على بصلة ! .

فضحكت أم حميدة ضحكة طالية رنت رنيناً مزعجاً ، وازدادت اطمئنانا إلى نقاسة الصنفقة التي هي بصدد عقدها ، ثم قالت بنجبت :

— صدقت يا ست . والحق أن التجارب دلتني على أن أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج ، ولستم يناسبك رجل في الثلاثين أو يزيد قليلا .

فتساءلت المرأة في قلق :

— وهل يوافق ؟

— يوافق ويوافق ! أنت سيدة جميلة وغنية !

— سامت من كل سوء !

فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجذ والاهتمام :

— أقول له سيدة نصف ، لا ولد لها ولا حماة ، أدب ، وكمال ، صاحبة دكانين بالجزاوى وبيت ذى طابقين بالمندق .

فابتسمت الست وقالت تصحيح لها ما حسبته هفوة :

— بل ذى ثلاثة طوابق .

ولكن الأخرى قالت معترضة :

— إثنان فحسب ، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى إيجاره

مدى حياتى !

فقات ست سنية فى سرور :

— لك عيناى يا ست أم حميدة !

— سامت عيناك . ربنا يهيء ما فيه الخير .

فبرزت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت :

— يا للعجب ! جئت لك لجرد الزيارة فانظري كيف انتهى بنا الحديث ؟

وكيف أغادرك فى حكم المتزوجات ؟ !

فجارتها أم حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضاً ، وإن راحت تقول لنفسها :

« يا مرة احتمشى ، أتمسبين أن مكرك يجوز على ؟ ! » ثم قالت :

— إرادة ربنا ! أليس كل شئ بأمره ؟ !

وعادت الست سنية عفيفى إلى شقتها مسرورة فرحة ، بيد أنها حادثت

نفسها قائلة : « إيجار شقة مدى الحياة ! يا لها من امرأة جشمة » .

٢٣

ودخلت حميدة الحجرة عقب مناداة الست سنية لها . كانت تمشط شعرها

الأسود ، تفوح منه رائحة الكبروسين . فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم

اللامع تكاد تتجاوز ذؤابات المسترساة ركبتى الفتاة ، وقالت بأسف .

— واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل . . . !

فبرقت عيناى سوداوان مكحلتان بأهداب وطف ، ولاحت فيهما نظرة

حاددة صارمة ، وقالت الفتاة بحدة :

— قل ؟ ! والنبي ما وجد المشط إلا قلمتين اثنتين !

— أنسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة ؟
فقلت بغير مبالاة :

— كان مضى على رأسي شهران بلا غسيل . .

ثم اشتد ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب أمها . كانت في العشرين متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية البشرة ، يميل وجهها للطول ، في نقاء ورواء ، وأميز ما يميزها عينا سوداوان جميلتان ، لها حور بديع فاتن ولسكنها إذا أطبقت شفثيها الرقيقتين وحدث بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها ! وقد كان غضبها دائماً مما لا يستهان به حتى في زقاق المدق نفسه . وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت . قالت لها يوماً وهما يتسابان « لن يلم الله شعئك برجل ، فأى الرجال يرضى بأن يضم إلى صدره حجرة موقدة ! » . وكانت تقول في مرات أخرى إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب ، وسمتها لذلك الحسين باسم الرياح المعروفة . ومع ذلك كانت تحبها كثيراً وإن كانت في الحقيقة أمها بالتبني . كانت الأم الحقيقية شريكة لها في الاتجار بالفتنة والموغات ، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق في ظروف سيئة ، وأخيراً ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سن الرضاع ، فتبنتها أم حميدة ، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجي فأرضعها مع ابنها حسين كرشة ، فهي أخته بالرضاعة .

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة ، ولما طال الصمت قالت الفتاة :

— طالت الزيارة . فيم كنتما تتحدثان ؟

فضحكت أمها في سخرية وتمتمت :

— خنني !

فقلت الفتاة وقد اشتد اهتمامها :

— طلبت رفع الإيجار .

— لو فعلت مخرجت محمولة على أيدي رجال الأسعاف ، ولكنها طلبت خفضه !

فصاحت حميدة .

— هل جنت ؟

— أجل جنت ، ولكن خفي ..

فتمنحت الفتاة وهي تقول :

— أتعبتني !

فأرغشت المرأة حاجبها وقالت وهي تغمز بعينها :

— صاحبك تروم الزواج !

فتمنحت الفتاة الدهشة وقالت :

— الزواج !

— أجل . وتريد شابا . أسفى عليك من شابة عائرة الحظ لا تجد من

يطلب يدها !

فخدجتها الفتاة بنظرة شزاء وقالت وهي تضفر شعرها :

— بل أجد كثيرين ، ولكنك خاطبة فاشلة تريد أن تدارى فشلك .

وماذا بي مما يسب ؟ ولكنك كما قلت امرأة فاشلة ، يصدق عليك المثل القائل

« باب النجار مخلع » ..

فابتسمت أم حميدة قائلة :

— إذا تزوجت الست سنية عفيفي فلا يصح لا امرأة أن تياس ...

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

— لست أجرى وراء الزواج ، ولكنه يجري ورأى أنا ، وسأنبذه

كثيراً ..

— طبعاً ! أميرة بنت أمراء !

فتناضت الفتاة عن سخريه أمها وقالت بنفس الليجة الحادة :

— أفي هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار ؟

ولم تكن الأم في الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار ، ولا تشك في جمالها ، ولا يكنها كانت كثيراً ما تثور بعجبها وغرورها . فقالت باستياء :

— لا تسليق الزقاق بلسانك ، إن أهله سادة الدنيا !

— سادة دنياك أنت . كلهم كعدمهم ، اللهم إلا واحداً به رمق جعلتموه أخى !

وكانت تعنى حسين كرشة أخاها بالرضاعة ، فبال أمها الأمر وقالت بليجة انتقاد واستياء :

— كيف تقولين هذا ؟ ما جعلناه أخا . وما نملك أن نصنع أخا ولا أختا ، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله . .

فغلبتها روح المجون وقالت طابشة :

— ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الأخرى ؟ فلكنتها أمها في ظبرها وصاحت بها :

— قاتلك الله . .

فغمضت الفتاة بازدياء :

— زقاق المدم !

— أنت تستحقين موطئاً قد الدنيا !

فتساءلت بتحد :

— هل الموظف إله ؟

فتنهبت الأم قائلة :

— آه لو تخففين من غلوائك . . .

فقلدت لهجة أمها قائلة :

— آه لو تنصفين ولو مرة في العمر !

— آكلة شاربة ثم لا تشكرين . أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب !

فقلت حميدة بدهشه :

— وهل الجلباب شيء يهون ؟! . . . ما قيمة هذه الدنيا بغير اللباس الجديدة ؟! ألا ترين أن الأولى بالفتاة التي لا تجدد ما تزين به من جميل الثياب أن تدفن حية ؟!

ثم امتلأ صوتها أسفاً وشئ تقول مستدركة :

— آه لو رأيت بنات المشغل ! آه لو رأيت اليهوديات العاملات ! كنائس يرفلن في الثياب الجميلة . أجل ما قيمة الدنيا إذا لم تر تد ما يحب ؟!

فقلت الأم باستياء :

— أفقدتكم مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك : وهيهات أن يهدأ لك بال . .

فلم تعبأ قوطا وكانت اتهمت من تضفير شعرها . فاستخرجت من جيبتها مرآة صغيرة ، ثبتتها على مسند الكنبة ، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غفمت بلهجة تنم عن الإعجاب :

— آه يا خسارتك يا حميدة ! لماذا توجدن في هذا الزقاق ؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب ؟!

ثم دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطل على الزقاق . ومدت يديها إلى مصراعها المفتوحين وجذبتهمما حتى لم يهد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ . وارتفعت النافذة ملقبة بصرها إلى الزقاق . متنقلة به من مكان إلى مكان ، قائلة وكأنها تخاطب نفسها في سخرية :

— مرحباً بك يا زقاق الهنا والسعادة . دمت ودام أهلك الأجلاء . يا لحسن هذا المنظر ، ويا لجمال هؤلاء الناس . ماذا أرى ؟! هذه حسنة القرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكية عيناً على الأرغفة وعيناً على جمعدة

زوجها ، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لسكاتها وركلاتها . وهذا المعلم كرشة القهوجى متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم . وعم كامل يخط فى نومه ، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب . آه . وهذا عباس الحلو يسترق النظر إلى النافذة فى جمال ودلال ، ولعله لا يشك فى أن هذه النظرة ستترمى عند قدميه أسيرة لهواه ، أدركونى يا هوه قبل التلف . أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة ، رفع عينيه يا أماه وغضهما ، ثم رفهما ثانية . . . قلنا الأولى مصادفة ، والثانية يا سليم بك ؟ ! رباة هذه نظرة ثالثة ! . ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء ؟ ! . مصادفة كل يوم فى مثل هذه الساعة ؟ ! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذاً لبادلتك نظرة بنظرة ، ولقلت لك أهلا وسهلا ومرحبا . هذا كل شىء ، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل ؟ ! . أوه . . . ها هوذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبqابه . . .

وهنا قاطعتها أمها فى سخرية :

— ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك !

فلم تلتفت إليها ، ورقصت لها عجيزتها وهى تقول :

— ياله من رجل مقتدر . يقول إنه أتفق فى حب السيدة زينب

مائة ألف جنيه ، فهل يبخل على بعشرة آلاف ؟ !

ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفا ، وهادت إلى المرأة ملقية إليها

نظراً فاحصا ، وتنهدت وهى تقول :

— يا خسارتك يا حميدة . . .

٤

في الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل ، لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله . بيد أن النشاط يدب في الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتجه سنقر صبي القهوة فيهيء المقاعد ويشعل الوابور ، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجاً وأفراداً ، ثم يلوح جمعة حاملاً خشبة العجين ، حتى عم كامل نفسه يشغل في هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس ! . وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معاً ، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل الأخضر والخيار المخلل . وكان مزاجهما في الأكل مختلفين ، فالحلو سريع يلتهم رغبته في دقائق معدودات ، أما عم كامل فبطيء يمضغ اللقمة في أناة حتى يكاد يذيقها في فيه ، وكثيراً ما يقول : إن الطعام المفيد يهضم في الفم أولاً ، ولذلك فالحلو ينتهي من طعامه ، ثم من احتساء الشاي وتدخين الجوزة ، والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل ، ولذلك أيضاً فاسكى يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده ! . وعم كامل — رغم جسامته وضخامته — لا يهدأ كولا وإن كان يلتهم الحلو بشراهة . وهو حلواني ماهر ، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن إلا في الطلبات الخاصة التي يوصى عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان الحسيني والمعلم كرشة . وطار في ذلك صيته حتى جاوز المدق إلى الصناديق والغورية والصاغة . ولكن رزقه كان على قد عيشته البسيطة دون زيادة ، فلم يكن كاذباً حين شكا إلى عباس الحلو أنهم لن يجبدوا بعد وفاته ما يدفون به . وقد قال — ذلك الصباح — مخاطباً الحلو بعد أن فرغ من طعامهما :

— قلت إنك ابتعت لى كفنًا ، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والثناء ،
ولكن ما قولك فى أن تنزل لى عنه الآن ... ؟
فتمجيب عباس الحلو الذى كاد ينسى الكفن كما تنسى طاعة الأفاضل ،
وسأله :

— وماذا تريد أن تفعل به ؟ ؟ !
فقال الرجل بصوته الرفيع الذى يحاكي أصوات الغلمان :
— أنتفع بثمانه ! .. ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان الأثمنة ؟
فضحك الحلو وقال :

— أنت رجل ما كرم على رغم ما تتظاهر به من سداجة . بالأفس
شكوت أنك لن تجد ما تكفن به بعد موتك ، فلما أن أعددت لك الكفن
تريد أن تنتفع بثمانه ! ولكن هيهات أن تنال ما تريد . لقد ابتعت الكفن
لأكرم به جثتك بعد عمر طويل إن شاء الله . .
فابتسم عم كامل فى ارتباك وقال :

— هب أن العمر قد امتدبى حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل
الحرب ، ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الفالى ؟ !
— وهبك تموت غداً ؟ !

فقطب عم كامل وقال :

— لا قدر الله !

فقبضه الحلو ضاحكا وقال :

— عبثًا تحاول أن تثنيى عما اعترمت . سيبقى الكفن فى حوز حريز
حتى يقضى الله أمراً كان منفعولا . .
وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكه . ثم قال
الشاب معاتباً :

— يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة ! . هل استفدت منك مليا

واحداً في حياتي ؟ ! مطلقاً . ذقنك جرداء لا تنبت ، وكذلك شاربك .
رأسك أصابع . وليس بهذه الدنيا الواسعة التي تدنوها جسمك شعرة
واحدة أنتفع بحلقها سائحك الله . .

فابتسم عم كامل قائلاً :

— جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله . .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء ، فنظرا إلى داخل الزقاق فرأيا
المعاملة حسنية الغرائة تنهال على زوجها جسيمة بالشبشب : والرجل يتمتقر
أمامها لا يملك لها دفماً ، وصراخه يملو حتى طبق الآفاق . فضضكت الرجلان
وصاح عباس الحلو مخاطباً المرأة :

— العفو والرحمة يامعاملة . .

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتقى جمدة عند قدميها باكياً مستعطفاً .
ولبت عباس ضاحكاً وهو يقول لعم كامل :

— ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتى يذوب شحمه !

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادماً من البيت في سرواله وقبعه وقبعته .
كان ينظر في ساعة في معصمه ، تياماً تخوراً . وعيناه الصغيرتان الحاذقتان
تمتتان زهراً . وقد حيا صديقه الحلاق ، ومضى إلى الكرسي داخل
الصالون وجلس عليه ليحلق شعره في يوم عطلته . وقد نشا الصديقان معاً
في زقاق المدق . كما رأيا نور الدنيا في بيت واحد ، بيت السيد رضوان
الحسيني ، بيد أن عباس الحلو رأى هذا النور النبوي قبل صاحبه بثلاثة
أعوام . وكان الحلو في ذلك الوقت يعيش في حضنة والديه ، قبل أن
يعرفه عم كامل ويشاطره شقته بخمسة عشر عاماً . وقد قطع الصديقان الطفولة
والصبا معاً ، وأخى بينهما الحب والودرة ، وظلا على صداقتهما حتى بعد أن
فرق بينهما العمل ، فاشتغل عباس صبي حلاق بالسكة الجديدة ، وعمل حسين
صبياً في دكان دراجات بالجمالية . وقد تباينت أخلاقيهما منذ البدء ، ولكن

لعل تباينهما هذا كان من أهم الأسباب التي أبقت على صداقتهما ومودتهما .
 كان عباس الحلو — ولا يزال — شخصاً وديعاً ، دمث الأخلاق ، طيب
 القلب ، ميالاً بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح ، أقصى ما يطمح إليه
 من فنون اللعب السامى ، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب
 السكومي مع تفور من اللجاج والشجار ، ودراية في اتقائهما بالاقتسام
 الحلوة و « الله يسامحك يا عم » . وكان يحافظ على صلاته وصومه ، ولا تقوته
 صلاة الجمعة في سيدنا الحسين . أجل أهمل الآن بعض هذه الفرائض ،
 لا عن استهتار ، ولكن عن كسل ، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة
 وصوم رمضان . ولم يكن من النادر أن يتجرش به صاحبه حسين كرشه
 ولكنّه كان إذا شد صاحبه أرخى ، فلم تصله قبضته القاسية قط . وعرف
 إلى ذلك بالقناعة والرضا ، حتى أنه واصل عمله « صبيّاً » عشرة أعوام
 كاملة ، ولم يفتح دكانه الصغير إلا منذ خمسة أعوام ، ومنذ ذاك التاريخ
 وهو يحسب أنه نال أرفع ما يطمح إليه . وقد ملأت هذه الروح القنوعة
 الراضية نفسه ، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان ، وجسمه البدين ،
 وطابع المرح الذي لا يفارقه . أما حسين كرشه فكان من شطار الزقاق ،
 مشتهراً بالنشاط والخلق والجراءة ، بل هو معتد أثيم إذا دعا الداعي .
 وقد اشتغل بادی أمره في قهوة أبيه ، ولكنهما لم يتفقا ، فبجروها وعمل
 بدكان الدراجات ، ولبت بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة
 المعسكرات البريطانية ، وبلغت يوميته بها ثلاثين قرشاً — نظير ثلاثة
 قروش في عمله الأول — غير ما يسميه هو « أكل العيش يحب خفة اليد »
 فارتقت حاله ، وامتلاً جيبه ، ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود
 فتمتع بالثياب الجديدة ، وغشى المطاعم ، وأكثر من أكل اللحوم التي
 هي في حسبانه طعام المحظوظين ، وارتاد السينمات والملاهي ، وطاقر الخمر ،
 ورافق النساء ، وربما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث
 يقدم لهم الطعام والنبيد والحشيش . وفي نشوة من نشواته — كما يحكى

عنه — قال لبعض مدعويه « في بلاد الإنجليز يسمون من كان مثلي في مجبوحه العيش بالـ large » ولما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشه اللارج ، ثم حرفت فيما بعد إلى حسين كرشه الجراج ! « أمسك عباس الحلو بالما كينة وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط ، يصلح من أطرافها ، دون مساس بالشعر المفلعل الذي يكاد يقف من فظاظته وخشونته . ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلما التقى بذلك الصديق القديم . أجل مازالا صديقين ، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال ، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بقبوة أيسه كما كان يفعل في الأيام الخالية ، مما دنا إلى ندرة اجتماع الصديقين . ولم يخل الأصر من ماطقة حسد تخامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الطوة الواسعة التي تفصل بينهما . بيد أنه في حسده — كما هو في حياته — وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط في خطأ ، فلم ينل صاحبه بانفط سوء ، وكأنه يغبطه ولا يحسده . وربما قال لنفسه متعزياً « سوف تنتهي الحرب يوماً ، ويعود حسين إلى الزقاق بعدما كما خرج منه » .

وجعل حسين كرشه — بثمرته المبرورة — يحدث صاحبه عن حياة « الأورنس » والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات ! ، وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والإنجاب قال :

— قال لي الأونباشي جوليون مرة إلى لا أفترق عن الإنجليز إلا في اللون !... وكثيراً ما نصحتني بالاعتصام . ولكن الساعد (وهما حرك ساعده في زهو) الذي يربح النقود في أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافاً في زمان السلم . ومتى تظن الحرب تنتهي ؟ لا يفرك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم في الحرب ، وسوف يحارب هتلر عشرين طاماً ! . والأونباشي جوليان من المعجبين بشجاعتى ، ويشق في ثقة عمياء . وبفضل هذه الثقة يسرحنى في تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشوك

وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية ! . . دنيا !

فتمتم عباس الحلو متفكراً .

— دنيا ! .

فألقي حسين على صورته في المرآة نظرة متفحصة وقال :

— أتدرى أين أذهب الآن ؟ . . إلى حديقة الحيوان . أو تدرى مع

من . . مع بنت كالتشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة)
وسأنتطلق بها هناك إلى أقفاص القروء .

وقهقه عالياً ثم استدرك :

— أراهن على أنك تتساءل : لماذا القروء ؟ . وهذا طبيعي من

إنسان مثلك لم ير إلا قرد القرداتي . فاعلم يا حمار أن القروء في حديقة

الحيوان تعيش جماعات في أقفاص . وهي كبيرة الشبه بالإنسان في صورته

وسوء أدبه ، تراها تتغازل وتتخاب في علانية مكشوفة ، فإذا سقت الفتاة

إلى هنالك تفتحت لي الأبواب !

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله :

— دنيا ! . .

— النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك المرحل !

فضحك الحلو ونظر إلى شعره في المرآة ، وقال بصوت منكسر :

— أنا رجل مسكين !

فخرج صورته في المرآة بنظرة حادة وتساءل متهمكاً :

— وحميدة ؟ !

نفخ قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب ،

وتمثلت لعينيه صورتها ، فتورد وجهه ، ونغمغم وهو لا يدرى :

— حميدة . . . !

— أجل حميدة بنت أم حميدة !

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح في وجهه الارتباك ، وراح الآخر يقول بحدة :

— يالك من رجل خامل معدوم الحياة . عيناك ناعمتان ، دكانك ناعمة ، حياتك نوم وخبول . أعينى إيقاظك يا ميت . أنحسب أن هذه الحياة خلقة بتحقيق آمالك ؟ ! هيهات . ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمتك .. فلاح التفكير في العينين الهادئتين وقال متكدراً بعض الكدر :

— الخيرة فيما اختار الله ...

فقال الشاب ساخراً :

— عم كامل ، قهوة كرشة ، الجوزة ، السكوى ... !

فقال الحلو في حيرة :

— لماذا تمزأ بهذه الحياة ؟

— أهي حياة حقاً ؟ .. هذا الزقاق لا يحوى إلا موتاً . ومادمت فيه

فإن نحتاج يوماً للدفن ، عليك رحمة الله ..

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدرى ما الآخر قائله :

— وماذا تريدنى على أن أفعل ؟

فصاح به الفتى :

— طالما أخبرتك . طالما نصحتك . اخلع رداء هذه الحياة القذرة

الحقيرة . أغلق هذا الدكان . اهر هذا الزقاق . أرح عينيك من رؤية جملة

عم كامل . وعليك بالجيش الإنجليزي . الجيش الإنجليزي كثر لا يفنى . هو

كثر الحسن البصرى . ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجيلاء ، ولكنها

نعمة النعم ، لقد بعثنا ربنا لينتشلنا من وهدة الشتاء والعوز . على الرحب

والسعة ألف غارة وغارة مادامت تقذفنا بالذهب . ألم أنصحك بالالتحاق

بالجيش ؟ وما زلت أقول لك إن الفرصة سانحة . حقاً هزمت إيطاليا

ولكن ألمانيا باقية ، ووراءها اليابان ، وسوف تطول الحرب عشرين عاماً .

أقول لك للمرة الأخيرة إنه توجد أما كن شاخرة في التل الكبير . مساهم

واستيقظ خيال الحلو ، واضطربت عواطفه ، حتى وجد صعوبة في امتلاك عنانه وإتقان عمله . لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنه نتيجة لإحاحه المتواصل كلما قابله . كان بطبعه قنوطاً ، عزوفاً عن الحركة ، هيباً لكل جديد ، مبهضاً للأسفار ، ولو ترك شأنه ما اختار عن المدق بديلاً ، ولو لبث فيه مدى الحياة لما مله ولا فتر حبه له . ولكن طموحه صابغ سبات ، وكان كلما دبّت فيه الحياة ، امترج في نفسه بصورة حميدة ، أو لعل حميدة هي التي أيقظته ، وبعثته بعثاً جديداً ، فكان طموحه وصورته المحبوبة شيئاً واحداً لا يتجزأ . وعلى رغم هذا كله خاف أن يروح بذات نفسه ، وكأنما أراد أن يفسح لنفسه وقتاً للتدبر والتفكير ، فقال متظاهراً بالإحجام والإباء :

— السفر ابن كاب !

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به :

— أنت ابن ستين كاباً . السفر خير من زقاق المدق ، وخير من عم كامل . سافر وتوكل على الله . أنت لم تولد بعد . ماذا أكلت ؟ ماذا شربت ؟ ماذا لبست ؟ ماذا رأيت ؟ صدقتي أنك لم تولد بعد . . . فقال عباس متأسفاً :

— من المحزن أني لم أولد غنيا .

— من المحزن أنك لم تولد بنتاً ! لو ولدت بنتاً لكنت من بنات الدقة القديمة . حياتك في البيت والبيت ، لا سيما ولا حديقة الحيوان ، حتى ولا الموسيقى الذي ترتاده حميدة في العصارى . . .

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباك ، وآلمه أن ينطق به صاحبه مستهيناً ساخراً كأنه لفظ تافه لا يشير مكان القلوب ، وقال مدافعاً عن فتاته :

— أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق ، ولا يعيبها أن تروح نفسها بالشي في الموسيقى . .

— أجل واسكنها فتاة طموح ما في ذلك من شك ، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك . . .

وهاود قلبه الخفقان العنيف ، والتهب وجهه احمرارا ، وذابت نفسه وجداً وقلقاً وانفعالا . وكان انتهى من خلق رأس الشاب ، فراح يمشطها دون أن ينبس بكلمة ، وفكره لا يستريح من اضطرابه . ثم نهض حسين كرشة ، وأعطاه نقوده ، وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسي منديله فرجع مسرعا إلى البيت وجعل يتابعه بعينه من موقفه ، فلاح لعينه صرحا شيطا سعيذاً ، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة . « لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك » صدق حسين بلا ريب ، إنه يعيش عيشة الكفاف ، ولا يكاد يتمخض كدح يومه إلا عن رزق ذلك اليوم ، فإذا أراد أن يبني عشه في هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد . إلام يقنع بالأحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة ؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون ؟ ! « فتاة طموح » هكذا يقول حسين ، وإن كان هو لا يدري شيئاً على وجه التحقيق ، وربما كان حسين أدري بها ، لأنه — عباس — اعتاد أن يراها بعين الحب الحاملة الخالقة . وإذا كانت فتاته طموحا فلا معدى له عن أن يكون طموحا كذلك . ولعل حسين يحسب غداً — وقد ابتسم لهذا الخاطر — أنه أيقظه من سباته وخلقه خلقا جديدا ، ولكنه يعلم دون الناس جميعاً أنه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شيء أن يمتزعه من قناعته الوديعه الستسامة . وشعر عباس في هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره المجيب . ولعله أحس — إحساساً ضامضاً لا يرتقى لمرتبة الوعي والفكر — بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فوضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والابداع والتجديد . ولذلك خلق الله الإنسان محبا ، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة في رعاية الحب . وقد تسامل الفتى في وجدده وانفعاله لماذا لا يسافر ؟ ألم يعيش في هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان ؟ ! فماذا أفاده ؟ إنه زقاق لا يعدل بين أهله ،

ولا يميزهم على قدر حبهم له . وربما ابتسم لمن يتجهجه وتجههم لمن يبتسم له ،
فوق يقطر عليه الرزق تقطيراً ، ويغدقه على السيد سليم غدقا ، وعلى كشب
منه تشكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرفيا الساحر في حين أن
راحته لا تقبض إلا على ثمن الرغيف ، فليكن سفر ، وليتغيرن وجه الحياة .
جرى فسكره هذا الشوط البعيد ، ولبت واقفاً أمام دكانه ينظر إلى عم
كامل ، وقد مضى يغط غطيظاً والمذبة في حجره . ثم سمع وقع أقدام
خفيفة آتياً من أعلى الزقاق ، فتحول إليه ، فرأى حسين كرشة عائداً في
خطوات واسعة . واستمر به الاتفعال والقلق ، ونظر إليه كما ينظر المقامر
إلى كرة الروليت الدائرة ، حتى حاذاه ، وأوشك أن يفوته ، فوضع يده
على كتفه ، وقال له بقوة وعزم :
— حسين ، أريد أن أحدثك في أمر هام . . .

٥

المصر . . .

عاد الزقاق رويداً رويداً إلى عالم الظلال . والتفت حميدة في ملائمتها ،
ومضت تستمع إلى دقات شبشبها على السلم في طريقها إلى الخارج . وقطعت الزقاق
في عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أن أعيناً أربعا تتبعها متفحصمة ثاقبة ، عيني
السيد سليم علوان صاحب الوكالة ، وعيني عباس الحلو الحلاق . ولم تكن
تفاهة ثيابها لتغيب عنها ، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب
رق لعلاه ، بيد أنها تلف الملاءة لفة تشي بحسن قوامها الرشيق ، وتصور
عجيزتها الملهومة أحسن تصوير ، وتبرز ثديها السكاعين ، وتكشف عن
نصف ساقها المدملجتين ، ثم تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود
ووجهها البرنزي الفاتن القسمات . وكانت تعتمد ألا تلوي على شيء فتتجذر
من الصناديق إلى الغورية ثم إلى السكة الجديدة فالمواسكي . . . حتى إذا غابت
عن الأعين الثاقبة علت شفيتها ابتسامة ، وراحت تنهب الطريق الزاخر

العاصر بعينها الجميلتين . هي فتاة مقطوعة النسب ، معدمة اليد ، ولكنها لم تفقد قط روح الثقة والاطمئنان . ربما كان حسنها الملحوظ الفضل في بث هذه الروح القوية في طواياها ، ولكن حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده ، كانت بطبعها قوية ، لا يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها . وكانت عينها الجميلتان تنطقان أحيانا بهذا الشعور نطقاً يذهب بحماها في رأى البعض ويضاعفه في رأى البعض الآخر . فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف يتلطف على الغلبة والقيصر ، يتبدى في حرصها على فتنة الرجال ، كما يتبدى في محاولتها التحكم في أمها ، ويتعري في أسوأ مظاهره فيما يشترج بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك ، حتى أبفضنها جميعاً ، ورمينها بكل سوء . وربما كان من أغرب ما رميت به أنها تبغض الأطفال ، وأنها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة ! وهذا ما جعل امرأة المعلم كرشة القهوجى — أمها بالرضاعة — تتمنى على الله أن تراها أما ترضع الأطفال في كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصبحها بالضرب ! مضت في سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية ، مرددة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة . كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية ، فتثير في نفسها الطموح المتلذذ على القوة والسيطرة أحلاماً ساحرة . ولذلك تركزت عبادتها القوة في حب المال على اعتبار أنه الفتاح السحري للدنيا ، المسخر لجميع قواها المذخورة . فجلى ما كانت تعرفه عن نفسها أنها تحلم بالمال : المال الذى يأتى بالثياب وبكل ما تشتهيهِ الأنفس . وعسى أن تتساءل : أيمكن ياترى أن تبلغ يوماً ما تتمنى ؟ ! لم تكن الحقائق لتغيب عنها ، ومع ذلك فهي لا تنسى قصة فتاة من بنات الصناديق ، كانت فقيرة فى الأصل مثلها ، ثم أسعفها الحظ بزواج ثرى من القاولين فانتشلتها من وهنتها ، ونقلها من حال إلى حال ، فإذا يمنع القصة أن تتكرر ، والحظ أن يتسم مرتين فى هذا الحى ؟ ! ليست دون صاحبها جمالا ، والحظ الذى لعب دوره فى حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة ، بيد أن هذا الطموح

كان يضطرب في دنيا ضيقة تنتهي عند حدود ميدان المسكة فريدة ، لا يدري عما وراءها شيئاً ، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ ، ولا كم منهم يلقى خيراً وسعداً ، وكم منهم يتردد متلها حائراً لا يعلم لنفسه مرسى . فعلى كثر من هذه المنطقة رأت صويحباتها من طاملات الشغل قادمات ، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتمت أسارىها ، وسرعان ما سامعن وأخذن في تافه الأحاديث ، وهي تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين ناقدة ، ذاهبة نفسها حشرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه . أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة ، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة بالبأسية وظروف الحرب طامة عن تقاليدهن الموروثة ، واشتغلن بالحال العامة مقتديات باليهوديات . ذهبن إليهما مكدودات هزيلات فقيرات ، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير في ربح قصير من الزمن ، شعبن بعد جوع ، وكسبن بعد عري ، وامتلأن بعد هزال ، ومضين على أثر اليهوديات في العناية بالمظهر وتسكف الرشاقة ، ومنهن من يرطن بكلمات ، ولا يتورعن عن تأبط الأذرع والتخبط في الشوارع الفرامية . تعامن شيئاً واقتحمن الحياة ، أما هي فقد فوت عليها عمرها وجيلها ما يخرجن فيه من فرس . وهامى تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها ، فابطة حياتهن الرفقة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة . كانت تضاحكن في صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها ، ثم لا تتردد عن نهشهن — ولو على سبيل الدعابة الساخرة — لأقل هفوة ، فيذه فستانها قصير معدوم الحياء ، وهذه ذوقها سقيم ، وتلك عيناها تزوفان من التحديق في الرجال ، والرابعة كأنها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل ! كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردھا الدائم ، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها في يومها الطويل المفعم تبرماً وعراً كا . ولذلك قالت يوماً لأُمها وهي تنهد :

— حياة اليهوديات هي الحياة حقاً !

فانزعجت أمها وقالت :

— إنك من نبع أبالسة ودهى برىء منك . .

فقات الفتاة إمعاناً فى إخطائها :

— ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام ؟ !

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة :

— رحم الله أباك بأفع الدوم بمرجوش . .

سارت وسط صويحباتها تياهة بجملها : مدرعة بلسانها الطويل ، يلذها أن الأعين تمر بهن عر السكرام وتستقر عليها دونهن . ولما انتصف الموسيقى أو كاد ، لاحت منها الفتاة إلى الطريق فرأت عباس الحلو يسير متأخراً عنهن قليلاً ، وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة . وتساءلت عما دعاه إلى ترك مكانه فى هذه الساعة على غير عادة . هل تبعها عمداً ؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر ؟ . كان على فقره متأنقا كأ كثرية أهل فنه ، فلم يضايقها ظهوره . وقالت لنفسها إن أية واحدة من صاحباتها لا تطمع فى زوج خير منه ، وكانت تجدد نحوه شعوراً غريباً معقداً ، فهو من ناحية الشاب الوحيد فى الزقاق الذى يصلح لها زوجاً ، وهى من ناحية أخرى تحلم بزواج على مثال المقاول الغنى الذى حظيت به جارتها فى الصنادقية ، فىسى لا تحبه ولا تتمناه . وفى الوقت نفسه لا تقطعه ، ولعلها تسرها نظراته المشوقة ! . وكان من حادثها أن توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها إلى الزقاق ، فسارت بينهما وهى تسترق إليه النظر ، فلم تعد تشك فى أنه يتبعها حامداً ، وأنه ينوى أن يخرج عن صمته أخيراً . ولم تخطئ ، ظنوها فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبها حتى انكسر نحوه من الطوار ، فى خطوات مصطربة ، ووجهه ينطق بالانفعال ، وقاربها حتى حاذاها ، ثم قال بصوت متهدج :

— مساء الخير يا حميدة . .

فالتفت نحوه كالمنزعة وكأنها برغت بظهوره مباغتة ، ثم قطعت ،

وأوسست خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه ، ولكنه ناد يقول بصوت ينم عن العقاب :

— مساء الخير يا حميدة . .

وخافت إن هي لازمت الصمت مع هذا الخطر الخفيث أن ينتهي إلى الميدان المأهول قبل أن يقول ما يريد . وكانت راغبة في سماعه ، فقالت في لهجة تنطق بالاستياء :

— يا العار ! جار وتفعل كالغريب !

فقال عباس بلهفة :

— بل جار حقا ، ولا أفعل كالغريب ، أحرام على الجار أن يتكلم ؟ فقالت حابسة :

— نعم . الجار يحمي جارته ، لا أن يهاجمها . . .

فقال الشاب بصدق حار :

— أنا جار وأعلم واجبات الجار . ولم يخطر ببالى قط أن أهاجمك — لا سمح الله — بيد أنى أريد أن أحدثك ، ولا عيب أن يحدث الجار جارته . . .

— كيف تقول هذا ؟ ! أليس من العيب أن تتعرض لى فى الطريق ؟

وتعرضنى للفضيحة . .

فماله قولها . وقال بأسف :

— الفضيحة ؟ . . معاذ الله يا حميدة . صدري طاهر ، ولا يكن لك إلا الطير وحياة الحسين . وستعلمين أن كل شئ سينتهى بما أمر به الله لا بالفضيحة ، فأصنى إلى قليلا ، أريد أن أحدثك عن أمر هام . ميلى بنا إلى شارع الأزهر بعيداً عن أعين الناس الذين يعرفوننا . .

فقالت باستياء متصنع :

— بعيداً عن أعين الناس ؟ ! ماشاء الله ! . . دمت من جار طيب حقا !

وكان قد تشجع بمنازعتها إياه الحديث فقال بحرارة :

— ما ذنب الجار ؟ ... أيموت قبل أن يسبح بذات نفسه !

فقلت بسخرية :

— ما أطير كلامك ...

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول :

— طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة . ميلي بنا إلى شارع الأزهر . أريد أن أقول لك كلمة هامة . ينبغي أن تصنى إلى . أنت تعلمين ولا شك بما أريد قوله . ألا تعلمين ؟ ألا تشعرين ؟ قلب المؤمن دليله ...

فقلت كالغاضبة :

— لقد جاوزت حدك . كلا ... كلا ... دعنى ...

— حميدة ... أنا أريد أن ... أنا أريدك ...

— يا لعار . دعنى وإلا فضحتنى أمام الخلق .

وكانا قد بلغنا ميدان الحسين ، فرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر ، وحثت خطاها على عجل ، ثم انعطفت إلى الفورية وهى تبسم ابتسامة خفيفة . كانت تعلم ما يريد قوله كما قال ، ولم تنس أنه الفتى الوحيد الصالح لها فى الزقاق ، وقد قرأت فى عينيه البارزتين آى الحب كما قرأتها مراراً من نافذتها فى الماضى القريب . ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجامد الجحود ؟ أما حالته المالية التى تعلم عنها الشئ الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكناً ، وأما شخصه فوديع ، تم عيناه عن القناعة والخضوع ، مما يجمله خليقاً بأن يرتاح إليه فؤاده المغم بالسيطرة ، بيد أنها وجدت نحوه — رغم ذلك — تفوراً لم تدرك له سبباً . ماذا تريد إذا ؟ ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب ؟ ! لم تهتد للجواب بطبيعة الحال ، وقد عزت تفورها منه إلى فقره . والظاهر أن حبها السيطرة كان تابعاً لحبها العراقك لا المكس ، فلم تهش للمسالمة ، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال .

وكان قلبها ما يزال في غفوته ، لم يستيقظ بعد رفائيله ، فلأها شعورها المبهمة الغامض حيرة وقلتها .

ونكص عباس الملو عن ملاحقتها خيفة الأمين ، فتراجع دفعهم الفؤاد خيبة وحسرة ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس . قال لنفسه وهو يسير متميلاً خافلاً عما حوله إنها بادلته الكلام طويلاً ، ولو قصدت صده ونبذه ما منعها مانع ولا أعيتها الحيلة ، فهي لا تذكره ، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعاً ، ولعلها الحياء الذي جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار . فكان أبعد الناس عن اليأس ، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل ويتوثب للسكره التالية ، وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل . كان محباً صادقاً ملتزم العاطفة . وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كلي ، ولذة لا حسد لها . وحب لا يبدي . أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعاً بالنساء عامة ، ولكنه كان كالجمام يخلق في السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع في النهاية على برجيه ملبياً صغير صاحبه ، فهي دون النساء جميعاً أمله المنشود . أجل لم يعد مخاطرته غائبة ، وتفتحت له أكام الأحلام عن زهر الآمال ، فعاد منتشياً مسروراً فرحاً بحبه وبشبابه ، ولما عرج إلى الصنادقية صادف الشيخ درويش قادماً من ناحية الحسين ، فالتقيا عند مطلع الزقاق ، وأقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبركا ، ولكن الشيخ أشار نحوه بسبابته محذراً ، وخلق في وجهه بعينه الدابطين وراء نظارته الذهبية وقال :

— لا تمش بلا طربوش ! احذر أن تعري رأسك في مثل هذا الجو ، في مثل هذه الدنيا . فمخ الفقى يتبخر ويطير ، وهذا أمر معروف في المأساة ومعناها بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها y d e g a r t . . .

وكان المعلم كرشة قد شغل بأسرها ، ومن النادر أن ينصرف هام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر ، علي ما يسببه له من الكدر والتنقيص . بيد أنه كان رجلاً مسلوب الإرادة ، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعا . ومع ذلك كان ، علي خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف في حكم الفقراء ، لا لأن تجارتهم غير نافقة ، ولكن لأنه كان مبذراً — في غير بيته — يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جارياً وراء شهواته ، خصوصاً هذا الداء الويل . .

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبىء سنقر عن طبيته ، صرديا عبادته السوداء ، متوكفاً على عصاه العجرا ، ينقل على مهل خطواته الثقيلة ! ولا تسكاد تدل عيناه المظلمتان المختلفتان تقريباً وراء جفنيه الغليظين علي أنه يحسن رؤية طريقته . وكان قلبه يخفق ! والقلب يخفق ، ولو شارف صاحبه الخمسين . ومن عجب أن المعلم كرشة قد عاش عمره في أحضان الحياة الشاذة ، حتى خال لطول تمرغه في ترابها أنها الحياة الطبيعية . هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جناح الظلام ، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ ، واستسلامه لشهواته لا حمله ولا ندم عليه ، ولا توبة تنتظر عنه . بل إنه ليظلم الحكومة في تعقبها لأمثاله ، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثاراً للازدراء والاحتقار ، فيقول عن الحكومة « إنها تحلل الخمر التي حرمها الله ، وتحرم الحشيش الذي أباحه ! وترعى الحانات الناشرة للسموم ، في حين تسكبس « الفرز » وهي طب النفوس والعقول » . وربما هز رأسه أسفاً وقال « ماله الحشيش ! » « راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدبر للنسل ! » وأما عن شهوته الأخرى فيقول بفتحته المعبودة « لكم دينكم ولي دين ! » ولكن إيلافه

شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كل مطلع هوى جديد ، وقد سار متميلاً في الفورية ومستسلماً لخواطره ، يتساءل والأمل ملء فؤاده « ماذا ياترى وراءك أيها النساء ؟ » وعلى رغم انهماكه في خواطره كان يحس بالذكاكين على الصفيين إحساساً غامضاً ، ويرد بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه . وكان يسمى القن بهذه التحيات وأمثالها ، ولا يدرى إن كانت لحض السلام أم أن وراءها ما وراءها من النمز واللمز . فالناس لا يريحون ولا يستريحون ، ويتلقفون المثالب بأفواه نهمه جشعة . ولطالما قالوا فيه وأعادوا ، فإذا أفادهم التشهير ؟ لا شيء ! وكأنه ولع بتجديدهم فراح يحجر بما كان يسره . وهكذا مضى في سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلي الأزهر ، فاشتد خفقان قلبه وتناسى تحيات الناس التي أثارته سوء ظنه ، وانبعث من عينيه المنطقتين نور خافت شرير . وراح يدنو منها بفيه الفاجر وشفته المتدلّية ، وجاز عتبتها . دكان صغيرة ، يجلس في صدرها شيخ عجوز وراء مكتب صغير ، ويستند إلى أحد رفوفها المكسدة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع ، ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره ، وتلقاه بابتسامة البائع اللبق . وارتفع الجفنان الثقيلتان لأول مرة ، واستقرت المينان على الشاب ، ثم حيا برقة . ورد الشاب التحية في لطف . وقد أدرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة في ثلاثة أيام متتابعات . وقد تساءل : لماذا لا يبتاع ما يريد مرة واحدة ؟ !

وقال المعلم :

— أرني ما عندك من جوارب . .

فأحضر الشاب أنواعاً منها ، وبسطها على « طاولة » المحل ، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشاب والشاب لا يخفى أمره عليه وقد دارى ابتسامة كادت ترسم على ثغره . وتعمد أن يطيل التفحص والتقصي ، ثم قال للشاب بصوت منخفض :

— لا تؤاخذنى يا بنى فبصرى ضيف ، هل اخترت لى لونا مناسباً
بذوقك الجميل . . .

وسكنت الحظاظ يتفرس فى وجهه ثم أردف وهو يرسم ابتسامة على
شفته المتدلّية :

— كوجهك الجميل . .

فأراه الشاب الجميل نوعاً متجاهلاً لإطراءه ، فاستدرك الرجل قائلاً :

— لف لى ستة . .

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب ، ثم قال :

— الأفضل أن تلف لى اثنى عشر . . . أنا رجل لا ينقصنى المال
والحمد لله !!

ولف الشاب له ما أراد صامتاً ، ثم غمغم وهو يناوله الليفة .

— مبارك . . .

فابتسم المعلم كرشة ، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آلية قصيرة
يرافقها اضطراب خفيف فى جنفيه وقال بحميت :

— شكراً لك يا بنى (ثم بصوت منخفض) الحمد لله !

وفادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلاً كما دخلها . واتجه نحو شارع
الأزهر ، ثم عبره مهرولاً إلى الناحية الأخرى ، ووقف لصق شجرة فى
مقابل الدكان مستظلاً بالظلمة الآخذة فى الانتشار . وقف يداً متوكئة على
العصا ويذا قابضة على الليفة ، وعيناه لا تتحولان عن الدكان من بعيد .
كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد شيك ذراعيه على صدره . فجعل
ينظر نحوه ، لا يكاد يرى منه إلا صورة فامضة المعالم ، ولكن ذاكرته
وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر السكليل . وراح يقول لنفسه
« أدرك المراد بلا ريب ! » ثم ذكر كيف كان رقيقاً لطيفاً مؤدباً ، ورجعت
أذناه صوته وهو يغمغم « مبارك » فألتج صدره وتهد من الأعماق ،
ولبت فى مكانه سويحة مضطرباً بالقلق والتوتر ، حتى رأى الدكان تغلق

أبوابها ، وقد افترق عندها الشيخ العجوز الذي اتجه صوب الصاغة ،
والشاب الذي سار نحو شارع الأزهر . وابتعد المعلم عن الشجرة وريداً ،
وسار في الاتجاه الذي يتسمته الشاب ، فرآه هذا بعد أن عبر ثلثي الطريق
ولكنه لم يبد اهتماماً ، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه
المعلم وقال برقة :

— مساء الخير يا بني .

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتقم :

— مساء الخير ياسيدي .

فسأله لمحض الرغبة في مجاذبته الحديث :

— أغلقت الدكان ؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتناقل كأنما يدعو به إلى التريت ولكنه ثابر

على مشيته وهو يقول :

— أجل ياسيدي . .

فاضطر الرجل إلى مسايرته ، فسارا معاً على الطوار ، والمعلم لا يحول

عنه رأسه ، ثم قال :

— ساعات عمرك طويلة ، كان الله في عونك . .

فنفخ الشاب قاثلاً :

— ما الحيلة ؟ أكل العيش يحب التعب . . !

فسر المعلم بإقبال الفتى على محادثته ، واستبشر خيراً برقته ، وقال :

— رزقك الله بتعبك يا بني . .

— أشكر لك ياسيدي . .

فقال الرجل بحماس :

— تعب كلها الحياة حقاً ، ولكن من النادر جداً أن ينال التعب الجزاء

الذي يستحقه ، فما أكثر العاملين المظلومين في هذه الدنيا . .

فشد هذا الكلام على وتر حساس في قلب الفتى وقال بتبرم

— صدقت يا سيدى ما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا . .
— الصبر مفتاح الفرج . أجل ما أكثر المظلومين ، ومعنى هذا بالحرف
الواحد ما أكثر الظالمين ، ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من
رحماء كذلك . . .

فتساءل الفقى :

— أين هؤلاء الرحماء ؟

وكاد يجيبه « ها أنذا واحدا منهم » ولكنّه أمسك عن ذلك ، وقال
بليجة المعاتب :

— لا تكن متشائما يا بنى فأمة محمد بخير ، (ثم غير طعنته قائلا) علام
تسرع ؟ أمستعجل رأيت ؟ !

— ينبغي أن اذهب إلى البيت لأغير ملابسى . .
فسأله باهتمام :

— وبعد ذلك ؟

— أطلق للقهوة .

— أية قهوة ؟

— قهوة رمضان .

فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لامعت أسنانه الذهبية فى الظلمة وتساءل
فى إغراء :

— لماذا لا تشرف قهوتنا ؟

— أية قهوة يا سيدى . . ؟

فاحتشوشن صوت المعلم وهو يقول :

— قهوة كرشة بالمدق . محسوبك المعلم كرشة !

فقال الفقى بامتنان :

— تشرفنا يا معلم ، هذه قهوة ذائعة الصيت . .

فسر المعلم ، وسأله بليجة تشى بالرجاء :

— أتأتى ؟

— إن شاء الله . .

فقال المعلم كمن فقد صبره :

— كل شيء بمشيئة الله . ولكن أتموى الحضور حقا أم تقو

ذلك تملصاً مني ؟

فضحك الشاب فحكة رقيقة وقال :

— بل أنوى الحضور حقا . .

— الليلة إذا !

ولما لم ينبس الفتى بكلمة ، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طرباً :

— لا بد . .

ففهم الشاب :

— بأذن الله . . !

فتهد الرجل بصوت مسموع ثم سأله :

— أين تقيم ؟

— عطفة الوكالة . .

— نحن جيران تقريباً . متزوج ؟

— كلا . . مع أهلى . .

فقال برقة :

— أنت ابن ناس طيبين كما يبدو لى . الإناء الطيب ينضح ماء طيباً

وينبغى أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام ، إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر

حاملاً بسيطاً فى دكان . .

فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل وتساءل الشاب فى خبث :

— وهل لمثلنى أن يطمع فى أكثر من هذا ؟ !

فقال المعلم كرشة باستهانة :

— هل ضاقت « بنا » الحيل ! ألم يكن جميع السكبار صغاراً !

... بلى كانوا ، ولكن ليس من المحتمل أن ينقلب الصغير كبيراً .
فأردف المعلم يتم كلام الفقى :
— إلا إذا صادفه التوفيق ! فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا فيه على
انه يوم توفيق عظيم . أنتظرك الليلة ؟ !
فتردد الفقى قليلا ، ثم قال مبتسما :
— لا يأتى الكرامة إلا للثيم . . . !

وتصافحا عند بوابة المتولى ، ثم رجع المعلم يخطب فى الظلماء . صحا الرجل
الذاهل ، وسرى فى صدره دفء السرور . ولم يكن يستيقظ من دنيا
النسيان التى يلفظ فيها إلا إذا لطمته موجة حنيقة من شهواته الخطيئة . ودر
فى طريقه بالمكان الملقى فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق . وعاد إلى
الزقاق وقد أغلقت دكا كينه ، وكادت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من
القهوة . وكان جو القهوة -- على خلاف الجو البارد فى الخارج -- دافئاً
يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج « النصبة » ، وقد تربع
الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويحتسون الشاي والقهوة ، والراديو يذيع
ما فى جوفه فلا يلقى إلا الإغراض والإهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صمماً ،
ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح . مضى المعلم إلى مجلسه
وراء صندوق الماركات فى هدوء بالغ متحامياً الأنظار . واتفق عند حضوره
أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن يفتعوا عباس الحلو بالنزول له عن السكن
المحتفظ له به ، ولسكنهم أبوا عليه ذلك وأنكروا غرضه وقال له
الدكتور البوشى :

— لا تفرط فى كسوة الآخرة . إن الانسان ليعيش كثيراً فى دنياه طارياً ،
أما عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها طارياً مهما كان فقره . . .

وتسكروا الرجاء من ناحية الرجل الساذج فأصطدم كل مرة بالرفض
والسخرية ، حتى كف الرجل يائساً . وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان
ما اعترم من العمل فى الجيش البريطانى ، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم ،

وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه ، وتمنوا له النجاح والثراء .
وكان السيد رضوان الحسيني منهمكاً في حديث طويل من أحاديثه المليئة
بالوعظ والإرشاد ، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول :

— ... فلا تقل مللت ! الملل كفر . الملل مرض يستور الإيمان . وهل
معناه إلا الضيق بالحياة ؟ ! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى ،
فكيف لمؤمن أن يملأها أو يضيق بها ! ستقول ضقت بكيت وكيت ،
فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هذه ؟ أليس من الله ذى الجلال ؟
فعالج الأمور بالحسنى ، ولا تتمرد على صنع الخالق . لكل حالة من حالات
الحياة جهالها وطعمها ، بيد أن مرارة النفس الأمارة بالسوء تفسد الطعموم
الشهية . صدقني أن للألم غبطته وليأس لذته وللموت عظته ، فكل شيء
جميل وكل شيء لذيذ ! كيف نضجر وللسماء هذه الزرقة ، وللأرض هذه
الخضرة ، وللورد هذا الشذا ، وللقلب هذه القدرة العجيبة على الحب ،
وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان . كيف نضجر وفي الدنيا من
نحبهم ، ومن نعجب بهم ، ومن يحبوننا ، ومن يعجبون بنا . استعذ بالله
من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت ..

وحسب حسوة من قدح القرفة ، ثم أردف وكأنه يعبر عن خلجات ضميره :
— أما المصائب فلنصمد لها بالحب ، وسنقبرها به . الحب أشفي علاج .
وفي مطاوى المصائب تكمن السعادة كفصوص الماس في بطون المناجم
الصخرية ، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب .

كان وجهه الأبيض الوردي يفيض بشراً ونوراً ، تحيط به لحية الصهباء
إحاطة الهالة بالقمر . وكان كل شيء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته
الراسخة قلناً مضطرباً . وكان نور عينيه صافياً نقياً ينطق بالإيمان والخير
والحب والترفع عن الأغراض . ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق
في دراسته الأزهرية ، وإنه آيس من خلود الدنيا حين شكل الأبناء ،
ففرغت نفسه إلى تعويض خسراتها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب

والجود ! ولكن كم من المصابين مثله من سلك سبيله ، وكم منهم من سقط
فريسة الجنون ، وكم منهم من صعب جام غضبه على الدنيا والدين ؟ ! ومهما
يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك في إخلاصه ، كان مؤمناً صادقاً ،
ومحباً صادقاً ، وجواداً صادقاً ، ومن عجب أن يكون هذا الرجل — الذي
طار صيته في الخير والحب والجود كل مطار — حازماً حاسماً وعلى فظاظة
وحرص في بيته ! ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيقى في هذه
الدنيا يفرض سطرته على المخلوق الوحيد الذى يذعن لإرادته ، ألا وهو
زوجه ! وإنه يشيع شهرته الجائفة للنفوذ والسلطان باصططاع الحزم والمهابة
معها . ولكن ينبغى ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والسكان ،
وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما تراه أكثرية أهل طبقتها من
وجوب معاملة المرأة كالطفل لتحقيقا لسعادتها هى نفسها قبل كل شيء . على
أن زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه ، ولولا الجروح التى تركها
الأبناء تذكيراً خالداً فى قلبها ، لعدت نفسها امرأة سعيدة ، نغورها
بزوجها وحياتها .

أما المعلم كرشة فكان حاضراً غائبا . لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة .
وطانى مرارة الانتظار فى صمت كئيب . وكلا مرت دقائق لوى عنقه
واشرأب به نحو مطلع الزقاق ، ثم يعود إلى صندوق الاركات متصبراً
متجهداً قائلاً لنفسه : « سيأتى حتما . سيأتى كما أتى إخوان له من قبل . . » .
وتمثل له وجهه ، ثم نظر إلى الكرسي القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش
فراه بعين الخيال يطمئن إليه . لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد من
أمثال هذا الشاب إلى قهوته تستراً وحياء ، ثم افتضح أمره ، وذاعت
فضيخته ، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهاراً . وكان يقع بينه وبين زوجه
من المأسى ما يبقى حديثاً فاضحاً تتناقله الألسن ، ويتلقنه بشغف أمثال
الدكتور بوشى وأم حميدة ، ولسكنه لم يعبأ شيئاً ، وما تكاد النار تخمد
إلى حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرمها ضراماً ، وكأنه وجد

أخيراً في الجبر لذة فلنرجع بها ! وهكنا جلس قلقاً لا تعرف السكينة سبيلاً
إلى نفسه الملوثة ، كأنه يجلس على مشواة ، يكاد ينبري عنقه من كثرة ليه ،
حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال لاجلو في خبت :
— هذه علامات الساعة !

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة وأنشد يقول :
حننت إلى ريا وتفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجزع أن داعي الصباية أسعما
آه يا ست . الحب يساوي الملايين . أتفقت في حبك يا ست مائة ألف
جنينه ، وإنه لقدر زهيد ...

وأخيراً رأى الدكتور بوشى المعلم كرشة يحدق باهتمام شديد في مطلع
الزقاق ، وراه يستوى جالساً وقد ابتسمت أساريره ، فنظر إلى مدخل
القهوة مترقباً ، وما لبث أن طالعه وجه الشاب ، وقد ألقى على السمار نظرة
التردد من عينيه الساجيتين ...

V

تقع الفرن فيما يلي قهوة كرشة ، لصق بيت الست سنية عفيفي . بناء مربع
على وجه التقريب ، غير منتظم الأضلاع ، تحتل الفرن جانبه الأيسر ، وتشغل
الرفوف جدرانها : وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبها
الدار : المعانة حسنية وزوجها جمدة . وتسكاد الظلمة تطبق على السكان ليلاً
نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن . وفي الجدار المواجه للمدخل
يرى باب خشبي قصير ، يفتح على خرابة ، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة
إذ ليس بها إلا كوة في الجدار المواجه للمدخل تطل على فناء بيت قديم .
وعلى بعد ذراع من الكوة ، وعلى رف ممتد ، مصباح يشتعل ، يلقي على

المسكن ضوءاً خفيفاً : يفضح أرضه المتربة المقطاة بأنواع لا يحصىها العدد من القاذورات المتنوعة ، كأنها مزبلة . أما الرف الذي يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة ، كأنه رف صيدلى لولا قذارته النادرة . وعلى الأرض — تحت السكوة مباشرة — كان يوجد شيء مكموم لا يفترق عن أرض المسكن قذارة ولونا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق — على رغم كل شيء — فى لقب إنسانى ؟ ذلك هو زيتة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة . وحسبه أن يرى صرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبداً ، لبساطته المتناهية ، فهو جسد نحيل أسود ، وجلباب أسود ، سواد فوقه سواد لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان . ولم يكن زيتة — على ذلك — زنجياً ، بل إنه مصرى أسمر اللون فى الأصل . والسكن القذارة اللبدة بعرق العمر كوفت على جنته طبقة سوداء . كذلك جلبابه لم يكن فى البدء أسود ، والسكن السواد مصير كل شيء فى هذه الخرابة . وهو لا يكاد يمت بسبب اللزاق الذى يعيش فيه ، فلا يزور ولا يزار ، لا تقع فيه لأحد ولا تقع فى أحد له ، اللهم إلا الدكتور بوشى ، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم . أما صناعته فمروفة لدى الجميع . وهى صناعة تخول له لقب دكتور وإن لم يتخذها إكراماً لبوشى . كان يصنع العاهات ، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة ، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد . يقصده الراغبون فى احترام الشحاذة ، فبفنه العجيب — الذى يشهد أدواته على الرف — يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات . يميثونه صحاحاً وينادونه صمياناً وكسحاناً وأحداً با وقعساناً ومبتورى الأذرع أو الأرجل . وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته ، وعلى رأسها جميعاً اشتغاله عبداً طويلاً فى سرك متجول ، ولا اتصاله بأوساط الشحاذين — اتصالاً يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين شحاذين — فسكر فى تطبيق فن

« المسكياح » الذى تلقنه فى السرك على بعض الشحاذين ، فى بادىء الآ على سبيل الهواية ، ثم على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش ومن مشاق عمله أنه يبدأ فى الليل ، أو عند منتصف الليل على الأصح ولسكنها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة ، أما فى أثناء النهار فلا يكا يفارق الخرابة بحال . يجلس القرفصاء ، يأكل أو يدخن . أو يتسلو بالتجسس على الفران والفرانة ، ولسكن كان يلذه أن يسترق السمع لما يدور بينهم من حديث ، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيار المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء ، حتى إذا أتى الليل رآها وقد شتاها الصفاء وأقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتبسطه السمر . وكان زليطة بعقت جمعة ويحتقره ، ويستقبح وجهه ! وفضلاً عن ذلك كله كان يحسده على ما حبا . الله به من زوج « كاملة الجسم » أو على حد تعبيره « امرأة بقرى ! » وكان كثيراً ما يقول عنها إنها فى دنيا النساء تقابل عم كامل فى دنيا الرجال ! وكان من أهم الأسباب التى دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته النتنة . فلم يكن الماء يعرف سبيلاً إلى وجهه أو جسده . وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام ! وبادل الناس مقتاً بعقت عن طيب خاطر ، فكان يرقص طرب إذا قرع مسمعه صوات على ميت ويقول وكأنه يخاطب الميت « جاء دورك لتذوق التراب الذى يؤذيك لونه ورائحته على جسدك ! » . وربما قطع وقت فراغه الطويل فى تخيل صنوف التعذيب التى يتمناها للناس واجداً فى ذلك لذة لاتعادلها لذة ، يتصور جمعة الفران هدفا لعشرات القووس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلها ثقوب . . . أو يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويحشى ودمه يجرى نحو الصناديق . . . أو يتمثل له السيد رضوان الحسينى تجره الأيدي من طيته الصهباء نحو الفرن المتهبة ثم يستخرجونه منها زكية من الفحم . . . أو يرى المعلم كرشه مطروحا تحت عجالات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه فى مقطف قذر يبيعونه لهواة الكلاب . . . وغير هذا كثير ، مما يراه

دون ما يستحق الناس . وكان إذا باشر عمله ، وأخذ في صنع العاهة لطالها اشتد عليه في قسوة مقصودة مستغنياً وراء سر المهنة ، حتى إذا ندت التأوهات عن فريسته أمت عيناه الخيفتان بنور جنوني . ومع ذلك كان الشحاذون أحب البشر إلى نفسه ، وتعنى كثيراً لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض .

هكذا جلس زليطة غارقاً في أحيائه ، يترقب وقت العمل . وعندما انتصف الليل أو كاد ، نهض قائماً ، ونمخ المصباح فانطفاً وساد ظلام ثقيل . ثم تلمس طريقه إلى الباب ، وفتحه في هدوء بالغ ، ثم اخترق القرن إلى الزقاق . والتقى في سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة ، وكثيراً ما يلتقيان في منتصف الليالي دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولذلك كان للشيخ حظ موفور في حكمة التفتيش التي ينصبها زليطة في خياله للبشر . وانعطف صانع العاهات إلى سيدنا الحسين في خطوات قصيرة وثيدة . وكان يقترب في سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكه — كانت بعض قيود الإضاءة ما تزال موجودة — فلا يراه القبل نحوه في الطريق حتى يصطدم بعينه البراقطين يلمعان في الظلام لمعان القطعة المعدنية في حزام الشرطي . وفي الطريق ، يداخله شعور بالانتماش والزهو والسرور ، فهو لا يشقه إلا حين يكاد ينقطع إلا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة . وشق ميدان الحسين منعطفاً صوب الباب الأخضر : فبلغ القبو القديم وجعل يردد عينيه الخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه ، فلاء الارتياح ارتياح السيد إلى قوته ، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة . ودنا من أقرب الشحاذين إليه ، وكان جالساً القرفصاء ، معتمداً رأسه على ركبتيه ويفط غطيظاً ، فوقف حياه لحظة متفهماً كأنما ليسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم ، ثم ركله في رأسه الأشعث ، فانقبه الرجل من نومه — غير مذعور — كأنما أيقظته أنامل ناعمة ، ورفع رأسه متثاقلاً

وهو يحك جنبه ونظيره ورأسه بأظافره ، فوقع بصره على الشيخ الشرف عاينه ، وخلق فيه لحظة ، فمرقه — على عماء — لأول رهلة . وتهد الرجل فملك عن صدره صوت كالخوذة ، ثم دس يده في صدره ، واستخرج مليا غمز به كف الرجل . وانتقل زبطة إلى من يليه ، ثم إلى من يليها ، حتى إذا فرغ من جناح القبو جميعاً اتجه نحو الجناح الآخر ، ثم مضى إلى الأربعة والحواري المحيطة بالجامع الكبير ، لا يفات منه شعاع واحد . ولم يكن إكبابه على تمصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العامة التي صنعها ، وربما سأل هذا أو ذاك « كيف عمالك يا فلان ؟ » أو « كيف كمالحك يا فلان ؟ » فيجيبونه « الحمد لله .. الحمد لله » . ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع في طريقه وغنياً وحلاوة طحينية وتبناً ، ورجع إلى الزقاق . كان الصمت شاملاً يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعال ، ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسيني حيث تجتمع غرزه العلم كرشة . وجاء الرجل عتبة القرن في هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين ، ودفع بابه الخشبي في حذر ورده في سكون . لم تسكن الزبلة مظامة كما ظارها ، ولم تكن خالية . كان الصباح مشتملاً ، وعلى الأرض تخته يجلس رجال ثلاثة . ودلف الرجل منهم في هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزججه ، وعانينهم بعينه اليراقدين فمرق منهم الدكتور بوشي . ووقفوا له جميعاً ، وقال له الدكتور بوشي بعد أن حياه تحية طيبة :

— هالك رجلين مسكينين يستشفعان بي إليك ..

فتظاهر زبطة بعدم المبالاة ، وقال متظاهراً بالملل :

— في مثل هذه الساعة يا دكتور ؟ !

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له :

— الليل ستار وربنا أصر بالستر !

فقال زبطة وهو ينفخ :

— ولسكني متعب الآن .. !

فقال البوثنى برجاء :

— لا رددت لي يداً . .

وراح الرجلان يضربان ويدعوان له ، فتظاهر بإذعان مرغمًا ، ووضع
العلمام والتبغ على الرف . ووقف حياطها متفرسًا في أناة وهندوء . ثم
ثبتت عيناه على أطولها . كان عملاقا قويا فدهش زليطة لمنظره وسأله :

— أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان ، فلماذا تروم احتراف الشحاذاة ؟ !

فقال الرجل بصوت منكسر :

— لم أفلح في عمل أبداً . حاولت أعمالا كثيرة ، حتى الشحاذاة نفسها ،

ولسكن لم يقدر لي التوفيق ، حظي أسود ، وعقلي وسخ ، لا أفهم شيئا
ولا أتقن شيئا . .

فقال زليطة بحقد :

— كان ينبغي إذا أن تولد غنياً . .

ولم يظن الرجل لمرماه ، وراح يستمطفه بتصنع البكاء ، قائلا

بصوت كالخوار :

— أخفقت في كل شيء ، حتى الشحاذاة لم تجذب لي رجيا واحدا .

كل الناس يقولون أنت قوى ويجب أن تشتغل ، هذا إذا لم يشتموني
وينهروني ، لا أدري لماذا !

فقال زليطة وهو يدهك رأسه :

— يا سلام . . حتى هذا لا تدركه .

— الله يخليك ويحبر خاطرك . .

وكان زليطة لا يكف عن خصه وتفكرا ، فقال بحزم وهو ينعن أعضائه :

— أنت قوى حقا ، أعضاؤك سليمة . إني أعجب ماذا تأكل ؟

— أظن إذا وجد ولا شيء غيره .

— هذا جسم شيطاني بلا ريب . ترى ماذا كنت تسكون لو أكلت كما

تأكل حيوانات الله التي يؤثرها بخيره ونعمته ؟ !

فقال الرجل ببساطة :

— لا أدري ..

— طبعاً طبعاً .. أنت لا تدري شيئاً ، فربما هذا ، وخير ما فعلت ،
فلو كنت تدري لا فقلت واحداً منا . اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من
تشويه أعضائك ..

ولاح الأقباض في الوجه الثور : وأوشك أن يتباكى كرة أخرى
لولا أن بادره زبطة قائلاً :

— عسير جداً أن أكسر لك رجلاً أو ذراعاً ، ومهما صنعت بك فإن
تستثير عطف أحد . إن البغال أمثالك يثيرون الحنق أينما يملون . ولكن
لا تيأس (كان الدكتور يوشى ينتظر هذه العبارة بصبر نافذ) فبالطريق
شئ : أعلمك فن العتة مثلاً : وأنت لا ينقصك منه شيء ذو بال ، أجل
العتة : وأحفظك بعضاً من مداخل الرسول ...

فقال وجه الرجل ودماً له كثيراً ، حتى قاطعه زبطة متسائلاً :

— لماذا لم تشتغل قطاع طرق ؟

فقال الرجل بانكسار :

— أنا رجل طيب مسكين ، لا أقصد إنساناً بسوء ، وأحب آل البيت .

فقال زبطة باحتقار :

— أتبدو أنى أنا بهذه البولييتيكا ... ؟

ثم التفت إلى الرجل الآخر ، كان قصيراً هزياً ، فقال زبطة بارتياح :

— استعداد طيب ..

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتناً شاكراً :

— الحمد لله كثيراً ...

— خلقت لتكون أعظمي مقمداً .

فقال الرجل بسرور :

— هذا من فضل ربى ..

فهو زينة رأسه وقال ببطء :

— العملية دقيقة وخطيرة . دعني أسألك عن أسوأ الاحتمالات ، هبك
ندت بصرك حقيقة عن خطأ أو إهمال فإذا تفعل ؟

فتردد الرجل لحظة ، ثم قال بغير مبالاة :

— نعمة من الله ! وهل أفدت من بصرى شيئاً حتى آسف على ضياعه ؟

فقال زينة بارتياح :

— بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقاً . .

— يا ذن الله ياسيدي . ستكون روحك ملك يدك . سأنزل لك عن

صفت ما يجود به المحسنون . .

فخدجه زينة بنظرة قاسية وقال بحدة :

— هذا كلام لا يجوز علي . حسبي ملبعين غير أجر العملية ، وإن

عرف كيف أستخلص حتى إذا سولت لك نفسك المظالة . .

وهنا قال البوشي بحذراً :

— لم تذكر نصيبك من الخبر .

فاستدرك زينة قائلاً :

— طبعاً . . طبعاً . . والآن فلنشرع في العمل ، العمالة شاقة . ولنسوف

ننتج من قرة احتمالك ، فاكتم الألم ما استغفمت إلى ذلك سبيلاً . .

وتصور ما سوف يتأبده هذا الجسم النحيل الهزيل من هرس يديه

القاسيتين : فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتسامة شيطانية . .

٨

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع في الزقاق طوال النهار . عمال كثيرون لا يكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطرد في تتابع متواصل ، وعدد من سيارات العمل الضخمة يجمع أزيزها فيطبّق على الصناديق وما يتناقلها من الغوري والأزهر ، وتيار زاهر من الزبائن والعملاء . هي وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس من شك في أن انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث في سوقها أثراً ملحوظاً ، ولكن الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها . وفضلاً عن هذا وذلك فقد أغرت ظروف الحرب السيد سليم بالاتجار بمواد لم يكن يلقي إليها بالاً كالشاي . فغامر في السوق السوداء ، ورجح أرباحاً طائلة . وكان السيد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم في نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخلي التي تمهد به المخازن . وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، ويسر له مراقبة العمال والجمالين والزبائن جميعاً . لذلك كله فضل هذا المركز على الأفراد في حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر الحق — على حد تعبيره — « ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائماً » . وكان الرجل في الواقع من النماذج العملية الموفقة ، خبيراً في مهنته ، قادراً على النهوض بأعبائها . ولم يكن من حديثي النعمة الذين أنحبتهم الحرب ، لأنه على حد تعبيره أيضاً « تاجر ابن تاجر » ، بيد أنه لم يكن في البدء معدوداً من الأغنياء ، ثم خاضت تجارتها نهار الحرب الأولى وخرجت ظافرة ، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتى أُنحمتها بالثراء . على أن الرجل لم يخل من الهموم ، وبحسبه أن يناضل في الميدان وحده بلا معين ولا نصير . أجل كان ما يتمتع

به من صحة جياة وحيوية فأئذنه خليقاً بأن يهون عليه شومه ، ولكن لم يكن بد من التفكير في الغد ، القريب أو البعيد ، إذا انصرم العمر أو كاد ، وافقدت الوكالة من يديرها . فمن المؤسف حقاً أن أحداً من أبناء الثلاثة لم يقع له في خاطر أن يتقدم لمعاونة أبيه في عمله ، وكانوا جميعاً سواء في الإعراض عن التجارة ، وضاعت محاولاته في ثنيهم عن إعراضهم كلياً سدى ، فلم يجد مناصاً — على بلوغه الخمسين — من النحوض بالأمر كله . وليس من شك في أنه كان المسؤول عن هذا الختام الرهق ، فقد كان — على رغم عقليته التجارية — جواداً كريماً ، أو كان كذلك على الأقل في بيته وبين أهله ، فكان بيته كالتصور جمال بناء وتقاسة أثاث وكثرة خدم وحشم . وفضلاً عن ذلك فقد انتقل عتب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف بالحامية ، فترمع الأبناء في وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار وأوساطهم ، وسط يضمربلاً ريب نوطاً من الاحتقار للمهن الحرة جميعاً ، فتملقوا بتثمل عليها جديدة بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته . وحين جد الجد قردوا على نصحه وأبوا حتى الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون نغالهم ، وشقروا سبلهم إلى الحقوق والطلب ، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني . ومع ذلك كانت الحياة سعيدة وقد بدت آثارها الطيبة في جسمه البدين اللين ، ووجهه الممتلئ ، الورد ، وحيويته الشابة المتوثبة ، سعادة منشؤها أن كل شيء في موضعه المأمول ، تجارة رابحة ، صحة جيدة ، أسرة سعيدة ، أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمان إليها . وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع ، تزوجن جميعاً وبارك الله في زيجاتهن . فبدا كل شيء باسمياً منبسطاً لولا ما ينتاب به بين الحين والحين من التفكير في مصير الوكالة والتجارة . وبكروا الأيام تنبه الأبناء إلى متاعب الأب ، ولسكنهم قدروها من ناحية أخرى ، فساوهم خوف أن يفلت الزمام يوماً من يد والدهم ، أو أن يتركها لهم بفتة فلا يدرون ماذا يصنعون ، وكان أن اقترح عليه أحدهم — محمد سليم علوان القاضي

— أن يعنى تجارتها ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذاك النضال الطويل . بيد أن السيد لم ينب عنه حقيقة مخاوفه ، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه فقال له « أتريد أن ترى حيا ! » ، ودفعه قوله هذا ، وهاله ، لأنه وإخوانه يحبون أبائهم حبا صادقا ، فلم يعد أحد منهم إلى طرق هذا الموضوع الخطير . ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد ، فراحوا يقولون — واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة — إن شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال في المصارف . وفطن إلى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذى يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرع عنها ، فهو يعلم حق العلم أن التجارة التى تدر المال بلا حساب قد تبتاعه أيضا في ساعة نحس واحدة ، وأن التاجر الذى يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا تحقيق إذا وقعت هذه الساعة — وخاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلا أو زوجه — أن يخرج من شدته ببعض المال ، وعسى أن يكون مالا كثيرا ، لا صفر اليدين . وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة ، واتفوا إلى الإفلاس والفقر المدقع ، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كذا . أجل إنه يعلم ذلك كله ، ويعلم أن أبنائه على حق فيما يريدون ، ولعل التفكير في هذا الذى يريدون لم يكن جديدا عليه ، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع في مثل هذا العمل ؟ ! كلا . هذا بين بلا ريب ، وإذا فليؤجل إلى حين ، وليطو في نفسه حتى يتيسر تحقيقه . ولم يكده يحسب أنه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه القاضي أيضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية . قال له — كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك مالا وجاها ومقاما . وسره هذا الاطراء . وكان في الحق — وعلى خلاف التجار الحصفاء — مغرأ بالجاه والجلال ، ولكنه تساءل في سداجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة . وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل ، وتحمسوا له جميعا ، وإن اختلفوا في الوسيلة . فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلى فيها

بدلوه ! حقاً كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئاً — فيما عدا التجارة — من أمور الدنيا ، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلاً ، فكان مثله يضرع خاشعاً إلى ضريح الحسين ، وكان مثله يبعجل الشيخ درويش ويتبرك به . كان بايجاز معدة قوية وجبة زاهية . بيد أن السياسة لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى أكثر من هذا . وقد مضى يفكر في الأمر تفكيراً قوياً ، لولا أن اعترضه ابنه المحامي — عارف سليم علوان — فقال له محذراً :

— السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا . ستجد نفسك ملزماً بالإتيان على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك . وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافاً من أموالك دون جدوى ثمنا لسكرسي غير مضمون ، وهل البرلمان في بلادنا إلا كمرئض بالقلب تهدده السكتة في أية لحظة ائتم أي حزب تختار ؟ إذا اخترت حزباً غير الوفد أضعفت مكانتك في الوسط الذي تعمل فيه ، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصديقي باشا يجعل تجارتك هشيماً تذروه الرياح . . .

وتأثر السيد بقول ابنه ، وكان يثق في أبنائه « المتعلمين » ثقة كبيرة ، وزاده انحيازاً إلى طرح السياسة جانباً جهله التام بشؤونها ، وبروده حيالها ، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول . واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة . ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر ، لأن غريزة التجارة السكينة فيه تنفر تموراً طبيعياً من البذل والعطاء ، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف ، لأنه في الواقع كان كرمًا لنفسه وبيته . على أنه لم يقطع بالرفض ، فإذالت الرتبة مغرية محبوبة ، وما زال يطمع فيها ويريدها . وقد أدرك أنها تقتضيه قدراً من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه ، فما عسى أن يصنع ؟ لم يبت برأى قاطع ، وإن قال لأبنائه « كلا » ، بيد أنه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القائمة بلافض كإدارة

الوكالة وشراء العقار ، تاركاً أمر الجميع للمستقبل وللظروف .

* * *

ومهما يكن من أمر هذه المصوم فهي ليست بالخطر الذي ينفص
صنفو الحياة ، وخصوصاً حياة رجل يستغرقه العمل نهاراً ، والغريزة ليلاً .
والحق أنه إذا شغله العمل لم يجد يفكر في شيء سواه ، وقد جالس إلى
مكتبه مركزاً انتباهه كله في كلام سمسار يهودي ، مستجمعاً يقظته ،
مستحضراً حذرهم ، يعجب لرقعة محدثه ولطفه ، حتى ليحسبه الجاهل صديقاً
ودوداً ، وهو في الحقيقة نمر يتوثب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن
والويل لمن يتمكن منه . وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله
أعداء مامن صداقتهم بد ، أو أنه — على حد تعبيره — شيطان مفيد .
وكان يساوره بصفقة شاي مضمونة الريح غزيرته ، فجعل السيد يقتل شاربه
الضخم ويتجشأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير ! وحاول الخواجا بعد أن
فرغ من الشاي أن يعرض عليه شراء عقار صالح — وكان على علم برغبته
في الشراء — ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع في ذلك إلى
ما بعد الحرب ، وأبى أن يصغي إليه ، فغادر الرجل الوكالة قائماً بصفقة
واحدة . وجاء غير هذا الخواجا آخرون . وواصل السيد العمل بما عرف
عنه من مقدرة وهمة . وعند منتصف النهار ، نهض للغداء . وكان يتناول
غداءه في حجرة أنيقة أعد بها فراشاً للمقيل . وكان غداؤه يتكون عادة
من خضر وبطاطس وصينية فريك . ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش
يستجم ساعة أو ساعتين . وفي أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة ، فيسود
السكون الزقاق جميعاً . وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعاً .
هي طعام ووصفة في آن واحد . وقد برع في تهيتها أحد عماله المقربين ،
فظلت حقيقتها سراً بينهما ، لولا أنه لا يؤمن على سر في زقاق المدق . هي
صينية فريك محشو بالحمam ، ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب ،
يلتهمها في الغداء ، ويحتسى بعدها شاياً مرتين أو ثلاث مرات ، قدحاً كل

ساعتين ، فتحدث منعوها ليلاً ، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهمية خالصة ! . وقد ظلت الصينية سرّاً لا يدريه إلا الرجال والمعامه حسنية القرانة . وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غداء خالص ، فيقول البعض « بالهناء والشفاء » ويفهم البعض « يطفحها سما بإذن الله ! » . ثم لعب الطمع يوماً بقلب المعامه حسنية ، فسولت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة في زوجها جعدة القران ، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص . ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد ، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلاً ، ولأحظ بسهولة ما طرأ من تغير على لياليه ، وهاد باللائمة باديء الأمر على العامل الذي يهيء الوصفة فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك في القرانة ، واكتشف السرقة بغير صعوبة ، فدعا القرانة ووجعها ، وعدل عن إرسال الصينية إلى فرنها ، مستبدلاً بها القرن الأقرنجي بالسكة الجديدة . وبدأ السر ينكشف ويذيع فعامت به أم حميدة ، وكان في ذلك الكفاية كل الكفاية ، فسرطان ما أحاط به أهل الزقاق جميعاً ، وراحوا يتلقون الصينية بالفمز واللمز . وأدرك السيد فاضياً أن سره قد افترضح ، ولكنه لم يعبأ ذلك طويلاً ! أجل . قطع أكثر عمره في الزقاق ، ولكنه لم يكن يوماً من أهله ، ولم يعمل لواحد منهم حساباً ، ولولا السيد رضوان الحسيني والشيخ درويش لما غنى برفع يده تحية . وكادت الصينية تصبح في وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعاً ، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد . فخر بها المعلم كرشة والدكتور بوشى ، حتى السيد رضوان الحسيني ذاقها بعد أن تأكد من أنها لا تحوى مادة يحرمها الشرع الخفيف ! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر . والواقع أنه كان يضطرب من الحياة في مضطرب ضيق نهاره نهيب للوكالة ، وليله خال مما يتسلى به أمثاله من الناس ، فلا قهوة

ولا ناد ولا ملهى ، ولا شيء مطلقاً إلا زوجه ، ولذلك تفنن في مسراته الزوجية تفنناً شديداً عن جادة الاعتدال .

وقد استيقظ قبيل العصر ، فتوضأ وصلى ، وارتدى قفطانه وجبته ، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاي الثانى مهياً ، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشأ جشأت مجججة يدوى صداها في الفناء الداخلى . وأقبل على عمله بنفس الهمة التى استقبله بها في الصباح . ولكنه كان يبدو في فترات وكأن قلقاً ينتابه . كان يتلفت نحو الزقاق ، وكان ينظر في ساعته الذهبية الضخمة ، وكان يهبت بأنفه على غير شعور منه . وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق ، أدار مقعده اللولبى وجعل وجهه للطريق . وصرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق . ثم أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع ششب على أحجار الطريق المنحدر ، ثم صرت حميده أمام باب الوكالة في ثوانى معدودات ، وفتل شاريه بناية ، ودار بكرسيه إلى المكتب ، وقد لاح في عينيه السرور ، وإن وجد شعوراً بعدم الارتياح ! . من العسير أن يقنع بهذه الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق . ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت إلا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها في أويقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما يريح أعصابه بالمشى . كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونا لمنزلته وكرامته ، فهو السيد سليم ، وهى فتاة مسكينة ، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين المتطفلة . وتوقف عن العمل ، وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكراً . أجل ، هى مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم وأسفاه ، والنفس أماراة بالسوء ! . مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزى ونظرة عينها وقدها الممشوق ، كل أولئك مزايا تستهين حقاً بفوارق الطبقات ! . وما جدوى المسكبرة ؟ إنه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح ، والجسم الذى يقطر إغراء ، وهذه العجيزة الأنيقة التى تزدى بورع الشيوخ . إنها أنفوس من

وارد الهند جميعاً . ولقد عرفها منذ كانت صببية صغيرة تتردد على الوكالة لا بتبائع ما تحتاجه أمها من الحناء ومواد المقتقة والمغات . رأى نديها وهما نبتتان ثم وهما دومتان ، حتى استوتا رمانتين . وطاين عجيزتهما وهى أساس أملس لم ينهض عليه بناء ، ثم وهى تكور رقيق يتمطى به النضج ، وأخيراً وهى كرة تنضج أناقة وأنوثة . وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتى أفرخ فى النهاية رغبة طارئة . إنه يعلم ذلك ، ولم يعد يحاول إنكاره ، ولطالما قال لنفسه « ليتها كانت أرملة كالست سنية عفيفي ! » لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجاً . أما وهى غبراء فينبغى أن يعلل التفكير فى أمره . وتساءل كما اعتاد أن يتساءل : ماذا يروم ؟ وذكر وهو لا يدري زوجه وأسرته . كانت زوجه امرأة فاضلة ، تتحلى بكل ما يحب الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة فى شؤون البيت ، وكانت على شبابها مليحة ولودة . فهو لا يأخذ عليها تقيصة واحدة ، وفضلاً عن ذلك كله كانت من أسرة كريمة تتفوق عليه كثيراً فى الأصل والمحتد . وهو يقر لها بفضائلها جميعاً ، ويضمر لها وداً صادقاً ، ولا يضايقه إلا أنها استوفت شبابها وحيويتها ، فقصرت عن عجراته ، وعجزت عن احتماله ، فبدا بالقياس إليها — وبسبب حيويته الخارقة — شباباً نهماً لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع ! . والحق أنه لا يدري إن كان ذلك ما علقه بحميدة ، أم أن هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم ! . ومهما يكن الأمر فقد أحس رغبة لا تقاوم إلى دم جديد ! ، وقال لنفسه صراحة « مالى أحرم على نفسى ما أحل الله لها ! » . على أنه كان رجلاً محترماً ، حريصاً جداً على أن يقر له كل إنسان بالاحترام ، ويكرمه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه . كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كل حساب . وكان يقول مع القائلين « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » وإنه لىأكل صينية الفريك ، أما حميدة ! رباها ! لو كانت من أسرة كريمة ما تردد لحظة فى طلب يدها . ولكن كيف تصير حميدة ضرة للسيدة غفت ! ؟ وكيف تصبح أم حميدة الخطابة حماته كما كانت

يوما المرحومة ألفت هانم ؟ ! وعلى أى وجه تكون هيمنة امرأة أب
لمحمد سليم القاضي وطارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم ؟ !
وهناك أمور أخرى — لا تقل عن هذه خطورة — ينبغي تقديرها حق
قدرها . هنالك بيت جديد لا بد — فى هذه الحالة — أن يتهيا ، وثققات
جديدة ربما ضاعفت من ثققاته القديمة ، وورثة جدد خليقون أن يعزقوا
وحدة أسرته المتعاسكة ، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء .
وفى سبيل أى شىء كل هذه المتاعب ؟ . . . ميل رجل — بل زوج
وأب — فى الحسين لفتاة فى العشرين ! لم يغب عنه شىء من هذا ، لأنه
رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تحصل بالمال وأحوال المعيشة .
ومضى يراجع نفسه حائراً متردداً لا يقره قرار . وباتت هذه العاطفة إحدى
الهموم المعلقة فى حياته ، وانتظمتها سلسلة مشاكلة التى لم تقض بعد إدارة
الوكالة ومستقبلها ، وشراء العقار وتشديد المهارات ، ورتبة الميكروية ، بيد
أنها كانت أشد إلحاحاً وأبعث شجناً .

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومدله حبل
التفكير ، أما إذا خطرت هميدة أمام عينيه ، أو لاحت لها فى النافذة ، فلم
يكن يفكر إلا فى أمر واحد . . .

٩

أصبحت أم حسين — امرأة المعلم كرشة — فى هم مقيم . فانتقطاع حادة
مألوفة لا يمكن أن يمر دون تساؤل ، خصوصاً إذا كان انقطاعها فى الماضى
يقترن دائماً بشر مستطير . وقد قطع المعلم كرشة حادة شجوبة لا يصح أن
تقطع لغير سبب خطير ، فراح يمضى سريره الليلية بعيداً عن البيت ، بعد
أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كل منتصف ليل فيمتد بهم
السهر حتى مطلع الفجر . وطافت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم

الذي ينقص عليها صفو الحياة . ما الذي يدعو ، إلى قضاء الليل خارج داره
أ يكون ذلك السبب القديم ، ذلك الداء الويل ؟ . سيقول الفاجر إنه مجرد
تغيير يراد به دفع الملل ، أو الانتقال لمكان أوفق لفصل الشتاء ، ولكن
هيهات أن تهضم نفسها أمثال هذه العاذر الكاذبة ، وإنما لتعلم من أمر
نفسه ما يعلمه الناس جميعاً . لذلك أصبحت المرأة في هم مقيم ، وباتت تتحرق
على فعل شيء حاسم مهما كانت عواقبه . وكانت امرأة قوية — على دنوها
من الخمسين — لا تنقصها أسباب الجراءة التي تجاوز الحد في كثير من
الأحايين . وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالباس — كحسنية الفرانة وأم
حميدة — واشتهرت بوجه خاص لما يقع بينها وبين زوجها من دواعي
الملاسة بسبب شذوذ سلوك الرجل ، كما اشتهرت بانقها القصير الفليظ
الأفطس . وكانت زوجا ولودا ، أنجبت بناتا ستأوذ كراً واحدهو حسين كرشة .
وجميع بناتها متزوجات ، وجهيهن يحمين حياة زوجية مقلقة ، لا تخلو من
نكد ، وإن كانت تسير ولا تنقطع . وقد حدثت لصغراهن مأساة كانت
حديث الزقاق يوماً ، إذا ختفت بفتة في عامها الأول من الزواج ، ثم ضبطت
في بيت عامل ببولاق ، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن . كانت مأساة
الفتاة كرها شديدا للأسرة ، ولسكنها لم تكن المأساة الوحيدة التي ابتليت
بها ، فللمعلم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء . وكانت أم حسين
تعرف السبيل إلى معرفة ما خفي عليها من الأمر ، فراحت تستخير عم كامل
وتستنطق الفلام سنقر صبي القهوة حتى علمت بالشاب الذي أخذ يتردد
في عهده الأخير على القهوة فيحتفي به المعلم كل احتفاء ويقدم له الشاي
بنفسه ! . وأخذت تراقب رواد القهوة خفية حتى رأت الشاب بنفسها
وشاهدت مجلسه إلى يمين المعلم ، ولمست احتفاءه به . وجن جنونها ونسكاً
الجديد القديم من جروحها ، فباتت ليلة جهنمية ، وأصبحت على شر حال
وأسوأ نفس . ولم يكن رأيها قد استقر على حال ، كانت تغلي غليانا ولسكنها
لا تدري أى سبيل تسلك . ولطالما جربت العراك فيما سلف دون جدوى
ولم تكن تتردد عن إعادة الكرة ، بيد أنها تريت قليلا — لا تأفقا منه

— ولكن دفعها لشماتة الشامتين . وكان حسين كرشة يترأ للخروج إلى عماله
فقصدهته هائجة النفس ثائرة ، وقالت له بانفعال شديد :
— يا بني أما علمت أن أباك يهد لنا فضيحة جديدة ؟

وأدرك حسين لتوه ما تعنيه ! فلا يمكن أن يعنى قولها إلا معنى
واحداً معروفاً مشهوراً . وامتلاً حنقاً ، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطائر
منهما الشرر . ما بال هذه الحياة لا تسكاد تعفيه يوماً من التلاعب والفضائح !
ولم تسكن دواعي السخط لتنقصه حتى بدون هذه الفضائح . كان برما
بكل شيء مما حوله . ولعل برمه هذا الذي دفعه إلى الارتقاء بين أحضان
الجيش البريطاني . ثم ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكنه
وتظامنه ، فضاق بآله وببيته وبالزقاق جميعاً . وجاء أخيراً قول أمه نقطا
على هيب ، فقال فاضحياً :

— ماذا تريدن ؟ وما حياتي في هذا كله ! لقد تدخلت فيما سلف ،
وحاولت الإصلاح ، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب ، فهل
تريدنني على أن أمسك بتلابيب أبي ؟ !

لم يكن يعنيه الإثم في ذاته ، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من
فضيحة وجرسة ، وما يشعله في البيت من نيران السباب والشتائم والعراك .
أما الإثم ذاته فلم يكن يهمه على الإطلاق ، بل إنه حين تنأهى إليه خبره
أول مرة هز منكمبيه استهانة وقال دون مبالاة « إنه رجل ، والرجل
لا يعيبه شيء ! » . ثم سخط مع الساخطين ، ونقم على والده ، حين وجد
أسرته مضغة الأفواه ، ونادرة المتندرين . وكانت علاقته بأبيه في الأصل
متوترة ، ذلك التوتر الذي ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين ،
فسكلاهما فظ شرس غضوب ، ثم جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب
شقاقهما ، حتى أصبحا كهديوين ، يتحاربان حيناً ، ويتماذبان حيناً ،
ولا يسكت عنهما السخط أبداً .

ولم تدر أم حسين ماذا تقول ، ولكنها لم تراجعها أن تكون السبب

في إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه . وتركته يغادر الشقة وهو يهدر فاضباً شاتماً . وقطعت نهارها على أسوأ حال . ولم تكن تذعن للهزيمة على كثرة ما عرّكها الزمن بالتعاسة والمزانة ، فصعدت عزيقتها على تأديب الرجل الآثم ولو عرضها ذلك لشماتة الشامتين . بيد أنها رأت أن تقدم إنذارها بين يدي يأسها ، فانتظرت حتى انتصف الليل ، وتفرق السمار ، وتأهب زوجها لإغلاق القهوة ، ثم نادته من النافذة ! فصعد الرجل رأسه منزجاً وعلا صوته متسائلاً .

— ماذا تريد من يأم حسين ؟

نجاهه بصوتها يقول :

— إصعد يا معلم لأمر هام . .

وأوماً المعلم لفتاه أن ينتظره حيث هو ، وراح يرتقى السلالم متثاقلاً ، ووقف على عتبة باب شقته لاهثاً ، ثم سألها بصوته الغليظ :

— ماذا تريد من ؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتى الصباح ؟

رأته المرأة وقد تسمرت قدماء بالعتبة لا يريد أن يزايها كأنه يتحاشى أن يخرق حرمة بيت غريب فتميزت غيظاً ، وحدجته بعينين محمرتين من السهر والغضب ، ولسكنها لم ترد أن تبادره بالغضب ، فقالت وهي تالِب انفعالها :

— تفضل بالدخول يا معلم . .

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم إذا كان لديها حقاً ما تريد أن تقوله ، ثم سألها بخشونة :

— ماذا تريد من ؟ . . انطقي !

ياله من رجل نافذ الصبر ! يقطع الليالى الطوال خارج البيت دون ملل ، ولسكنه يضيق ذرعاً بحديث دقيقتين معيا . ومع ذلك فهو رجلها أمام الله والناس ، وأبو أبنائها جميعاً ! ومن عجب أنها لم تستطع — على إساءته إليها — أن تبغضه أو تهمل شأنه . فهو رجلها وسيدها الذي

لا تني عن الاستئثار به ، واسترداده كلما مد الإثم يدا لاخطافه . بل إنها لفخور به حقاً ، فخور بفحولته ومكانته في الزقاق وسيطرته على المعامين من أقرانه ، ولولا هذا النقيصة المنكرة لما وجدت له ضريحاً في الدنيا . ها هو يستجيب لداعى الشيطان ، ويود لو أعفته من حديثها لينطلق إليه من توة ! واشتد بها الفيظ فقالت بحدة .

— أدخل أولاً . . . لماذا تقف على العتبة كالأغراب ؟ !

فنفخ المعلم مفيظاً محنقاً ، وجاز العتبة إلى الدهليز برما ساخطاً وهو يتساءل بصوته الأبحس .

— ماذا وراءك ؟

فقالت وهي ترد الباب .

— استرح قليلاً . . . لدى كلمة قصيرة . . .

ونظر إليها مستريباً ! ماذا تريد المرأة ؟ هل تعترض سبيله مرة أخرى ؟ ! وصاح بها :

— تكلمى لماذا تضييعين الوقت سدى ؟

فسأله بحنق :

— أتمتع بـ أنت يا معلم ؟

— أتجهلين هذا ؟

— ما الذى يدعو لهذه المجلة ؟

فازدادت ريبته ، وامتلاً صدره حنقاً وتساءل إلام يحتمل هذه المرأة ؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة . كان يكرهها حيناً ويحبها حيناً آخر . ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جره الإثم إلى هاويته ، ويزيد الأمر وبالا إذا توثبت المرأة للانعراض عليه . وكان يتغنى في قرارة نفسه لو كانت امرأته « حاقلة » فتركته وشأنه . ومن عجب أنه كان يرى نفسه على حق دائماً ، ويمجد لاعتراضها سبيله بلا مبرر ! أليس من حقه أن يفعل ما يشاء ؟ وأليس من واجبها أن تطيع ، وأن ترضى ما دامت

حاجاتها مقضية ورزقيها موفورا؟! وقد أُمست من ضرورات حياته ،
كالنوم والحشيش والبيت ، بخيرها وبشرها ، فلم يفكر جادا في التخلص
منها ، ولو أراد ما منعه مانع ، ولسكنها كانت تملأ فراغا ، وتقوم على
العناية بأمره ، ويريدها — على أية حال — زواجه ! . ولكنه تساءل
على رغم هذا كله — في حنقه — إلام يحتفل هذه المرأة ؟ وصاح بها :
— لا تسكوني ههنا وتكلمي أو دعيني اذهب لحال سبيلي . . .
فسأله باستياء وحنق :

... ألا تجد قولا أفضل من هذا تخاطبني به ؟

فزجر المعلم قائلا :

— الآن علمت أنه ليس لديك ما تقولينه ، والأفضل أن تنامي شأن
النساء العاقلات . . .

— ليترك تنام أيضا شأن الرجال العقلاء !

فضرب المعلم كفأ بكف وصاح :

— كيف لي بالنوم في هذه الساعة !

— فلماذا خلق الله الليل ؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ .

— ومتى كنت أنام الليل ؟ هل أنا عريض يا صرة ؟ !

فقال ببلهجة ذات معنى خاص علمت أنه سيدركه من فوره .

— تب إلى الله يا معلم وارعو . الله يقبل التوبة ولو جاءت متأخرة !

وأدرك ما تريد ، وقطع الشك باليقين ، ولكنه قال متجاهلا وهو

يتميز غيظا .

— ما في السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه .

فزادها تجاهلا لها حنقا وقالت :

— تب عن الليل وعمما في الليل . . .

فقال المعلم بخبث :

— أتريديني على أن أهجر حياتي !

فصاحت به وقد غلبها الغضب :

— حياتك !

فقال بخبث :

— أجل . الحشيش حياتي !

فطأير الشرر من عينيها وهي تقول وقد حدثتها نفسها بأن تصبك
خديه السوداءوين :

— والحشيش الآخر ؟ !

فقال متهمكا :

— أنا لا أحرق إلا صنفاً واحدا .

— أنت لا تحرق إلاي . لماذا لا تسهر في مكانك المعتاد من السطح !

— ولماذا لا أسهر حيث يروقي السهر ؟ على السطح ، في المحافظة ، في

قسم الجمالية ؟ ما شأنك أنت ؟

— لماذا غيرت مكان سهرتك ؟

فصعد الرجل رأسه وصاح :

— اللهم فاشهد . أعفيتني حتى الآن من محاكم الحكومة ونصبت لي

محكمة دائمة في بيتي (ثم طامن رأسه كرة أخرى واستدرك) ألا فاعلمي

أن بيتنا قد أصبح مشبوهاً . والمخبرون يجوسون حوله :

فسأله بسخرية سرية :

— ترى هل هذا الشاب المتمك من بين هؤلاء المخبرين الذين أطاروك

عن عشك .

آه ، صار التلميح تصريحاً ! واربد وجهه الضارب للسواد ، وسأها

بصوت ينم عن الضجر .

— أي شاب هذا ؟

— الفاجر الذي تقدم له الشاي بنفسك كأنك رددت صبيّاً كسنقر !

- ما في ذلك من عيب ، فالمعلم يخدم زبائنه كالصبي سواء بسواء .
فسألته متهمكة بصوت متهدج من الغضب :
— لماذا لا تخدم عم كامل مثلاً ؟ لماذا لا تخدم إلا الفاجر ؟
— الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد !
— الكلام سهل على من يريده ، ولكن فعلك فاضح فاجر .
فأوماً إليها بيده منذراً وهو يقول :
— أمسكي لسانك يا مجنونة .
— الناس جميعاً يكبرون فيعتلون . .
فقرض أسنانه وسب ولعن ، ولكنها لم تباله واستطردت تقول :
— الناس يكبرون فيعتلون ، أما أنت فكلما كبرت قل عقلك !
— خرفت يا مرة ! خرفت وحياة الحسين ! عليه العوض !
فصاحت به بصوت غليظ مرتعش النبرات :
— الرجال أمثالك يستأهلون العذاب . هلا كفيتنا شر الفضائح ! هلا
كفيتنا ذل الشماتة !
— عليه العوض ! عليه العوض !
وغلبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة :
— اليوم تسمعي أربعة جدران ، غدا تسمعي الدنيا كلها !
فرفع جفنيه الثقيلتين وسألهما بقوة
— تهددينني ؟ !
— أهددك ، وأهدد أهلك ! أنت تعرف من أنا !
— يبدو لي أنني سأهشم هذا الرأس الخرف !
— هي . . هي ، والله ما ترك الحشيش والفجر قوة في ساعديك ،
والله ما تستطيع أن ترفع يداً . . انتهيت ، انتهيت يا معلم . .
— انتهيت بفضلك . وهل ينهى الرجال إلا النساء . . !
— أسفي على من دون النساء جميعاً !

— له ؟ ! .. خلقت بناتاً ستاً ورجلاً .. غير حالات الأجهاض والسقط .
فضاحت في غضب جنوني
— ألا تستعنى من ذكر الأبناء ! ألا يزجرك ذلك عما تتردى فيه
من الفجور !
فضرب الجدار بقبضته ، وتحول عن موقفه متجها نحو الباب ،
وهو يقول
— امرأة مجنونة خرفة . . .

فصرخت وراءه
— هل تهد صبرك حقاً ؟ .. أتشفق عليه من طول الانتظار ؟ ..
سترى عاقبة فجرك يا داعر . . .
وأغلق المعلم الباب بعنف ، فرنت صفقته رنيناً مدوياً مزق سكون
الليل ، وجعلت أم حسين تكور يدها في غضب وحنق ، وقد امتلأت
نفسها رغبة في الانتقام . . .

١٥

ألقى عباس الحلو على صورته في المرأة نظرة فاحصة ناقدة حتى لاحت
في عينيه البارزتين نظرة ارتياح . وكان قد رجل شعره باناة ، ونفض الغبار
عن بدلته بعناية ، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر . هي ساعة الأصيل
المحبوبة ، والسماء صافية عميقة الزرقة ، والجو ملطف بدفء طارئ جادت
به الطبيعة غب رذاذ اتصل يوماً كاملاً ، وقد اغتسلت أرض الرقاق التي
لا تستحم إلا مرتين أو ثلاثاً في العام ، وظلت بعض منخفضات الصناديق
مغمورة بالماء ملبدة بالطين . وكان عم كامل داخل دكانه الصغيرة يهوم على
كرسيه فأشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة ، وما لبث أن دب الوجد في
أعماقه فراح يدندن بصوت منخفض :

هلبت يا قلبي على طول الزمن ترتاح
وتنول وصال اللي تهوى ، وفيه ترتاح

مصير جروحك على طول الزمن تبرى
ويجيك الطب ، لا تعلم ولا تدري
مثل سمعناه ، منقول عن ذوى الخبرة

الصبر يا مبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عم كامل عينيه ، وتشاءب ، ثم نظر إلى الشاب الواقف على باب دكانه ،
فضحك هنا ، وعبر الطريق إليه ، وقرصه في ثديه الطمش ، وقال بسرور .
— عشقنا وستضحك لنا الدنيا . .

فتنهدهم كامل وقال بصوته الرفيع .

— مبارك يا عم ، ولكن هلا سلمتني الكفن قبل أن تبيعه لتحصل

على المهر !

فضحك عباس الحلو ضحكة عالية ، وغادر الزقاق متهللاً . كان يرتدى
بدلته الرمادية ، وهى الوحيدة أيضاً . وكان قد قلبها منذ عام ، ثم رفا الرفا
بعض أطرافها ، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكيها ، فبدا — على نحو ما —
أنيقاً ! وكان يضطرم حماساً ونشوة وشجاعة ، ويضطرب بهذا الضيق الشديد
الذى يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد . كان فى تلك الفترة يحيا بالحب ،
للحب ، ويدوم بجناحيه الملائسين فى سماء السرور . وكان حبه عاطفة
رقية ورغبة صادقة وشهوة جائعة ، يهوى الشدين كما يهوى العينين ويلتمس
وراء الشدين حرارة الجسد ، كما يلمس فى العينين نشوة فامضة ساحرة .
وقد سر سرور الظفر يوم تعرض للفتاة فى الدراسة . وصور له خياله
إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السلبي الذى تلبي به النساء نداء الهوى .
واستأثرت به النشوة أياماً . ثم مضى حماسه يفتر ونشوته تنخبو ، لا الجديد
جد ، ولكن لتيقظ الشك وفعله . وراح يتساءل لماذا يظن الإعراض
دلالاً ؟ ولم لا يكون إعراضاً حقاً ! ؟ لأنها صمدته فى غير قسوة ولا

فظاظة؟ ولكن هل يتوقع الإنسان من جارة العمر أقل من هذه الجحامة؟ . . .
حقاً لقد خال في سروره، وإنما لنشوة كاذبة. بيد أنه لم ينكص على عقبيه،
وكان كلما لسمعه الشك، اندفع في سبيله ذائلاً عن سعادته. كان عند
الضحى يبرز أمام دكانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمس الشقة، وفي المساء
يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها، يدخلن الجوزة، ويخطف
النظرة تلو النظرة من الشباك المعلق وراء خصاصه الشبح المحبوب .
ولم يقنع بهذا فتعرض لها مرة ثانية في الدراسة، ولكنها صدته كما صدته
أول مرة، وأعاد السكره فأفلتت منه أيضاً ولكنه رجع وقد عاوده
الأمل وأظله الفرح والسرور. وقال لنفسه إن السعادة مهيأة له ولا تقتضيه
إلا مزيداً من الشجاعة والصبر. وهكذا انطلق هذه المرة ممتلئاً شجاعة
وثقة وهياماً. ورأى حميدة وصويحباتها قادمات فانتحى جانباً حتى مررن به
ثم تبعهن متمهلاً. وقد لاحظ أن أعين البنات يثقبينه بنجبت مريب فداخله
سرور وزهو. وتابع سيره حتى انقرط عقدهن عند نهاية الدراسة، فثب
خطاه حتى صار منها على مرمى ذراع، وابتسم إليها ابتسامة رقيقة متعثرة
بالارتباك، وغمغم بتعجبه المحفوظة .

— مساء الخير يا حميدة . . .

كانت تنتظره بلا ريب، ولكنها كانت في حيرة من أمر نفسها .
لم تكن تحبه، ولم تكن تكرهه. ولعل كونه الفتى الوحيد الذي يصلح
لها في الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صده بحزم وفظاظة. فأغضت
عن تعرضه لسبيلها مرة بعد أخرى، مكثفية بزجر لين، وإفلات لطيف،
ولو شاءت أن تصعقه لصعقته. وكانت على رغم تجربتها المحدودة في الحياة
تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذي
يضرمه نزوعها الغريزي إلى القوة والجموح والسيطرة والعراك! . حقاً
كانت تهيج جنونها إذا قرأت في نظرة عين معنى للتحدي أو الثقة، ولكن
لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الوديعة الطيبة التي تلوح دوماً في عيني

الحلو ، وتولاهما شعور بالحيرة والقلق لترددتهما بين الحرص عليه بوصفه
الفتى الصالح لما في الزقاق ، والنفور منه تقوراً لا ينهض على أسباب
واضحة يطمأن إليها . فلا ميل صريح ولا نفور صريح . ولولا إيمانها
بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت في نبذه والقسوة عليه . لذلك
أحبت مجاراته ، وسير غوره ، واستخراج مكنون لسانه ، لعلها تجد في
ذلك كله أو في بعضه مخرجاً لها من حيرتها المؤسسية . وخاف الفتى أن يعتد
صمتها حتى ينطوى الطريق ، فضمن كالضارع :
— مساء الخير . . .

وانبسط وجهها البرزى الجليل ، وتمهل في مشيتها وهي تنفتح في
ضجير مصطنع قائلة :
— ماذا تريد ؟

ولمح انبساط وجهها فلم يعباً تضجرها ، وقال بأمل ورجاء :
— ميلي بنا إلى شارع الأزهر ، فهو طريق مأمون والظلام وشيك . .
وعدلت صامته عن طريق الدراسة إلى الأزهر ، فتبعها وهو يكاد
يخرج من جلده فرحاً . ورجع رأسها صدى هذه الكلمات « طريق مأمون . .
الظلام وشيك » . فأدركت أنها تقارف فعلاً تحاذر عليه أعين الرقباء ،
وابتسمت بجانب ثغرها في تحد ! . كانت « الأخلاق » أهون شيء على
نفسها المتمردة ، وقد نشأت في جو لا يكاد يتفيا ظلمها ، أو يتقيد بأغلاها ،
وزادها استهانة طبع جموح بأم مهمة ، قليلاً ما تستمكن في بيتها ، فانطلقت
على سجيبتها تخاصم هذه وتعارك تلك ، فلا تعمل شيء حساباً ، ولا تقيم
لفضيلة وزناً . أما عباس الحلو فقد لحق بها ، وسار لصقياً وهو يقول
بصوت ينم عن الفرح والسرور :

— دمت من فتاة كريمة . . !
ولكنها قالت له في شبه ضجير :
— ماذا تريد مني ؟

فقال الفتى وهو يتجألك أتعاسه المضطربة :

— الصبر طيب يا حميدة ، تلطفنى معى ولا تكونى قاسية على ..

فمطانت نحوه رأسها وهى تغطيه بطرف ملاءتها وقالت بحدة :

— هلا قلت لى ماذا تريد !

— الصبر طيب .. أريد .. أريد كل شىء طيب ..

فقالت بتأفف :

— لا تريد أن تقول شيئاً ، ونحن نجد فى السير فنبتعد عن طريقنا ،

والوقت يمضى ، وأنا لا أستطيع أن أتأخر عن موعد عودتى ..

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة :

— سنعود فى وقت قريب ، فلا تخافى ولا تجزعى . وسنجد عذرا

تنتحلينه لأمك . إنك تفكرين كثيراً فى الدقائق ، أما أنا فأفكر فى

العمر كله ، فى حياتنا جميعاً . هذا هو شغلى الشاغل . ألا تصدقينى ؟ إنه

جل تفكيرى وهى وحياة الحسين الذى يبارك هذا الحى الطاهر .. !

كان يتكلم فى بساطة وصدق ، فشعرت بحمارة حديثه ، ووجدت لذة

فى الإصغاء إليه ، وإن لم يتحرك قلبها الجامد ، فتناست حيرتها المعذبة ،

وألقت إليه بانتباهها ولكنها لم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت وتشجع

الفتى فاستدرك قائلاً فى انفعال .

— لا تعدى على الدقائق . ولا تلقى على هذا السؤال الغريب . تسألينى

يا حميدة عما أريد ، أتجهلين حقاً ما أريد قوله ؟ ! لماذا أتعرض لك فى الطريق

لماذا أتبع عيني ظلك حيث تكونين ؟ لك ما تشاءين يا حميدة . ألم تقرئى

شيئاً فى عيني ؟ يقولون إنى قلب المؤمن دليله ؟ فماذا علمت ؟ اسألى نفسك .

اسألى أهل الزقاق جميعاً ، كلهم يعرفون ..

وقطبت الفتاة وغممت وهى لا تدرى .

— فضيحتنى ... !

فباله قولها ، وهتف متأثراً .

— لا فضيحة في حياتنا ، وما أكن لك إلا الخير ، وهذا الحسين يشهد قولي ويعلم بسريرتي . أنا أحبك ، ولطالما أحببتك ، أحبك أكثر مما تحبك أمك ، وأحلف لك على صدقي بالحسين ، وجد الحسين ورب الحسين . .

وشعرت بسرور ولذة . ودخلنا زهو تملق نزوعها الجامح إلى القوة والسيطرة . والحق أن كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الآذان ولولم ترجع القلوب أنغامها ، فهي كالأفاويه للنفس المسدودة ! بيد أن خيالها وثب وثبة قوية عبر بها قنطرة الحاضر إلى المستقبل ، فتساءلت ترى كيف تكون حياتها في كنفه لو صدقت الأيام أمه ؟ إنه فقير ، رزقه كفاف يومه ، وليسوف يأخذها من الطابق الثاني لبيت الست سنية غفني إلى الطابق الأرضي في بيت السيد رضوان الحسيني . وأحسن ما يمكن أن تميزها أمها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الأواني النحاسية . ولا يدخر لها بعد ذلك إلا الكنس والطبخ والغسل والإرضاع . وربما قطعت طريقها حافية في جلباب مرقع . ورئمت كأنما اطلعت على مشهد خفيف . وتحرك في أعماقها هيامها المفرط بالثياب ، وتيقظ ذلك النفور الوحشي من الأطفال الذي تعيرها به نسوة الزقاق . وهاودتها حيرتها المعذبة ، فلم تدر الأصابة أم أخطأت في مطاوعتها له وسيرها معه . وكان عباس ينعم إليها النظر في افتتاح هيام وأمل ، فاول صمتها وتفكيرها على هواه ، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده .

— لما ذا تصمتين يا حميدة ! . كلمة واحدة تشفي الفؤاد وتغير الدنيا . كلمة واحدة تكفيني . تكلمي يا حميدة . اخرجي عن هذا الصمت . . .
ولسكنها لم تنبس بكلمة ، وظلت فريسة للحيرة ، فاستطرد عباس قائلاً .
— كلمة واحدة تملأ روعي أملا وسعادة . لعلك لا تدريين ما فعله حبك بي ! إنه يبعث في روعي جديدة لا عهد لي بها ! إنه يخلقني خلقاً جديداً ، ويدفعني لاقتحام الدنيا غير هباب . أما علمت هذا ؟ . لقد استيقظت من سباتي ، وغداً ترينني شخصاً جديداً . . .

ماذا يعنى ؟ وانعطف رأسها كالمسائل . فانشرح صدره لاهتمامها وقال بحماس ونفخار .

— أجل توكلت على الله وسأجرب حظى كالأخرين ، سألتحق بخدمة الجيش البريطاني ، وعسى أن يصادقنى من التوفيق ماصادف أخاك حسين . فلاح الاهتمام فى عينها وسألته على غير وعى منها .
— حقاً ؟ .. متى يكون ذلك ؟

كان يؤثر بلا شك أن تحدثه حديثاً آخر ، وأن يلمس انفعالها قبل أن يستشير اهتمامها ، أن يسمع هذه الكلمة العذبة التى تذوب نفسه شوقاً لسماعها ، ولكنه ظن هذا الاهتمام قناعاً نسيجه الحياء ليستر به عاطفه مشبوبة كهماطفته تهاب البوح بسرها . واهتز صدره فرحاً ، وقال مفتر الثغر .
— هما قريب أسافر إلى القل الكبير ، وسأشتغل بأدىء الأمر يومية مقدارها خمسة وعشرون قرشاً ، وقد أكد لى جميع الذين استشرتهم فى الأمر أن هذا المقدار قليل من كثير مما يصيب جميع المشتغلين فى الجيش . وسأجعل همى فى أن أوفر من يومئذ أقصى ما أستطيع توفيره . حتى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب — وهى بعيدة كما يقولون — فتحت صالونا جديداً فى السكة الجديدة أو شارع الأزهر ، واستقبلت حياة رغيدة نتم بها . . . معاً . . . إن شاء الله . . . ادعى لى يا حميدة . . .

هذا شيء جديد لم يخطر لها ببال . وإذا كان الفتى جاداً فقد حقق لها كثيراً مما تصبو إليه نفسها . وإن نفساً كنفسها مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بأن يروضها المال ويستأنسها . وغنم عباس معاتباً .
— ألا تريد أن تدعى لى ؟

فقال بصوت خافت وقع من أذنيه موقماً جميلاً وإن كان صوتها نقطة ضعف فى جمالها .

— الله يوفق خطاك . . .

فتنه مسرورا وقال :

— آمين . استجب لها يارب . مستبسم لنا الدنيا بأذن الله . إرضى أنت
على ترض الدنيا جميعاً . . أنا لا أسألك شيئاً إلا الرضا .

وأخذت تخرج من حيرتها رويداً رويداً ، فقد وجدت في الظلمة التي
كانت تتخبط فيها بصيص نور . نور الذهب اللامع . وإذا كان شخصه
لا يرضيها ، ولا يحرك أنوثتها ، فعسى أن يبرز منه هذا الضوء اللامع الذي
يستويها ، ويلبي نزوعها الصارخ إلى القوة والجاه وهو بعد هذا كله —
وقبل هذا أيضاً — الفتى الوحيد الصالح في الزقاق ! أجل ، هذا حق
لا ريب فيه ، وقد خامرها شعور بالارتياح . وأنصتت إليه وهو يقول :

— ألا تسمعينى يا حميدة أنا لا أسألك إلا الرضا !
فارتسمت على شفقيها الرقيقتين ابتسامة ، وغمغمت .
— وفقك الله . .

فعاد يقول في ابتهاج .

— ليس من الضروري أن ننتظر حتى نهاية الحرب ! . . . منكون
أسعد مخلوقين في الزقاق . .

وقطبت في تقزز ، وندت عنها هذه السكامة بلا وعى ، وفي ازدراء شديد .
— زقاق المدق !

فنظر إليها في ارتباك ، ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذي يحبه ،
ويؤثره على الدنيا جميعاً . وتساءل مترجماً ترى هل تزدري هذا الزقاق
الطيب كأخيها حسين ؟ حقاً لقد رضعا من ثدى واحد ! . وأراد أن يمحو
ما تركه فيها من أثر سى فقال .

— نختار المكان الذى تحبين . هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضى ،
اختارى بيتك حيثما تشائين !

وتلتهبت لقوله في حيرة ، وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغي ،
وأن لسانها خانها بلا وعى منها ، فذهبت على شفتها ، ثم قالت بإنكار .
— بيتي ؟ ! أى بيت تعنى ؟ ! ما شانى أنا فى هذا الأمر !
فهتف بها فى عتاب

— كيف تقولين هذا القول ؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب ؟
ألا تدريين أى بيت أعنى ؟ سامحك الله يا حميدة . أعنى البيت الذى سنختاره
معاً ، بل الذى تختارينه أنت وحدك ، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعاً .
وإنى أهاجر فى سبيل هذا البيت كما علمت . ولقد دعوت لى بالتوفيق ،
فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة . إتفقنا يا حميدة وانتهى الأمر !
هل اتفقنا حقاً ؟ أجل اتفقنا ! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ،
ومنازعته الحديث ، والخوض فى أحلام المستقبل . وماذا يضيرها من
ذلك ؟ أليس هو فتاها على أى حال ؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق
والتردد . أحقا أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئاً ؟
وأحست عند ذاك يده تلمس راحتها ، وتقبض عليها ، وتضفى على أناملها
الباردة حرارة ودفئاً . أنتزعها منه وتقول له « كلا » . . . « لا شانى لى
فى هذا الأمر ! » ؟ ولكنهما لم تفعل شيئاً ، ولم تنبس بكلمة ، ومضيا معاً
وراحتها فى كفه الساخنة . وشعرت بأصابعه تشد عليها بحنان ،
وسمعته يقول .

— سنتقابل دواما . . أليس كذلك ؟
وأبت أن تنبس بكلمة ، فقنع بلغة الصمت وقال مرة أخرى
— سنتقابل كثيراً ، ونزن امورنا جميعاً ، ثم أقابل امك . . . لا بد
من الاتفاق معها قبل السفر . .

وانترعت راحتها من يده وهى تصيح فى جزع
— سرقنا الوقت ، وابتعدنا كثيراً . . هلم إلى العودة . .
ودارا على عقبيهما معاً وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض أصدقاء

السعادة التي يجيش بها قلبه . واستعثنا الخطي حتى بلغنا الغورية في دقائق ،
وافترقا عندها ، فمالت هي إليها ، وانجبه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق
عن طريق الحسين . . .

١١

« اللهم عفوك ورحمتك » .

نظقت الست أم حسين بهذه العبارة وهي ماضية إلى مسكن السيد
رضوان الحسيني . كانت تسأل الله العفو والرحمة في يأس وغيظ وحنق
مما تعانيه . أعيانها إصلاح زوجها ، وعجزت عن رده ، فلم تر بداً في النهاية
من مقابلة السيد رضوان ، لعله أن يفلح هو — بإصلاحه وهيبته — فيما
أخفقت هي فيه . ولم يكن سبق لها أن فاتحت السيد في مثل هذا الأمر
الفظيع ، ولكن يأثمها من ناحية ، وإشفاقها من شماتة الأعداء إذا جاهرت
بالخصومة والطعان من ناحية أخرى ، دفعها إلى طرق هذا الباب الصالح
الآمن لعل وعسى ! . وفي البيت استقبلتها حرم السيد رضوان جالسا معها
بعض الوقت . وحرم السيد في منتصف الحلقة الخامسة من عمرها ، وهي
حلقة يعتز بها نساء كثيرات ، ويعتبرنها الغاية من النضج الأنثوي ،
ولكن المرأة كانت مهزولة مهدمة ، تلوح في جسمها وروحها آثار السهام
التي سددها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلاً بعد طفل .
وكانت لذلك تضي على بيتها الساكن روحاً من الحزن والسكابة لم يجد
إيمان السيد العميق في تبديد غشاوته . وكانت تبدو ، في هزالها وحزنها ،
صورة مناقضة لصورة زوجها القوي المشرق المطمئن البسام . كانت امرأة
ضعيفة فلم يقلها إيمانها — على رسوخه — من عثرتها المضنية . وكانت
أم حسين تعلم بأمرها ، فأقبلت تشكو بثها وهما ، بقلب مطمئن إلى أنه
سيجد أذنا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان . ثم استأذنت في مقابلة

السيد رضوان ، فقامت المرأة لحظات ثم رجعت تسعورها إلى لقائه ، وقادتها إلى حجراته .

وكان السيد يجلس على فروة مسبحة ، المجمرة أمامه ، وإبريق الشاي على يمينه . كانت حجراته الخاصة صغيرة أنيقة ، تحلق بأركانها السكيات ، ويفطى أرضها مسجد شيرازي ، تقوم في وسطها مائدة مستديرة رصت عليها السكتبب الصفر ، ويتدلى فوقها من السقف مصباح غازي كبير . وكان السيد يرتدي جلباباً رمادياً فضفاضاً ، وطاقية صوفية سوداء يضيء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدن النير . في هذه الحجرة كان ينزل إلى نفسه كثيراً ، قارئاً أو مسبحاً أو متأملاً . وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار يتذاكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء ، ولم يكن السيد رضوان محدوداً من العلماء المتفقيين في الدين ، ولا من الأذكياء الأفذاذ ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضغونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقتها ، ولكنه كان مؤمناً صادقاً ، وورعاً تقياً ، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدره السامح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته فكان بحق من أولياء الله الصالحين .

وقد استقبل أم حسين واقفاً ، فاضاً بصره ، فأقبلت عليه في ملأها مبرقة ، وسامت عليه بيد ملتفة بطرف الملاة كيلا تنقض وضوءه . ورحب بها الرجل قائلاً :

— أهلاً وسهلاً بجارتنا الفاضلة . .

ودعاها إلى الجلوس فجلست على السكينة قبالتها ، وتربع الرجل على الفروة وراحت أم حسين تدعو له :

— الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيّل عمرك بحق جاه المصطفى . .

وكان يتحدث ما حملها على مقابله ، فلم يسألها عن صحة المعلم زوجها كما تقتضي بذلك آداب الضيافة ! وكان يعلم كالأخريين بسيرة المعلم كرشه ، وتناهى

إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار في ظروف سابقة مماثلة ، فأيقن أنه أقيم في هذا النزاع المتجدد على غير إرادة . وسلم للأمر الواقع ، وتلقاه بمصدره الرحب كما يتلقى غيره مما يكره ، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجعها على الكلام .

— خير إن شاء الله . .

لم تكن المرأة تعرف التردد ، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها في يوم من الأيام ، بل هي امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة ، ولم تكن امرأة تفوقها مراسا في الرقاق كله اللهم إلا حسنية الفرانة . لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ .

— يا سيد رضوان ، أنت الخير والبركة ، وأنت رجل زقاقنا الفاضل . لذلك قصدتك أسألك للمعونة في شدتي ، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجي . . .

وعلا صوتها في آخر كلامها واخشوشن ، فابتسم السيد مرة أخرى ، وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف .

— هاتي ما عندك يا ست أم حسين . إني مصغ إليك . .

فتهدت المرأة وقالت :

— الله يرفع قدرك يا زين الرجال . الرجل ياسى السيد لا يحتشم ولا يرعوى . وكما حسبت أنه قد تاب عن غيه طلع على بفضيحة جديدة . إنه رجل فاجر لا يردده عن شهوة لاسن ولا زوجة ولا أبناء . ولعلك علمت بأمر هذا الشاب الرقيق الذى يوافيه كل ليلة إلى القبوة ؟ ! . . هذه هي فضيحتنا الجديدة . . .

ولاحت في العينين الصافيتين سياء الكدر ، وأطرق متفكراً مقتما . اغتمم الرجل الذى عجز ألم الشكل المبرح عن أن ينال من صفاء نفسه ، ولبت صامتا ساكنا ، يتموذ قلبه من الشيطان وعبثه . واتخذت المرأة من حزنه مبرراً قويا لغضبها فاتفعلت ، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة .

— فضضنا الرجل المتهتك . ووالله لولا عشرة العمر ، والأبناء ، لهجرت بيته لغير رجعة أبداً . أيرضيك هذا العار ياسي السيد ؟ ! أيرضيك هذا السلوك الشائن ؟ ! لقد نصحتك فلم ينتصيح ، وأنذرتك فلم يرعو ، فلم أجد سبيلا إلّاك . وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة ، ولسكن لا حيلة لي ، وأنت سيد الخبيثين جميعاً . ورجله الفاضل ، وأمرك مطاع ، فلملك بالغ منه مالم يبلغه كلامي ولا كلام الناس جميعاً ، حتى إذا تبين لي أن نصحتك نفسه لا يجدي كان لي معه شأن آخر . أجل إني أداري اليوم غضبي ، ولسكني إذا يئست من صلاحه فسأشب النار في الزقاق جميعاً وأجعل من جسده النجس حطاماً لها

فخدجها السيد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف .

— أفرغني روعك يا ست أم حسين ، ووحدى الله ، ولا تغلبني الغضب على نفسك . أنت ست طيبة ! والسكل يشهد لك بالفضل ! فلا تجعل من نفسك وزوجك نادرة تلوكها الألسن . الزوجة الطيبة غطاء محكم يستر ما أمر الله به أن يستر ، عودي إلى دارك آمنة مطمئنة ، ودعي لي هذا الأمر ، والله المستعان . .

فقالت المرأة وهي تتمالك انفعالها .

— الله يكرمك ، الله يسعدك ، الله يشرف قدرك . أنت ياسيدي الملاذ والمأوى ، وسادع هذا الأمر بين يديك وانتظر ، وربنا بيني وبين هذا الرجل الفاجر . . .

وسكن الرجل خاطرهما بما وسعه من كلم طيب ، وكان كلما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانماالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفاً من فضائحهم ، حتى أوشك صبر الرجل أن ينفد ! ثم ودعها مكرمة وهو يتنهد من الأعماق ! . وماود جلسته متفكراً . كان يتمنى بلا شك لو لم يقحم في هذا الأمر ، أما وقد وقع المحذور فلا معدي عن انجاز وعده . ونادى خادمه ، وأمره أن يدعو إليه المعلم كرشة فمضى الغلام على عجل .

وانتظر ساكننا . وذكر أنه يدعو لحجرتة — لأول مرة — فاسقنا ! فلم يدخنا قبل ذلك إلا الفقهاء والصوفيون . وتنهى من الأعماق ثم قال لنفسه « إن من يهتدى فاسقنا خير ممن يجالس مؤمنا . » . ولما سكن هل يبلغ هداية الرجل حقاً ؟ . وهز رأسه الكبير واستشهد بقوله تعالى « إنك لا تهتدى من أحببت ولما سكن الله يهتدى من يشاء » . ومضى يتعجب من غواية الشيطان للإنسان ، وكيف يشذب به عن فطرة الله السوية . ثم قطع عليه حبل تأملاته دخول خادمه معلنا بحضور المعلم ، فأذن له ، ونهض لاستقباله ، وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل ، وألقى على السيد من تحت جفنيه الثقيلتين نظرة تجملة واحترام ، وانحنى على يده مسالماً . ورحب به السيد رضوان ، ودعاه للجلوس ، فجلس الرجل في المكان الذي كانت تجلس فيه زوجته قبل هنيئة وملاً له قدحا من الشاي . كان المعلم آمنا مطمئنا لا يتوجس خيفة ، ولا يدري شيئا عما دها السيد إلى استدعائه . والحق أن من بلغ مبلغه من الدهول والشرود خلى بأن يفقد كل قدرة على التوجس والحيلة والحس . وقد قرأ السيد في عينيه نصف الغمضتين الطمأنينة فقال له بهدوء مبتسما .

— شرفت دارنا يا معلم .

فرقع المعلم يديه إلى عمامته وقال :

— شرف الله قدرك يا سى السيد .

فقال السيد :

— لا تؤاخذنى على دعوتك فى أثناء عمالك ، فقد رأيت أن أحداثك

فى أمر هام كما يتجاذب الإخوان ، ولم أجد لذلك مكانا أنسب من البيت .

فأخى المعلم رأسه وقال : بأدب جم .

— إني طوع أمرك يا سى السيد . .

وخاف السيد الاسترسال فى المجاملات ، فيضيع الوقت سدى ، وتطول

مدة غياب المعلم عن عمله ، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردد ، ولم تكن

تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة ، فقال بلبهة جديّة .

— أحب أن أحدثك كما يتحدث الإخوان ، أو كما ينبغي أن يتحدث الإخوان إذا كان رائدكم المودة والإخلاص . والأخ المخلص من إذا رأى أخاه يهوى تلقاه بذراعيه ، أو وجده يتعثر أقاله من عثرته ، أو حسبه في حاجة إلى النصيح يحضه النصيحة . . .

وفتر حماس المعلم ، وأدرك في تلك اللحظة لحسب أنه وقع في فخ ، فلاح في عينيه المظلمتين نظرة ارتياب ، وتتم في ارتباك وهو لا يدري ماذا يقول .

— نطقت بالحق يا سي السيد . .

ولم يخف على السيد شيء من ارتباكه وارتيابه ، فقال بلبهة جديّة أيضاً لطفها نظرتة الوديمة الصافية .

— أخي . سأصارحك بما في نفسي فلا تؤاخذني على صراحة ، فما استحق الوجدة من كان هدفه الإصلاح وباعثه المودة والإخلاص . والحق يا أخي أنني رأيت في بعض سلوكك ما ساءني ، ومالا أعده خليفاً بك . . . وقطب المعلم كرشة منزعجاً ، وجمل يخاطب السيد في سره قائلاً « مالك أنت ولهذا ! » . ثم قال متصنعاً الدهشة .

— أساءك سلوكي حقاً يا سي السيد ؟ ! . . معاذ الله . .

ولم يعبأ السيد دهشته المتصنعة واستدرك قائلاً .

— إن الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلاية ويعيث فساداً ، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتح الأبواب ، ونلزمه أن يغلق أبوابه في وجه الشيطان ، فإذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة ؟ ! ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم ؟ ! . . . هذا ما ساءني يا معلم كرشة . . .

شباب شيوخ ! أبواب مفاتيح ! شيطان شياطين ! لماذا لا يريح نفسه

ويدع الناس يستريحوني ؟ ! . وهز رأسه حيرة ، ثم قال بصوت منخفض .
— لا أفهم شيئاً يا سيد رضوان . .

وحاجه السيد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخاو من عتاب .
— حقاً ؟ !

فضمهم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف .
— حقاً . .

فقال السيد رضوان بحزم .

— حسبتك تعلم ما أعنى . والحق أنى أعنى هذا الشاب الرقيق . .
وسدت المنافذ فى وجهه ، فاحتدم الغيظ فى نفسه ، ولكن كنهه كالفأر
الواقع فى المصيدة جعل يتمخبط وراء المنافذ المسدودة ، فتساءل بصوت ينم
عن الهزيمة .

— أى شاب ياسى السيد ؟

فقال السيد بلهجة ودیعة متحاميا لإثارته :

— أنت تعرفه يامعلم . وإنى لم افأتحك بأمره لأسىء إليك أو أخجلك ،
معاذ الله ، ولكن لأرشدك لما فيه الخير . مافائدة النكران ؟ ! الجميع يعرفون ،
والجميع يتكلمون ، وهذا لعمري ما آلمنى أشد الألم . آلمنى أن أجده
مضفة الأفواه . . .

فغلب المعلم الغضب ، وضرب نخذته بقبضة قاسية ، وقال بصوت أجش
تطایرت فظافته مع نثار ريقه .

— ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون ! أحقا تراهم يتكلمون ياسى
السيد ؟ هكذا هم أبداً منذ خلق الله الأرض ومن عليها . إنهم يخوضون فى
الأعراض لا لقبح يستقبحون ، ولكن ليتنقصوا إخوانهم . ولو لم يجدوا
نقيصة خلقوها خلقاً ثم خاضوا فيها . أتحسبهم يتهايمسون تأففاً وازدراء ؟

كلا والله . إنه الحسد يأكل قلوبهم أكلًا . . . !

وهال السيد هذا الرأى ، فقال له دهشا .

— ياله من رأى خاسر ! أتحسب أن هذا الفعل الشائن مما تحسد عليه ؟ !

فتم انف ضاحكا وقال بحقد

— لا تشك في قولي ياسيد رضوان ! إنهم طغمة هالكة ! وليس للخير من رجع في نفوسهم (وأدرك عند ذاك أنه سلم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدري من هذا الشاب ؟ إنه شاب مسكين أداري يؤسه بالإحسان !!

فضمجر السيد من مراوغته ، وحده به بنظرة كأنما يقول له « أيجوز هذا القول على ! » ثم قال ..

— يامعلم كرشة ، الغالب أنك لا تفهمنى . أنا لا أحاكمك ولا أعيرك ، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه . ولكن لا تحاول النكران . إذا كان هذا الشاب مسكينا فدعه لخالقه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحسانا ! — ولماذا لا يكون إحسانى لهذا الشاب ؟ يؤسفنى أنك لا تصدقنى ، وأنا رجل برىء .

ونظر السيد إلى الوجه المشرب بالسواد فى استياء مكتوم وقال بتؤدة — هذا شاب رقيق سىء السمعة ، ولقد أخطأت فى محاولة خداعى ، وكان الأخلق بك أن تقدر نصيحى ، وتواجهنى صادقا صريحا ..

وأدرك المعلم أن السيد قد استاء وإن لم يلح الاستياء فى وجهه ، فلاذ بالصمت كاظما غيظه ، وأخذ يفكر فى الانصراف . ولكن السيد استدرك قائلا ..

— إني أدعوك لما فيه صلاح بيتك ، ولست يائسا من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب إنه رجز من عمل الشيطان ، وتب إلى ربك إنه غفور رحيم . لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين ، ولكنك تربح كثيرا وتخسر فى بالوعة الرجز كثيرا ، وتبقى على الأيام فقيرا معدما . فإذا قلت ؟ !

وعدل المعلم عن المسكبرة بصفة نهائية ، وخاطب نفسه قائلا إنه حر يفعل

ما يشاء ، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسيني نفسه !
ولكنه لم يفكر لحظة واحدة في إغضاب السيد ولا تحديه ، فأطبق جفنيه
على عينيه المظلمتين ، وقال بصوت منكسر .

— هذا أمر الله !!

فلاح الانزعاج في الوجه الصبيح وقال بحدة .

— بل أمر الشيطان ! حرام عليك يا شيخ !

فغمض المعلم قائلاً . . .

— لا يأمر الله بالهدى !

— لا تطع الشيطان يهتك الله لما فيه صلاحك . أهجّر هذا الشاب ،
أودعني أصرفه بسلام . . .

فانزعج المعلم ، وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه ،
فقال بحزم .

— كلا ياسي السيد ، لا تفعل . . .

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء وقال بصوت ينم عن الأسى .

— أرايت كيف تؤثر الغواية على الهداية ؟ !

— ربنا الهادي ؟

وتولاه الياس من هدايته ، فقال متضجراً .

— أقول لك للمرة الأخيرة اهجّره أودعني أصرفه بسلام . . .

فقال المعلم بعناد وهو يترشح إلى طرف الكنبه كأنما يهم بالنهوض .

— كلا ياسي السيد . أضرع إليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر

الله بالهداية !

فتمعجب السيد من عناده الوقح وتساءل متقزراً .

— ألا يخرجك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن ؟ !

ونهمض المعلم قائماً وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه ، وهو يقول .

— إن الإنسان ليقارف أفعالا كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها ، فادع

لى بالهداية ، ولا تغضب على ، وتقبل عذرى وأسفى ، ماذا يملك الإنسان
من أمر نفسه ؟

فابتسم السيد ابتسامة حزينة وقال وهو ينهض قائماً كذلك .
— يملك كل شيء لو أراد ، ولسكنتك لن تفقه معنى لقولى ، فالأمر لله
ومد له يده قائلاً .

— مع السلامة . .

وخادر المعلم كرشة البيت مقطباً مدمماً ، يسب الناس والزقاق
والسيد رضوان . . .

١٢

وانتظرت أم حسين متصبرة متجادة يوماً ويومين . كانت تقف وراء
خصاص النافذة المطاة على القهوة تترقب مقدم الشاب ، فتراه قادماً يخطر ،
ثم تراه مرة أخرى — عند انتصاف الليل — وزوجها منصرفين صوب
الغورية ! ابيضت عيناها من المقت والغضب ، وتساءلت ترى هل ذهبت
نصيحة السيد رضوان هباءً ؟ ! وزارت السيد مرة أخرى ، فجز رأسه أسفاً
وقال لها « دعيه خالقه حتى يقضى أمراً كان مفعولاً » ، فرجعت إلى شقتها
تغلى غلياناً ، وتوعد شراً . لم تعد تقيم وزناً لشماتة الشامتين ، وانتظرت
بالنافذة حتى أتى الليل ، وقدم الشاب ، فتلفعت بملاءتها ، وغادرت الشقة
كالجنونة ، ونزلت السلالم وثباً فكانت أمام القهوة فى دقيقة واحدة .
كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق إلى القهوة كهادتهم كل ليلة .
وكان المعلم كرشة مكباً على صندوق المراكات فى شبه نهاس قلم يتنبه
لحضورها . واستقر بصرها الزائع على الشاب وهو يرشف الشاي من قدح
فى يده ، فاقتربت منه مارة أمام المعلم الذى لم يرفع بصره إليها ، وضربت
القدح بكفها فاندلق على حجر الشاب الذى قام فزطاً صارخاً ! وصاحت به
بصوت كالرعد .

— تشرب شايا يا ابن الماهرة !

وأحدثت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من أهل الزقاق أو من لا يعرفها من بقية الجالوس ، والتفت نحوها المعلم كرشة كأنه يستيقظ بصب دلو ماء على وجهه ، وهم بالوقوف ، ولكن المرأة دفعت في صدره ، وهي تصرخ في وجهه وقد أخرجها الغضب عن وعيها .

— إياك وأن تتحرك يا فاجر (والتفت نحو الشاب واستدركت) ماذا أفزعك يا شاطر ، يا صرة في ثياب رجل ، هلا أخبرتي عما يدعوك إلى الجنى ، هنا ؟ !

ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد ألجم الغضب لسانه ، وأربد وجهه ، ولكنها صاحت في وجهه :

— إن حدثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشت عظمك أمام الناس .
واندفعت نحو الشاب الذي تقهر حتى التصق بالشيخ درويش وهي تصيح :

— أريد أن تخرب بيتي يا رقيق يا ابن الرقماء !

فقال لها الشاب مرأعداً :

— من أنت يا ستي ؟ ما ذا فعلت حتى ...

— من أنا ؟ ألا تعرفني ؟ ... أنا ضرتك ...

وانتهالت عليه ضرباً ، فسقط طربوشه ، وسال الدم من أنفه ، ثم قبضت على ربطة رقبته وشدت عليها بعنف حتى اختنق صوته . وقد ذهل الجالوس ، وحملقوا فيما يقع أمامهم بأعين دهشة . ولكن قلوبهم رقصت جزلاً ، ومنوا أنفسهم برؤية منظر بهيج مأسا ، في حين أن دعا صراخ أم حسين المعلمة حسنية القراءة فجاءت مبرولة يتبعها زوجها جعدة فاغراً فاه ، ثم ظهر بعد قليل زبطة صانع الماشات ، ولكنه وقف بعيداً كأنه شيطان انشقت عنه الأرض ، ولم تلبث نوافذ البيت أن فتحت وأطلت منها الرؤوس تستطلع ما هنا لك . وأهاج الغضب المعلم كرشة ،

ورأى فتاه ينظرون متواوياً ، محاولاً عبثاً أن يخلص عنقه من قبضة المرأة القوية ، فاندفع نحوها ثائراً وهو يرغب زبداً كالبحول ، وشد على ساعدي امراته صائحاً في وجهها :

— اتركيه يا مرة وكفى فضيحة !

وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد سقطت ملاءتها عند قدميها ، فجئن جنونياً ، وتعالى صراخها ، وأمسكت بتلابيب المعلم وهي تصرخ :

— أتضربني يا فاجر دفاطعن رفيقك ! اشهدوا يا ناس على الرجل الفاجر ! وانتز الشاب فرصة إفلاته فتطير خارج القهوة ، وعدا لا يأوى على شيء . واستمرت المعركة بين المعلم وزوجه ، هي تشد على تلابيبه ، وهو يحاول دفعها والتخلص منها ، حتى نهض إليهما السيد رضوان الحسيني وخلص بينهما . وتلفعت المرأة بملاءتها وهي تلهث ، وصرخت بصوت كادت تتصدع له أركان القهوة :

— يا حشاش ، يا مذهول ، يا وسخ ، يا ابن السمين ، يا أبا الخمسة ، يوجد العشرين ، يا عرة ، يا رطل ، سيفخص على وجهك الأسود . . .

فخدجها المعلم بنظرة قاسية وهو ينتفض من الاقمال ، وصاح بها :

— لمى لسانك يا مرة ، وسدى هذا المرحاض الذى يمدفنا بوسخه !

— قطع لسانك . ما مرحاض إلا أنت ، يا خرع ، يا مفضوح ،

يا ظل العيال . . .

فلوح لها بقبضته وهو يقول :

— تخرفين كعادتك ، كيف سولت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة ؟

فضحكت المرأة ضحكة مروعة وقالت بسخرية مريرة :

— زبائن القهوة ؟ ! العفو ! ما قصدت زبائن القهوة بسوء ، ولكنى

اعتديت على زبون العلم الخصوصى !

وتدخل السيد رضوان مرة أخرى . وطلب إلى المرأة أن تمسك ، وأن
تعود إلى بيتها . ولكنهما قانت له وقد غيرت نبرات صوتها بحيد شديد :
— لن أعود إلى بيت الفاسق ما حييت . . .

فألح عليها ، وأطوع عم كامل لمعاونته ، فقال لها بصوته الرفيع الملائكي :
— عودي إلى بيتك يا ست أم حسين . عودي ووحدى الله واسمعى

كلام السيد رضوان . . .

وحال السيد بينها وبين مفارقة الزقاق . ولم يتركها حتى رجعت إلى البيت
منظرة السخط والتذمر . واختفى عند ذاك زبطة ، وانسحبت حسنية الفرائه
يسبقها زوجها . وقد لسكتته في ظهره وعى تقول له :

— لا تقمأ تنذب حظك وتقول مالى أضرب من دون الرجال جميعاً !
أرأيت كيف يضرب أسيادك وأسياد من خلفوك . . .

وخلفت جمجمة العركة صمتاً ثقيلاً . وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة
تشى بالخيب والسرور : وكان أشد الحاضرين سروراً وارتياحاً الدكتور
بوشى ، وهو الذى هز رأسه أسفاً وقال فى نبرات حزينة :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . اللهم أصلح الحال . . .

وكان المعلم كرشة لا يزال ملازماً مكانه . الذى باشر فيه العركة .
فتنبه إلى فرار فتاه . وقطب فى عناد . وبدأ منه أنه يريد اللحاق به .
ولسكن السيد رضوان . وكان غير بعيد عنه . وضع يده على كتفه
وقال له بهدوء :

— اقمدا يا معلم واسترح . . .

فنفخ مفيظاً محنتاً ، وتراجع متثاقلاً وهو يخاطب نفسه فى حقد شديد :
— لبؤة ، فاجرة ، ولكن الحق على : أنا أستاذ أهل أكثر من هذا ،

نفل من لا يبيت امرأته بالعصا . . .

وعلا صوت عم كامل وهو يقول :

— وحدوا الله يا هوه . . .

وارتجى المعلم كرشة على مقدمته : ثم أخذ القصب كرة أخرى ، فنارت
ثأثرته ، وراح يضرب جبهته بكف غليظة قاسية صاخداً :

— أنا في الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحى عرقى مجرماً يرتوى
بالدماء . أنا مجرم ، أنا ابن كاب ، أنا وحش ، ولست أكنى أستأهل كل إهانة
لأنى تبت بمحض إرادتى عن الشر (ورفع رأسه) انتظرنى يا صرة يا مسخة
ستلقين الليلة كرشة الزمان الأول . .

وصفق السيد رضوان يديه وهو يتربع على الأريكة وخاطب المعلم قائلاً :

— وحد الله يا معلم كرشة . نريد أن نشرب الشاي فى هدوء !
ومال البوشى على أذن عباس الحلو وهمس قائلاً :

— لا بد أن نصلح بينهم . .

فسأله الحلو بحميت :

— بين من ومن ؟

فكتم الدكتور غمكة فخرجت من أنفه ريحا كالنفخ ، وقال :

— أظننه يهود إلى القهوة وقد حصل ما حصل ؟

فقط الحلو بوزه وقال :

— إن لم يعد هو جاء غيره !

ثم شمل القهوة جوها المألوف ، وعاد القوم إلى ما كانوا فيه من لعب
وسمر ، وكادت تنسى المعركة وتذهب آثارها ، لولا أن حاج المعلم كرشة مرة
أخرى ، وصاح مرعداً كالوحوش الضارية :

— لا لا لا . . لا يمكن أن أذعن لإرادة مرة . أنا رجل ، حر ، أفعل
ما أشاء ، لترك البيت إذا شاءت ، ولتسكع مع الشحاظين ، أنا مجرم . . أنا
من آكلى لحوم البشر . . !

ورفع الشيخ درويش رأسه بغمة وقال دون أن يلتفت نحو المعلم :

— يا معلم ، امرأتك قوية ، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من

الرجال ، هى ذكر وليست بأنثى ، فلماذا لا تحبها ؟

وصوب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح في وجهه :
— اقطع لسانك !

وصاح أكثر من واحد من الجالسين :
— حتى الشيخ درويش !

وولاه المعلم ظهره صامتا . وراح الشيخ درويش يقول :
هذا شر قديم ، يسونه في الإنجليزية Homosexuality وتهجيتها
h o m o s e x u a l i t y ولكنه ليس بالحب . الحب الحقيقي لآل
اليوت . تعالى يا حبيبي . . تعالى يا ست . . أنا عاجز يا أم العواجز . .

١٣

كانت مقابلة الأزهر فتحا جديدا في حياة عباس الحلو . عبيد الحب .
شعلة وهاجة تضطرم في القواد : نشوة سحر تسكر العقل . شهوة تصهر
الأعصاب . كان مرطبا مختالا من هوا . كأنه فارس لا يشق له غبار ، أو ثعل
قد آمن عوادي الحمار . وتقابلا بعد ذلك مرات ، فلم يملا الحديث عن
مستقبلهما . أجل بات مستقبلهما واحدا . ولم تنكر حميدة ذلك . لا في
حضوره ولا في غيابه ! ولسكن تساؤلات : ترى هل تظهر واحدة من
صويحباتها بنات الشغل بخير منه . . . وتعمدت أن تسير معه وقت
ظهورهن ، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهن الفاحصة وكأنها ارتاحت إلى
ما تركه فيهن من أثر . وقد سألتها يوما عن الشاب « الذي رأيته معيا »
فقالت :

— خطيبي . . صاحب صالون حلاقة !

وقالت لنفسها إن أية واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة إذا خطبها صبي
قوة أو صبي حداد ، وهذا صاحب دكان ، أو سطى . وأفندي أيضا !
كانت مشغولة أيدا بالموازنة والاختبار والتفكير . فلم تنجذب إلى الدنيا

السحرية التي يهيم في سمائاتها . بيد أنه كان يبلغ بها التأثير في لحظات
منتباهه ، فكانها كانت — في تلك اللحظات — محبة حقا . وفي إحدى
هذه اللحظات استوهبها قبلة . فلم تقل لا ولم تقل نعم . أرادت أن تدرك
هذه القبلة التي سمت عنها كثيرا وتغنت بها كثيرا . ونظر هو محاذرا
يراقب المارة . وتحسس ثغرها في ظلمة المساء . ثم وضع شفتيه على شفتيها
وهو يرتعد . وغمرتها أنفاسه الملهمة ، فسالت إلى نحرها وطرفت عينها .
ثم دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة . واختار
الدكتور بوشى — الذي تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق — سفيرا له
لدى أم حميدة . وسرت المرأة بالشاب الذي تراه الصالح الوحيد لا يبتئها في
الزقاق . وكانت تعدد دائما « صاحب صالون وقد الدنيا » ولكنها خافت
شماس ابنتها التمردة . وظنت أنها مقبلة على معركة طاحنة . فما أدهشها
بعد ذلك إلا أن تتلقى الفتاة الخبر برضا وتسليم مما جعلها تهز رأسها وتقول :
— هذا فعل النافذة وراء ظهري !

وكلف الحلو عم كامل بصنع صينية بسبوسة فاخرة وإرسالها لأم حميدة ،
واستأذن في مقابلتها . ومضى إليها مسجوبا بعم كامل شريكه في بيته وحياته .
وقد وجد عم كامل صعوبة شديدة في ارتقاء السلم ، وجعل يتوقف كل
درجتين لاهثا متوكئا على الدرابزين ، حتى قال للحلو مداعبا عند
أول « بسطة » :

— هلا أجلب الخطبة حين عودتك من الجيش ؟

ورحبت بهما أم حميدة . وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات ،
حتى قال عم كامل :

— هذا عباس الحلو ابن زقاقنا . وابنك . وابنى ، يطلب إليك

يد حميدة . .

فابتسمت المرأة وقالت :

— أهلا بالحلو الذي هو حلو ، ستكون ابنتى عنده وكأنها لم تفارقنى . .

وتحدثت عم كامل عن الحلو وأخلاقه ، وعن الست أم حميدة وأخلاقها ، ثم قال :

— سينادونا الفتى فتح الله عليه ، وقريباً تتحسن حاله فيتم له ولنا المراد بإذنه تعالى . . .

ودعت أم حميدة له ، ثم داعبت عم كامل قائلة :
— وأنت يا عم كامل متى تنوى وتتوكل على الله ؟
فضحك عم كامل حتى صار وجهه كالطماطم في إبانها ، ومسح على كرشه المحيط وقال :

— دون ذلك هذا الحصن المنيع . . .
وقرءوا الفاتحة وشربوا الشرابات . . .
ثم كان بعد ذلك يومين اللقاء الأخير بالأزهر . سارا واجمين ، والحلو يشعر بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا إلى مجارى عينيه .
وقد سأله :

— هل تغيب طويلا ؟
فقال الشاب بصوت رقيق حزين :
— ربما امتدت خدمتي طاما أو طامين ولكن لن تفوتني فرصة مناسبة للحضور . . .

فمضت قائلة : وكانت تجد نحوه في تلك اللحظة وداعهما :

— ياله من زمن !
فابتسم قلبه — على أساء — لهذه المباراة التي تنم عن الجزع . وقال منفعلا :
— هذا آخر لقاء قبل السفر . والله وحده يدري متى سيكون اللقاء التالي . وإني لفي حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور . أجدني محزوناً لأنني مبتعد عنك ، ثم أجدني مسروراً لأن هذا الطريق الطويل الذي اخترت هو الطريق الوحيد المفضي إليك . ولكنني سأترك قلبي ورأى في الزقاق ، فتصوري رجلاً مهاجراً بلا قلب . رمى به السفر إلى بلد ناء وأبى قلبه أن

يسافر معه . وغداً في التل الكبير ، وعند مطلع كل صباح ، سأعتقد
النافذة المحبوبة التي كنت أراك تسكنين حاقماً ، أو تمشين شعرك وراء
فرجة مصراعها ، وهيات أن أجدها أثراً . ولقائنا في اللوسكي والأزهر
ماذا يبقى لي منه ؟ أو أه يا حميدة . هذا ما يتقطع له قلبي . دعيني آخذ منك
كل ما أستطيع أخذه ، ضعي راحتك في يدي . وشدي على يدي كما أشد
على يدك ، الله ما أطيب مسك ، إنه يرعش قلبي ، إني قاب كبير بين يديك ،
يا عزيزة ، يا حبيبة . ياروح قلبي يا حميدة . ما أجل السك ، كائي إذا نطقت
به أستحلب سكرًا . . .

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفق الحار ، فلانت نظرة عينيها ،
ونغممت قائلة :

— أنت الذي اخترت السفر . .

فقال بصوت كالنواح :

— أنت السبب يا حميدة . أنت أنت السبب . أنا والله أحب زفافنا ،
وأحمد الله على ما يرزقني به من كفاف ، وما أحب أن أنأى عن الحسين
الذي أقوم وأقعد باسمه . ولكني وأسفاه لا أستطيع أن أهيه لك الحياة
التي ترضيها ، فلم أجده عن السفر مذهباً ، وربنا يأخذ بيدي ، ويخيمنا
على أهنا حال . . .

فقلت حميدة بتأثر شديد :

— سأدعو لك بالتوفيق ، وسأزور سيدنا الحسين وأسأله أن يراك
ويكتب لك بالنجاح . والصبر طيب ، والحركة بركة . .

فتهد من الأعماق وقال :

— أجل الحركة بركة ، ولكن يا ويلي من بلد لا أجده لك فيه ظلاً . .

فغممت برفقة :

— لن تكون هكذا وحدك . .

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها ، ورفع يدها حتى مست قلبه ، وهمس :

— حقا ١٩ —

فأبتسمت ابتسامة عذبة لأحت لمعينيه الهائعتين على الضوء المنبعث من
بعض الدكاكين ، وغاب في تلك اللحظة عن كل شيء ما عدا وجهها المحبوب ،
وصالت هذه الكلمات من بين شفتيه :

— ما أجلك ، ما أرقك ، ما أعذبك . هذا هو الحب . إنه عذب جميل
يا حيدة . الدنيا من غيره لا تساوى مليا واحداً . .

ولم تدر ماذا تقول فتعوذت بالعصمت ، وجرت كلماته متناغمة في أذنيها ،
فأخذت تلهو لنشوة اللرب . وودت ألا يسكت أبداً . وكانت حرارة العاطفة
تدأ ذهلاته عن وعيه فراح يقول :

— هذا هو الحب : هو كل مالنا . فيه الكفاية وفوق الكفاية
هو في القرب السرور . وفي البعد العزاء . وفي الحياة حياة فوق الحياة . .
وسكنت لحظة متنهداً . ثم استطرد :

— أسافر باسمه : وبفضله أعود . وقد ربحت كثيراً . .

فتمتمت وعى لا تدرى :

— كثيراً إن شاء الله . .

— بإذن الله : ويبركة الحسين . وسوف يحسدك جميع أولئك الفتيات .

فأبتسمت في سرور قائلة :

— آه . . بما أمتع هذا !

وانطوى الطريق وهما لا يشعران . فضحكا معاً في فرح ، ثم دارا على
عقبيهما . وأحس في العودة أن اللقاء يقترب من نهايته ، فعاودته أفكار
الوداع والفراق : وخبت كثيراً نشوته . واعتوره الشجن . وعند انتصاف
الطريق سأطأ بلوفة :

— أين أودعك ؟

وأدركت ما يعنيه ، وقلقت شفتاها : فقالت متسائلة :

— هنا ؟ !

ولكنه اعترض قائلاً :

— لا أستطيع أن أخطف الوداع خلعاً . . .

— أين تريد إذا ؟

— اسبقيني على البيت وانتظرنى على السلم . . .

وحدث خطأها وسار هو متميلاً ، فبلغ الزقاق وقد أغلقت دكا كينه ،
والجبه نحو بيت الست سنية عنيق لا يلوى على شئ . وارتقى السلم محاذراً
في ظلمة دامسة ، كأنها ألقاسه . يداً على الدرابزين . وبدأ تنجس الظلام
وعند « البسطة » الثانية لمست أنامله طرف اللادة . تخفق قلبه باعثاً الشوق
الحبيس في أطرافه ، وقبض على ذراعها ، واقترب منها في رفق ، وأحاطها
بذراعيه ، ثم ضمها إلى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر خنون مشوق
وهوى إليها بفمه ، فوقع على أنفها ، ثم هبط على شفيتها ، وكانتا منفرجتين
لاستقباله . وأخذته سنية من ذهول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلصت
من ذراعيه بلطف ، ومضت مصعدة وهو يهمس وراءها « مع السلامة » .
لم يبلغ بها الانفعال يوماً ما بلغه هذا المساء على السلم . حيث في دقيقة قصيرة
حياة طويلة مضممة بالإحساس والعاطفة والحرارة . وحسبت أن حياتها قد
ارتبطت به إلى الأبد .

وزار عباس الحلو أم حميدة ، تلك الليلة ، مودعاً . ثم مضى إلى القهوة
ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره . وكان حسين
يبدو مسروراً ظاهراً لا تنصير رأيه ، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذي
نم عن التجدي لسبب ولغير ما سبب :

— ودع هذه الحياة القدرة واستمتع بالحياة الحقيقية . . .

فابتسم الحلو صامتاً ، وقد أخفى عن صاحبه الكتابة القابضة على قلبه
لفراق الزقاق الذي يحبه . والفتاة التي يهجم بها . وجلس بين رفاقه يعاني

أشواقه المكتومة ، وتتلقي كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدماء . وقد
بأركه السيد رضوان الحسيني . ودعا له طويلاً ، وقال له ناصحاً :

— اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتباتك ، واحذر الإسراف ، والحذر
ولحم الخنزير ، ولا تنس أنك من المدق ، وأنتك إلى المدق راجع . . .
وقال له الدكتور بوشى ضاحكاً :

— مستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين ، ولا بد عند ذاك من خلع
أسنانك المسوسة هذه وتركيب طقم ذهبي يليق بالمقام . . .

فابتسم الحلو ، وكان يشير نحو الدكتور بامتنان ، لأنه هو الذي أسفر
بينه وبين أم حميدة ، ولأنه هو أيضاً الذي باع له أدوات صالونه بثمن
لا بأس به كي ينتفع به في سفره ، وكان عم كامل واجماً ساهاً ، يحزن الفراق
الوشيك في فؤاده ، ولا يدرى كيف يلقى غداً الوحشة والوحدة ؛ بعد
أن يذهب الشاب الذي شاطره العيش أعواماً طويلة ، والذي أحبه كأنه
فلذة كبده . وكان كلما أتى أحد على الحلو أو توجه لفراقه أغرورقت عيناه
حتى ضحكوا منه جميعاً .

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آيات الكرسي وقال له :

— أصبحت الآن من المتطوعين في الجيوش البريطانية ، وإذا أظهرت
بسالة فليس بعيداً أن يقطعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصبك عليها
نائب ملك ، ومعناها بالإنجليزية Viceroy وتمجيتها . . . v i c e r o y

وفي الصباح الباكر فادر الحلو البيت حاملاً بقية ثيابه . كان الجو بارداً
شديد الرطوبة ، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلا الفرائد
وسنقر صبي القهوة ، ورفع الشاب رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدتها
مغلقة ، فودعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطل على خصاصها . وسار
متميلاً مطرقاً حتى بلغ باب دكانه فألقى عليها نظرة أخرى متنهداً ، وعلق

بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخط كبير « للإيجار » . فالتفت
صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا . . .
وحث خطاه كأنها ليفر من عواطفه . فما إن ترك الزقاق وراء ظهره
حتى شعر بأن قلبه يفارقه إليه . . .

١٤

كان حسين كرشة الذي أغرى عباس الحلو بالخدمة في الجيش البريطاني ،
ولما أن سافر الشاب إلى التل الكبير . وخلا منه الزقاق — حتى دكانه
اكثرها حلاق عجوز — جن حسين جنونا واجتاحت نورة عذبة تقور
مقتنا للزقاق وأهله . أجل كان من زمن بعيد يعان كراهيته للزقاق وأهله ،
و يتطلع لحياة جديدة ، ولكنه لم يستن سبيله . ولم يعزم عزيمة صادقة
على تحقيق أحلامه . حتى ذهب الحلو . فجن جنونه ، وكأنما كبر عليه
أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القذر ، وهو باق فيه لا يدري
كيف يتخلص منه ، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر .
وبملاحظته المعبودة قال لأمه يوما وقد امتلا بعزمه حتى فاض عنه :
— أصفى إلى ، لقد عزمت عزمًا لا رجعة فيه ، فبذه الحياة لا تطاق
ولا داعي مطلقا لتحملها قسرا !

وكانت المرأة آلفة سخطه ، معتمدة سماعه لآهله . وكانت
تراه — كأبيه — سفيها لا يصح أن تحفل بهذيانه ، فسكتت عنه وعن تشغيمه :
— اللهم تب على من هذه الحياة !

ولسكن حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين وأريد
وجهه الضارب للسواد :

— هذه الحياة لا تطاق ، ولن احتملها بعد اليوم . . .
ولم يكن في وسعها أن تلزم الصمت طويلا حيال هياج أحد ، فتند

صبرها الرقيق ، وصاحت به بصوت دل على أن صوته متوارث عنها :

— مالك ؟ ! مالك يا ابن اللئيم !

فقال الشاب بازدراء :

— لأبد من هجر هذا الزقاق !

فحدجته بحنق ، واتهمته قائلة :

— أجننت يا ابن المجنون !

فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— بل ثبت إلى رشدى بعد جنونى طويل . افهمين جيداً ، فلست ألقى

القول على عواهنه ، ولكنى أعنى ما أقول ، ولقد جمعت ثيابى فى البقعة

ولم يبق إلا أن أستودعك الله . بيت قدر ، زقاق تن ، أناس بهائم !

وحدجته بنظرة متفحصة لتقرأ عينيه ، فقبلوا عزمه التوثب وصاحت به :

— ماذا تقول ؟

فعاد يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— بيت قدر ، زقاق تن ، أناس بهائم . .

فهزت رأسها ساخرة وقالت :

— مرحباً بك يا بن الأماثل ! يا بن كرشة باشا !

— كرشة قطران . كرشة المشبوه . أف أف ، ألم تعلمى بأن فضيحتنا :

زكت الأنوف جميعاً ؟ ! . . يغمزونى فى كل مكان . يقولون هربت أخته

مع واحد ، وسيهرب أبوه مع واحد آخر !

وضرب الأرض بقدمه حتى طغلق زجاج النافذة وصرخ فاضباً :

— ماذا يضطرنى إلى البقاء فى هذه الحياة ؟ سأحمل ثيابى وأذهب إلى

غير رجعة !

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— جننت والله . أورك الحشاش جنونه . ولكنى سأدعوه ليردك

إلى عقلك !

فصاح حسين باستهانة :

... ادعيه . نادى أبى ، نادى الحسين نفسه . أنا ذاهب . . ذاهب . . .
 ذاهب . .

ولما وجدته المرأة جاداً معانداً . ذهبت إلى حجرته فرأت البقجة
 منتفخة بالثياب كما قال . فتولاها القنوط . وهمت على إحضار أبيه مهما
 تسكن العواقب . كان حسين عزاءها الوحيد في حياتها . ولم تكن تتصور
 أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة . وكانت إلى ذلك ترجو . أن تستبقه
 حتى بعد زواجه حين يتزوج ، فلم تستطع مغالبة قنوطها . وأرسلت في
 طلب أبيه وهي تصيح نادبة حظها « علام يحسدوننا ؟ . . . على خيبتنا
 القوية ! . . . على فضائحنا ! . . . على شقائنا ! » . وجاء المعلم كرشة بعد قليل
 مكشراً عن أنيابه ، وانتهرها قائلاً :

— ماذا تريدن ؟ فضيحة جديدة ؟ زبون جديد رأيتنى أقدم له الشاى !
 فقالت المرأة ملوحة يدها كالنادبة :

— فضيحة ابنك ! أدركه قبل أن يهجرنا ، فقد ضاق بنا ذرعاً !
 فضرب المعلم كفّاً بكف وقال وهو يهز رأسه مغيظاً مهنقاً :
 — أمن أجل هذا أترك عملى يا هوه ! . . أمن أجل هذا أضيع مائة
 درجة ؟ أه يا أولاد الكلب . لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم ؟ !
 وجعل يردد بصره بين الأم وابنها واستطرد قائلاً :

— ربنا ابتلانى بكما ليقتص منى . ما هذا الذى تقوله أمك ؟
 ولزم حسين الصمت . وراحت أمه تقول بهدوء ماوسعها الصبر :
 — هدى . روعك يا معلم ، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لفضبك .
 لقد جمع ثيابه فى بقعته ، ونوى مغادرتنا . .
 فسدد نحوه نظرة حقد وغضب ، وهو بين مصدق ومكذب ،
 وقال كالمسائل :

— جننت يا بن القديمة !

وكانت أعصاب المرأة متوترة فلم تملك أن صاحت به :

— دعوتك لتفعله لا تشتتني . .

فالتفت نحوها خاضباً وهو يقول :

— لولا جنونك الموروث لما شب ابنك مجنوناً . . .

— الله يسامحك . أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا : واسأله

عما خالط عقله ؟ !

وحدث ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تنثر ريقه :

— مالك لا تتكلم يا بن القديعة ! هل تروم حقاً مفادرتنا ؟

وكان الفتى يتحاشى إياه مادة ، ولا يصطدم به إلا إذا ضاقت به السبل ،
ولسكنه كان قد عزم عزمًا صادقاً على نبذ ماضيه مهما كلفه الأمر ، فلم
يتردد ، ولم يتراجع ، خصوصاً وأنه كان يرى أن مسألة إقامته في البيت
أو مفادرتة من صميم حقه الذي لا ينازعه فيه منازع : فقال بهدوء
وعزم معاً :

— نعم يا أبي . . !

فسأله الرجل وهو يعاني خناق غيظه :

— ولماذا ؟

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال :

— أريد أن أحيا حياة أخرى . . .

فقبض الرجل على ذقنه ، وهز رأسه ساخراً ، وقال :

— فهمت . . فهمت . تريد حياة أخرى تناسب المقام ! لأن كلباً مثلك

نفساً محروماً جائعاً ، يحن إذا امتلأ جيبه . وأنت الآن صاحب قرش
انجليزى ، فمن الطبيعي أن ترتاد حياة أخرى ، تليق بمقامك العالي
يا قنصل الأوز !

فكظم حسين غيظه وقال :

— لم أكن كلباً جائعاً قط ، لأنى نشأت في بيتك ، وبيتك لم يعرف

الجوع أبداً والحمد لله ، وكل ما في الأمر أني أريد أن أغير حياتي .
وهذا حق لا مرأى فيه ، ولا داعي مطلقاً لنفسيك وسخطك !

ولم يفهم المعلم مراده . كان الشاب يتمتع بحرية مطلقة . فلا يسأل
عما يفعل . فلماذا يريد أن ينشئ لنفسه بيتاً خاصاً ؟ . وكان المعلم ، على
رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام ، يحبه . ولكنه
حب لم يظفر قط بالجو الذي يستطيع أن يتنفس فيه ، وغشيته دائماً
عواشي الغيظ والحزن والسباب ، ولطالما نسي كثيراً أنه يحب ابنه
الوحيد . وحتى في هذه الساعة والفتى ينزرد به جره غاب حبه وإشفاقه
تحت ستار الغضب والحزن . وتمثل له الأمر تمديداً وعراكاً . ولذلك
سأله في تهكم مر :

— تقودك في جيبيك ، تنفثها كما تشاء وينعم بها الخمارون والحشاشون
والقوادون ، هل سألتك مليماً ؟ .

— أبداً . . أبداً . أنا لا أشكو هذا مطلقاً .

فتساءل المعلم بنفس الالهجة المرة :

— أمك الجشمة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلا التراب ، هل أخذت
منك مليماً ؟ .

فقطب حسين ضجراً وقال :

— قلت إنى لا أشكو هذا . كل ما في الأمر أني أريد حياة غير هذه
الحياة . إن كثيرين من زملائي يقطنون في بيوت فيها الكهرباء ! .

— الكهرباء !! أمن أجل الكهرباء تترك بيتك ؟ . . الحمد لله على
أن أمك بفضائلها قد جعلت بيتنا أحسن من الكهرباء . . .

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة :

— مظلومة والله يا ربى ظلم الحسن والحسين . .

واستدرك حسين قائلاً :

— إن زملائي جميعاً يحيمون حياة جديدة ، وقد اتقلبوا جميعاً جنتلمان
كما يقول الإنجليز .

فقهر المعلم فاه ، فافترجت شفتاه العليطنان عن أسنانه الذهبية وقال :
— ماذا تقول ؟ .

فلزم الفتى الصمت مقطباً ، واستدرك المعلم :

— جامان ؟ ! . ما هذا صنف حشيش جديد ؟ !

فقال حسين متندماً :

— أغنى رجلاً نظيفاً . . .

— ولكنك وسخ ، فكيف تريد أن تكون نظيفاً . . يا جامان ! .
وضاق حسين بتركب أبيه فقال منهعلاً :

— أبي ، أريد أن أحيا حياة جديدة ، هذا كل ما هنالك ، وسأ تزوج
من بنت ناس ! .

— بنت جامان ! .

— بنت ناس طيبين .

— ولماذا لا تزوج بنت كلب كما فعل أبوك ؟ ! .

فتأوهت أم حسين قائلة :

— الله يرحمك يا أبي كنت فقيراً وقوراً .

فالتفت نحوها بوجه المربد وقال :

— فقيه ! . . كان قارئ قبور ، يتلو السورة يلمين ! .

فقالت المرأة متوجمة :

— كان يحفظ كلام الله وكفى ...

وتحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع ،
وسأله بصوت مخيف :

— حسبننا كلاماً ، فليس لدى من وقت أضيعة بين مجانين . أتريد حقاً
أن تترك هذا البيت ؟ ! .

فلم حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب :

— نعم .

فأدام المعلم النظر إليه ملياً ، ثم ثارت نائرتة بشتة ، فضربه براحتيه على وجهه . ولم يستطع الفتى أن يتفادى الضربة العنيفة فتلقاها بحنق جنوني ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح :

— لا تضربني ، لا تمسني ، لن تراني بعد اليوم .

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القالطة ، وتلفت لكتاته على صدرها ووجهها ، حتى كف الرجل وهو يصرخ :

— أغرب غنى بوجهك الأسود ! ولا تمد أبدأ . سأفرض أنك مت واندلقت في الجحيم .

وجرى الفتى إلى حجرته ، وتناول البقجة ، ونزل السلم وثباً ، وقطع الزقاق لا يلوى على شيء ، وقبل أن يعدل إلى الصناديق بصق عليه ، وهتف بصوت مرتعش من الحنق :

— غر . . انجحر ، لعنة الله عليك وعلى أهلك .

١٥

سمعت الست سنية عفيفي طرقة على الباب ، ففتحته ، فرأت — في فرح لا يوصف — وجه أم حميدة يطالها بصفتها المجدورة ، وهتفت من الأعماق :

— أهلاً وسهلاً بالحبيبة .

وتعانقتا عناقاً حاراً — أو هكذا بدا على الأقل — وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهي تأمر الخادم بصنع القهوة ، وجلستا على كنبه متلاصقتين ، واستخرجت من علبة سيجارتين ، وجعلتا تدخنان في انبساط وسرور . وكانت الست سنية تسكبد آلام الترقب والانتظار مذوعدت أم حميدة بالبحث لها عن زوج . ومن عجب أنها صبرت على العزوبة أعواماً طوالاً

ولكنها لم تستطع مع فترة الانتظار — على قصرها — صبرا ، واعتادت في هذه الفترة أن تتردد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل ، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء ، وما انفكت تعدها وتمنيها ، حتى أيقنت ألاست سنية أن المرأة تسرف وتماطل حتى تظفر منها بأكبر نفق مرجو . ومع ذلك كانت معها جواذة كريمة ، فأعفتها من دفع إيجار الشقة ، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيوسين ، ونصيدها من الأقمشة الشعبية ، غير صيدية بسبوسة كانت عم كامل بصنعها لها . ثم آذنتها المرأة بخطبة عباس الحلولا ببتها حميدة ! وتظاهرت الست سنية بالسرور ، ولكن الخبر وقع من نفسها موقعا مقلما ، أو تساءلت ترى هل تضطر إلى المساهمة في تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهز نفسها ؟ ! هكذا تنازعها الخوف من أم حميدة والتردد إليها طوال فترة الانتظار . وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عما عسى أن تتممض عنه زيارتها هذه : وعرد وأمانى كالعادة أم البشرية التي يتلف قلبها عليها ؟ ! وراحت تدارى اضطرابها بشجون الحديث ، فكانت — على غير المألوف — المحدثه وأم حميدة المنصتة . تكلمت عن فضيحة المعلم كرشة ، ومغادرة ابنه حسين لبيته ، وانتقدت أم حسين في تصرفاتها الفاضحة التي تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذ ، ثم تدرج الحديث إلى عباس الحلولا ، فأثنت عليه قائلة :

— أنعم به من شاب طيب . سيفتح الله عليه ويرزقه ، ويمكنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التي تستأهل كل خير .
وابتسمت أم حميدة عند ذلك وقالت :

— الشيء بالشيء يذكر . اعلمى أنى حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس !
وخفق فؤادها بعنف . وذكرت كيف حدثها قلبها بأن زيارة اليوم خطيرة ، وبأن المرأة تطوى صدرها على مر تضيئ به إلى حين . وتورد

وجيهاً ، وجرى في عوده الذابل ماء شباب ، ولكنها تعالكت نفسها
وقالت في حياء مصطنع :

— واخجلتاه ! ماذا تقولين يا ست أم حميدة !

فقالت المرأة وقد افتر ثفرها عن ابتسامة ظفر وارتياح :

— أقول إني حاضرة لأخطبك يا ست الناس !

— حقاً ! يا له من أمر خطير ! أجل أذكر ما تم الاتفاق عليه ، ولكن

لا يسعني إلا أن أضطرب ، وأن أخجل أيضاً ، واخجلتاه !

جارتها أم حميدة في تمثيلها وقالت محتجة :

— حاشا لله أن تخجلى لغير ما عيب أو تقيصة ، ولكنك تتزوجين

على شرع الله وسنة الرسول . . .

فتمهدت الست سنية ، تنهد من يدفع إلى التسليم على غير إرادته ، وقد

رن قول الأخرى لها « ستتزوجين » رنيناً حلواً محبوباً في أذنيها . أما

أم حميدة فقد أخذت نفسها طويلاً من سيجارتها ، وهزت رأسها هزة

الثقة والاطمئنان وقالت :

— موظف . . .

ودهشت الست سنية ، ونظرت إلى محدثها بعينين لا تكادان تصدقان .

موظف ! ! إن الموظف فاكهة محرمة على رفاق المدق ! وتساءلت قائلة :

— موظف ؟

— أي نعم موظف !

— في الحكومة ؟

— في الحكومة !

وسكتت أم حميدة هنيئة لتستمتع بظفرها ، ثم استعادت :

— في الحكومة ، وفي قسم بوليس بالذات . . .

فازداد عجب الست وقالت متسائلة :

— وماذا يوجد في القسم غير الضباط والعساكر ؟ !

فرمقتها المرأة بنظرة حارفة الجاهل وقالت :
— يوجد موظفون أيضاً . اسأليني أنا . أنا أعرف الحكومة والوظائف
والدرجات والعلاوات . هذه مهنتي يا ست !

فقالت الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا يصدق :
— هو أفندي إذاً !!

— أفندي بستره وبنطالون وطربوش وحذاء !
— الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة .
— إني أختار الطيب للطيب ، وأعرف لكل إنسان قدره . ولو كان
في أقل من الدرجة التاسعة ما وقع اختياري عليه . . .
فتمتمت الست سنية متسائلة :
— الدرجة التاسعة ؟

— الحكومة درجات . ولكل موظف درجة . والتاسعة إحدى
هذه الدرجات . ولكنها درجة ولا كل الدرجات يا حبيبتى !
فقالت الست وعيناها تتألقان سروراً :
— دمت من صديقة شعبة عزيزة !

فاستدركت أم حميدة تقول بسوتها الواشى بالظفر والثقة :
— يجلس إلى مكتب كبير ، تتكئدس عليه الملفات والأوراق المستقفة ،
والقهوة داخلة خارجة ، هذا يرجوه وهذا يسأله ، وهو ينهر هذا ويشتم
ذاك ، المسا كر تحبيه ، والضباط تحترمه . . .
فابتسمت الست سنية : ولاحظت في عينيها نظرة أحلام . وواصلت
أم حميدة الحديث قائلة :

— مرتبة عشرة جنيهات لا تنقص مايلها . . .
وصدقتها الست سنية فتمتمت قائلة :

— عشرة جنيهات !

فقالت المرأة ببساطة :

— هذا قليل من كثير ، وما مرتب الموثلف إلا بعض رزقه ، وبالحدق
والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه ، ولا تنسى علاوة الغلاء ، وعلاوة
الزواج ، ثم علاوة الأطفال . . .

فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت :

— سامحك الله يا ست أم حميدة ، مالي أنا والأطفال ؟ !

— ربك قادر على كل شيء . . .

— نحمده ونشكر فضله على أى حال .

— أما عمره فتلاثون عاماً . .

فضاحت الست فى إنكار :

— رباه ! أ كبره بعشرة أعوام !

ولم يخف على المرأة أنها تناست عشرة أعوام من عمرها ، ولكنها قالت
فى لهجة تنم عن العتاب .

— لا زلت شابة يا ست سنية ! ومع ذلك فقد صارحته بأنك فى
الأربعين ووافق مسروراً . .

— أرضى حقاً ؟ . . ما اسمك ؟

— أحمد أفندى طلبة . من أهل انخرنقش ، وابن الحاج طلبة عيسى
صاحب المقلة بأم الغلام . ، أسرة طيبة شريفة تفجدر من صلب
سيدنا الحسين . .

— أسرة طيبة حقاً . وأنا شريفة أيضاً كما تعلمين يا ست أم حميدة . .

— أعلم هذا يا حميتى . وهو لا يتحرى إلا الأخلاق الطيبة ، ولولا

هنا لتزوج من عيب طويل ، ولكنه يزدري بنات اليوم وينقم عليهن
قلة الحياء . ولما أن حدثته عن أخلاقك واحتشامك ، وقلت له إنك سيدة

شريفة وصاحبة قرش ، سر مسروراً لا مزيد عليه ، وقال لى هذه طلبتى ،

بيد أنه سألنى شيئاً واحداً لا يخرج عن حدود الأدب ، وهو أن

يرى صورتك !

فتورد الوجه النحيل ، وقالت بإشفاق :

— والله ما صورت منذ أمد بعيد . .

— أليس لديك صورة قديمة ؟

فاومأت الست إلى صورة على منضدة وسط الحجرة دون أن تنبش بكلمة ، فانحنت المرأة قليلا وتناولتها بيدها ونظرت فيها متفحصة . كانت صورة يرجع تاريخها إلى ما قبل ستة أعوام ، وكانت صاحبها وقتذاك على شيء من الامتلاء والحياة ، فرددت المرأة يصرها بين الصورة والأصل ، ثم قالت جازمة :

— طبق الأصل ، كأنها صورت بالأمس القريب . .

فتهدج صوت المرأة وهي تقول :

— الله يحلى دنياك . .

وأودعت جيها الصورة بإطارها ، وأشعلت سيجارة أخرى قدمت لها ، ثم قالت بلهجة رزينة :

— ولقد تحدثنا طويلا فعرفت أمورا عما في مرجوه . . .

ولحظتها الست بنظرة حذرة لأول مرة ، وانتظرت أن تواصل حديثها

فلما أن طال الصمت : سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة :

— ترى ماذا في مرجوه ؟

أتجمل حقاً أم تفننه يريد الزواج منها حباً في سواد عينيها ؟ واغتاضت

المرأة قليلا ، بيد أنها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلا :

— أظن ليس لديك مانع من إعداد جيتارك بنفسك . . .

وفهمت الست سنية المقصود لأول وهلة ، فالرجل لا يريد أن يدفع

صدافا ، ويرغب ولا شك أن يترك لها وحدها عبء الجيتار ، ولم يكن ذلك

ليغيب عنها من أول الأمر ، منذ تملكها الرغبة في الزواج . وسبق أن

لمحت أم حميدة إلى هذا في ثنايا أحاديثها فلم تفكر قط في الاعتراض عليها .

فقالت بلهجة تتم عن التسليم :

— ربنا العين .

فابتسمت أم حميدة وقالت :

— نسأل الله التوفيق والسعادة . . .

ونهضت المرأة تريد الانصراف ، فتعانقتا عناقاً حاراً ، وسارت الست في توديعها حتى الباب الخارجى ، ووقفت مرتفة الدرازين وأم حميدة تنزل السلم إلى شقتها ، وقبل أن تغيب عن ناظرها هتفت بها :

— مع ألف سلامة . قبل عني حميدة . .

ثم طادت إلى حجرتها بقلب قى ، ابتعت حرارته الأمل الجديد . وجلست تستعيد ما قالت أم حميدة جملة جملة وكلمة كلمة . كانت الست سنية على شيء من الحرص ولكن ليس الحرص الذى يقف عثرة في سبيل سعادتها . أجل فطالما آتس المال وحدثها ، سواء ذاك الذى تحفظه في صندوق التوفير أو هذا الذى تقملاه رزماً جديدة بديعة في صندوقها الماچى ، ولكن لا هذا ولا ذاك بمن عن الرجل الخطير الذى سيصبح بإذن الله بعلاها . ولكن هل تعجبه الصورة ؟ وتورد وجهها حتى أحست بحرارة دمها تلمع جبينها . وانهضت إلى المرأة تعين صورتها ، وجعلت تحرك وجهها يمنة ويسرة حتى ترى لعينها أحسن الأوضاع فثبتته عليه ، وأنعمت في الصورة النظر ، ولاح في وجهها شيء من الرضا . ونغممت برجاء « ربنا يستر » . ثم طادت إلى جالسها وهي تقول « المال يغطى العيوب » ألم تقل له المرأة إنها صاحبة قرش ؟ ! وإنما كذلك . وليست الخمسون بسن اليأس ؛ فلا يزال أمامها عشرة أعوام ، وكم من امرأة في الستين تستطيع أن تتمتع بالسعادة إذا كفهاها الله شر الأمراض . والزواج كفيل برى العود الذابل ، وبست الجسد الخامل . هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتى اعترض تيارها الصافى زبد متلبد ، ققطبت فجأة ، وتساءلت مفيضة ترى ماذا يقول الناس غداً ؟ آه ، إنها تعرفهم حق المعرفة ، وستكون أم حميدة نفسها في طليعة المتقولين . سيقولون لقد جنت الست سنية ، ويقولون امرأة في الخمسين

تزوج من ابن لها في الثلاثين ، وسوف يتحدثون طويلا عن المال الذي يصلح ما أفسد الدهر ، وربما قالوا غير هذا وذاك كثيرا مما لا يخطر لها ببال ، فليقولوا ماشاء لهم القول ، وهل كانوا أعتقوها من شر ألسنتهم وهي أرملة ؟ ! وهزت الست كتفيها استهانة ، ثم دعت ربيها من الأعماق قائلة :
— اللهم احفظني من شر العين . .

ثم خطر لها خاطر سرطان ما رحبت به ، وصدقت نيتها على تنفيذه . وهو أن تذهب إلى الشيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع ، وتستوهد بها بعض الرقي ، فلما أحوجها في حالتها هذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع . .

١٦

— ماذا أرى ؟ ! إنك لرجل وقور . . .

قال زليطة ذلك وهو يقفرس وجه رجل عجوز منتصب القامة ، يمثل بين يديه في خضوع واستكانة . . كان رث الجلباب ، نحيل الجسد ، ولكننه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات ، كبير الرأس أبيض الشعر ، مستطيل الوجه ، له عيناان هادئتان خاشعتان ، كأنه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش المتعاضدين . وراح زليطة يتفحصه بدهشة وأناة على ضوء الصباح الخافت ، ثم طأ يقول :
— إنك لرجل وقور ، أترغب في امتحان الشجادة حقا ؟ !

فقال الرجل بصوت هادئ الذبارات :

— أنا شجاع بالفعل ولكنني غير موفق . . .

فتمنح زليطة . ولبصق على الأرض ، ومسح شفقيه بكم جلبابه الأسود ، وقال :

— إنك أرق من أن تتحمل أي ضغط شديد على أعضائك . والحق

أنه لا يصح التقدم لاتخاذ هاهنا كاذبة بعد العشرين ، فالهاهنا الكاذبة والصادقة سواء فيما تقتضيه من عناء ! وكذا كان العظم طريا ضمن الشحاذ هاهنا في حكم المستديعة حقا . وأنت شيخ كبير على عتبة القضاء فما عسى أن أصنع بك ؟

ومضى يفكر . وكان إذا اعتراه الفكر فخر فاه وأرعرش لسانه فلاح في فاه كرأس الأفعى . ثم ومضت عيناه البراقتان بغتة وصاح :
— الوقار أنفس هاهنا !

فسأله الرجل متحيراً :

— ماذا تعنى يا أستاذ ؟ !

فأنكفأ وجهه زليطة غضبا وصاح به محتداً :

— أستاذ ؟ ! .. أسمعنى أقرأ على القبور ؟

فدهم غضبه الرجل ، وبسط راحتيه مستعظما وقال بصوت منكسر :

— معاذ الله . . . ما قصدت إلا تهجيلك . . .

فبصق زليطة مرتين وقال منفصلا في زهو وعجب :

— إن عملى ليعجز أعظم أطباء البلد لو حاولوه . ألا تعلم أن إحداث

هاهنا كاذبة أشق من إحداث هاهنا حقيقيه ألف مرة ؟ .. إن هاهنا حقيقية

لا تقتضى أكثر من أن أبصق على وجهك . . .

فقال الرجل بأدب جم :

— لا تؤاخذنى ياسيدى ، إن الله غفور رحيم . . .

وسكت الغضيب عن زليطة ، وحذج الرجل بنظرة حادة ، ثم قال بصوت

لم تسمع منه بعض آثار الحدة :

— قلت إن الوقار أنفس هاهنا . . .

— كيف ياسيدى ؟ !

— الوقار كنفيل بأن يكتب لك النجاح كشحاذ نادر المثال . . .

— الوقار ياسيدى ؟ !

فقد زبطة يده إلى كوز على الرف ، واستخرج منه نصف سيجارة ، ثم
أطاعه إلى موضعه ، وأشعلها من فوهة زباجة الصباح ، وأخذ نفساً طويلاً
وهو يضيق عينيه البراقتين ، وقال بهدوء :

— ليست المعاهة بمطلبك . بل أنت في حاجة إلى مزيد من التحسين
والتجميل . اغسل جلبابك جيداً ، واحصل بأية طريقة على طربوش
نصف عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه في خشوع وأدب ، واقترُب في
إشفاق من رواد المقاهي ، ثم قف في حياء . ومد يدك في تألم دون أن
تنبس بكلمة . تكلم بعينيك ، ألا تعرف لغة الأعين ؟ . . . ستصدق فيك
الميرني بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا
من أولئك الشحاذين المحترفين . أفبمت الآن ما أريد ؟ سترجى بوقارك
أضعاف ما يربحه الآخرون بمعاهاتهم . . .

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد . ووقف يراقبه مدخناً سيجارته
وتفكر قليلاً ثم قال مقتضباً :

— ربما سولت لك نفسك أن تأكل أجرى بحجة أني لم أصنع لك
عاهة تستحق الأجر ، وأنت حر تفعل ما تشاء ، على شرط أن تولي وجهك
وجهة غير حي الحسين العامر . . .

فتموذ الرجل في إنكار وقال متألماً :

— طاشاي أن اخون صاحب الفضل على . . .

وانتهت المقابلة عند ذلك ، فسار زبطة بين يدي الرجل ليدله على الطريق ،
ووصله حتى الباب الخارجى للفرن . وفي أثناء عودته لاحظ أن المعاهة
حسنية متربعة على حصيرة بخمردها ، وليس لجعنة من أثر ، وكان من عادته
إذا التقى بها أن يخلق سبباً لمبادلتها كلمة أو كلمتين ، توذداً إليها ، وإفصاحاً
عن إعجابه السكين . فقال لها :

— أرايت هذا الرجل ؟

فقالت المعاهة حسنية بغير مبالاة :

— طالب طاهة ، أليس كذلك ؟

ففضحك زليخة وراح يقص عليها قصته ، والمرأة تضحك وتلمنه على شيلنته . ثم اتجه نحو الباب الخشبي القصير الذي يؤدي إلى مأواه ، وتردد على عتبة لحظة ، ثم سأها :

— أين جمعة ؟

فأجابته المرأة :

— في الحمام . . .

وظن الرجل لأول وهلة أنها تسخر منه لقذارته المعروفة ، فرمقها بخنور ولسكنه وجدها جادة ، فأدرك أن جمعة قد ذهب حقا إلى حمام الجمالية ، وهو ما يفعله مرتين في العام ، وأنه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب ، فحدثته نفسه بأن يجالس العامة قليلا ، متشجعا بما أثارته قصته فيها من سرور . وجلس على عتبة بابه مستنداً إلى مصراع الباب ماداً ساقيه كعمودين رقيقين من الفحم ، غير مبالٍ بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتهما في عينيها . وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية أهل الزقاق ، غير كلمات يتبادلانهما في ذهابه أو إيباه ، بوصفها مالكة مأواه . ولم تكن تشاك في أن علاقته بها تنقطع عند هذا الحد ، ولم يدر لها بخلد أنه يطلع على الكثير من دسائل حياتها ودقائقها . ولكن مخاوفاً كزليخة لا يعدم أن يجد منفذاً في الجدار بينه وبين القرن يطلع منه على ما يروى غلته المتطفلة ، وأحلامه البهيمية . فصار وكأنه واحد من هذه الأسرة ، يشهد عملها وواحتها ، ويلذه بوجه خاص أن يرى المعلمة وهي تسكيل الضرب لبعليها لأقل هفوة . وما أكثر هفوات جمعة التي يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم ، حتى بات الضرب من غذائه اليومي ، يتلقاه تارة في تصبر وتجلد ، وتارة في بكاء وصراخ وعواء . وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرخفة في أثناء خبزها ، أو يسرق البعض الآخر ليلتهمه خفية فيما بين الوجبات ، أو يتنازع بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذي يحصله من البيوت :

ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوماً بعد يوم ، دون توفيق في طمس معالمها ، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة . وكان زليطة يعجب لمنوع الرجل وجبنه وعثره . وأعجب من هذا أنه — زليطة — كان يستقبحه ويهزأ بصورته ! كان جمدة طويل القامة لحد مقرط ، طويل الذراعين ، ممطوط الفك الأسفل ، غائر العينين ، غليظ الشفتين . ولطالما حقد عليه زليطة تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التي يرمقها بعين الإعجاب والرغبة ، ولذلك مقتته واحتقره . وتغنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع المعجين والصواني . ولذلك أيضاً سره أن يجد في غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلاً ، يجلس ومد ساقيه ، غير مبالٍ بما يحدثه جالوسه من دهشة وإنكار . ولم تتردد المعلمة حسنية بجرأتها المعهودة أن سألته بحفاء بصوت غليظ :

— مالك جلست هكذا ؟

فقال زليطة لنفسه « اللهم ارفع غضبك ومقتك عنا » ثم قال لها بلطف وتودد :

— أنا ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان . . .

ف قالت بتقزز :

— ولماذا لا تنجحر وترينني من وجهك ؟

فقال زليطة بركة مبتسما عن أنيابه الوحشية :

— لا يمكن أن يقضى الإنسان حياته كلها بين الشحاذيين والقاذورات والديدان ! ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهى وأناس أفضل . .

فاتمزته بعنف قائلة :

— يعنى لا مفر من أن يؤذى الناس بمنظرة الكريه ورائحته الخبيثة ! . . أف . . أف . . انجحر واغلق الباب وراءك . . !

فقال زليطة بخبت :

— ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفضح وروائح أخبث .

وأدركت المعلمة أنه يلحج إلى زوجها ، فأربد وجهها وقالت بلمهجة تم عن الوعيد :

— ماذا تعنى يا أخا الديدان ؟ !

فقال الرجل ولم تسكن تعوزه الجراحة :

— أخونا الناضل جمدة . . .

فصاحت به بصوت مخيف :

— حذار يا ابن اللئيمة . لو بلغت يدي شطرتك اثنين . .

ولم يتعام الرجل عن الخطر الماثل أمامه فقال مستعظفاً :

— قلت إني ضيف يامعلمة ، والضيف لا يهان . ثم إني لم أعرض بجمدة

إلا بعد أن ثبت لى ازدراؤك له ، وانهيأ لك عليه بالضرب لأتفه الأسباب . .

— جمدة هذا ظفرك برقبته . . . !

فقال زليخة محتجاً :

— ظفرك أنت بألف رقبة كرقبتي ، أما جمدة . . .

— أتجسب أنك خير من جمدة ؟ !

فلاح الانزعاج فى وجه زليخة وفرفرفاه دهشة ، لا لأنه — فى حسابانه —

خير من جمدة فحسب ، ولكن لأنه كان يعتقد أن مجرد مقارنته به سبة

لا تغتفر ، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله ، يعد بحق

ملكاً على دنيا برمتها أيا كانت هذه الدنيا ؟ ! . وسألها بدهشة :

— ماذا ترين أنت يا معلمة ؟ !

فقال حسنة بتحد وازدراء :

— أرى أن ظفرك برقبته . . . !

— هذا الحيوان . . ؟ !

فبتفت بصوت فظ :

— هذا رجل ولا كل الرجال يا وجه العفريت . . .

— هذا المخلوق الذى تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالة . . ؟ !

وأدركت المرأة فى كلامه حقاً وغيرة ، فراقها ذلك على انفعالها ،

وعدلت عن ضربه بعد أن حدثتها نفسها به ، وراحت تقول كأنها
لتضاعف حنقه وغيرته :

— هذا شيء لا تقيمه ، وما أجدر أن تموت حسرة على لسكة
عما يصيبه ... !

فقال زليطة حاتقا :

— لعل الضرب شرف لا أدركه ... !

— شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان ..

وتفكر زليطة مايا . ترى هل تطيب لها معاشرة هذا الحيوان حقاً ؟ !
وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، ولسكنه كان يأبى أن يصدق هذا .
إن المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت ، ولسكنها تبطن شيئاً آخر
بلا جدال . ورمق بنيانها الضخم المكتنز بعين نارية فازداد إباء وعنادا .
ولنشط خياله بارعا مجنوناً فصور له المستقبل في ألوان زاهية . وأوحى له
خلو المسكان بتخيلات محومة ، فاممت عيناه الخيفتان . أما حسنية الفرانة
فقد استلذت غيرته ، ولم يقلقها انقراذه بها لعظيم ثقها بقوتها فقالت
في تهكم :

— حتى أنت يا تراب الأرض ... استخرج جسمك من التراب الذي
يغطيه أولاً . ثم كلم الناس بعد ذلك !

ليست المرأة خاضبة . ولو كانت خاضبة حقاً لما دارت غضبها ولصنعتة
بوحشيتها . إنها تمازحه ولا شك ، فلا يجوز أن تغفل الفرصة من بين
يديه . قال :

— أنت لا تفرقين يا معاملة ما بين التراب والتبر !

فقالت المرأة بتحد :

— هل تستطيع أن تنكر أنك طين ؟

فهز منكميه استهانة وقال ببساطة :

— كلنا طين ... !

فقالت المرأة ساخرة :

— خسئت ! إنك طين على طين وقذارة على قذارة . ولذلك لا عمل لك إلا تشويه البشر ، كأنك تنبعت إلى ذلك برغبة شيطانية في النزول بالبشر إلى مستواك القذر !

فتضاحك زليطة وما يزداد إلا أملا ، وقال :

— ولكني أحسن الناس ولا أقبحهم . ألا ترين أن الشحاذ بغير العاهة لا يساوى مليها ، حتى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهباً ؟ ! والرجل يقوم بشئنه لا بصورته . أما أخونا جمدة فلا ثمن ولا صورة . . . فزجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد :

— أتهود إلى هذا الحديث مرة أخرى ؟

فتعاصى عن وعيدها ، وتجاهل الموضوع الذى طرقه متعمداً ، وتخطاه قائلاً : — ومع ذلك فجميع زبائنى من الشحاذين المحترفين ، فإذا تريدنى على أن أفعل بهم . . . أكنت تريدن أن أحلهم وأزينهم وأسرحهم فى الطرقات لفراية المحسنين ؟ !

— يالك من شيطان ! لسان شيطان ، وصورة شيطان !

فتنهت بصوت مسموع ، وقال باستكانة المستعطف :

— كنت مع ذلك ملكاً فى يوم ما . .

فهزت رأسها متسائلة فى سخرية :

ملكاً من الأسياد والعفاريت ؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسها :

— بل من البشر أقسمهم . وأى واحد منا تستقبله الدنيا كملك من الملوك ، ثم يصير بعد ذلك ما يشاء له نفسه . وهذا خداع حكيم من الحياة ، وإلا فلا فلأفصححت لنا عما فى ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبيننا أن تفارق الأرحام . . . !

— ما شاء الله يا ابن الدائخة !

فاستدرك زليطة فى حماس وسرور :

— وهكذا كنت يوماً ما مولوداً سعيداً ، تلقفته الأيدي بالسرور ،
وحاطته بالعناية والرحمة ، فهل تشكين بعد ذلك أنى كنت ملكاً ؟ !
— أبداً يا مولانا ..

وأسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل ، فمضى قائلاً :
— وكان مولدى يمناً وبركة أيضاً . ذلك أن والدى كانا شحاذين
محترفين ، وكانا يكثران طفلاً تحمله أمى فى أثناء تجوالهما . فلما أن رزقهما
الله بى أغناهما عن أطفال الناس ، وفرحاً بى فرحاً عظيماً .
فلم تلك حسنية أن ضحكت ضحكة بحاجلة ، فازداد حماساً وحرارة ،
وقال مواصلاً حديثه :

— أه من ذكريات طفولتى السعيدة ! لا زلت أذكر مستراحى من
الطوار . ! كنت أزحف على أربع حتى أبلغ حافة الطوار المطلة على الطريق ؟
وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة فى الأرض يركد فيها ماء من
مطر أو رش أو دابة ، يتكامل الطين فى قعرها ، وعلى سطحها يغنى الذباب ،
وعلى شطآنها تتجمع نفاضة الطريق . منظر ساحر يأخذ بالألباب ، مأوها
مطين ، وساحاتها زبالة متعددة ألوانها : قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب
وطين ، والذباب يحوم حولها ويقع عليها ، فكنت أرفع جفنى الثقيلين
بالذباب ، وأسرح طرفى فى ذلك المصيف الطروب ، والدنيا لا تسعنى فرحاً ..
فهتفت المعاملة ساخرة :

— يا بحتك .. يا حظك ..

ولده سرورها وإقبالها على حديثه ، فقال متشجعاً :
— هذا سرولى بما يسمونه ظلاماً بالقاذورات ، والإنسان خليق بأن
يألف أى شىء مهما شذ وغرب ، ولذلك أخاف عليك أن تألفى ذلك الحيوان .
— أتعود أيضاً إلى هذا ؟ !

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمته :

— طبعاً . لا قبل لإنسان بإغفال الحق .

— الظاهر أنك زهدت في الدنيا . .
— لقد ذقت الرحمة مرة كما قلت لك في المهد .
ثم أوماً بيده إلى المذبة التي يسكنها واستدرك :
— وقلبي يحدثني بأن لي حظاً أن أذوقها مرة أخرى في مأوى هذا .
وأوماً برأسه إلى الداخل كأنه يقول لها : « هاهي » : فتميزت المرأة
غَيْظاً ، وأحنقها جراته ، فصاحت في وجهه :
— حذار يا ابن الشيطان ! .
فقال بصوت متهدج :
— كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه ؟ !
— وإذا هشت عظمك ؟ !
— من يعلم . . ربما أستلذ ذلك أيضاً ! .

ونفض الرجل بغتة ، وتراجع قليلاً مقهوراً ؛ كان يظن أنه بلغ مناه ،
وأن العلامة أصبحت طوع يمينه ، وقد تلبسته حال جنونية جعلته ينتفض
انتفاضاً . وثبتت عيناه على عيني المرأة في ذهول وبهيمية . ثم مد يديه
بغتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة ، وتجرد عارياً . وبهتت العلامة
لحظات ، ثم امتدت يدها إلى كوز غير بعيد ، وقذفته به بسرعة وقوة ،
فاصاب بطنه ، وندت عنه آهة كالخوار ، وسقط يتلوى . . .

كان السيد سليم علوان جالساً كمادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت
أم حميدة لاقتباع بعض اللوازم . وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف ،
ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك ، فدعاها إلى الجلوس على كرسي قريب منه
وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة . ونال هذا العطف
من أم حميدة فلهجت بشكره والثناء له . والحق أن هذا العطف لم يكن

أرتجبالا ، ولكن السيد كان قد نوى أمراً لا يرجوع فيه ، لأنه من الصير
أن يعيش الإنسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقر له قرار . وقد
ساءه كثيراً أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التي تستوجب
الحلول ثم لا يجد الإرادة التي تحلها . فيؤلا الأبناء لا يخفى عليه قلقهم ،
وهذه الأموال المكسدة لا يدري متى يتاح له استغلالها خصوصاً وقد
أرجف المرجفون باحتال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب ، وزينة البيكوية
كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن ،
وعلاقته بزوجه وهمه الناشء من ذبول شبابها ونضوب حيوتها ، وأخيراً
— وليس آخر — هذه العاطفة التي يمانها ويلقى من اضطرابها ما يلقي
من أشواق وآلام . لبث بين هذه الهموم متحيراً ، ثم رأى أن يفض
إحداها بعزم ورغبة . ولكنه انشاق في الاختيار مع هواه وهو لا يدري ،
فارتأى أن يسكن هذه العاطفة الفشوم ، وتركز اهتمامه في ذلك ، حتى
لما أنه بالانتهاء منها إنما ينتهي من همومه جميعاً . ولكنه لم يكن بالغافل
عن المواقب ، ولم يكن ليغيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها الزعوم
مشكلات جديدة لا تقل خطراً عن سابقاتها . ولكنه الهوى . لقد غلبه
الهوى على أمره ، وتسرب إلى أعماق نفسه فتشبع به جذور تفكيره
وإرادته . وهانت عليه الصعاب التي كانت تعترض أحلامه ، وقال لنفسه
متمبرماً : « لقد انتهت زوجي كامراً ، ولست من الرجال الذين ينزلقون
إلى الفسق في مثل هذه السن ، ولا داعي مطلقاً للرضا بالعذاب والغم ، لقد
يسر الله لنا فلماذا نسر على أنفسنا ؟ ! » وهكذا انتهى إلى رأى لا عدول
عنه ، وأجمع على تحقيق رغبته . ولذلك دعا أم حميدة إلى الجلوس على كשב
منه معتزماً مفاتحتها بالأمر الخطير . ولبث السيد متخوفاً من الكلام قليلاً
لا لأن تردداً ساوره ، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته
العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة . وتصادف في تلك
الليظة أن دخل حامل حاملاً صينية الفريك المشهورة ، فראتها أم حميدة

وجرت على شفيتها شبه ابتسامة لم يفتقه ملاحظتها ، وابتهل هذه الفرصة ورأى
أن يجهلها فاتحة حديثه ، وتناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تتم
عن السخط :

— لكم تكدرنى هذه الصينية !

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بمجلة :

— لماذا كفى الله الشر ؟

فقال السيد باللهجة نفسها :

— لكم تحدث لى من متاعب ..

فتساءلت المرأة وهى لا تدرك ما يعنيه :

— لماذا ياسيدنا البيك ؟

فقال السيد سليم يهدوء متشجعاً بأنه يحدث خاطبة :

— لا يرضى عنها الطرف الآخر ..

فدهشت أم حميدة ، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الزقاق يوماً على
قطعة من هذه الصينية ، وهامى ذى امرأة زاهدة لا ترضى عنها ! وقالت المرأة
لنفسها « يعطى الحلقة لمن لا له أذنان » . ثم غففت مبتسمة ، وبلا حياء :
— هذا شيء عجيب !

فوز السيد رأسه متأسفاً . وكانت زوجه لا ترحب بالصينية من بادية
الأمر وهى بعد شابة فى ريعان الشباب . كانت ذات فطرة سليمة تنفر من
الشدوذ عن الطيبة ، ولكنها تحملت ما كانت تمده إرهاقاً إكراماً لزوجها
النهم ، وإشفاقاً من تكدير صفوه . ومع ذلك لم تتردد عن نصحه بالعدول
عن أسر فى المداومة عليه خطر وأى خطر على صحته . ولما أن تقدم بها العمر
قل صبرها ، وتضاعف إحساسها بالأمر ، وبدا تدمرها صريحاً ، حتى كانت
تمجر بيت الزوجية إلى بيوت أبنائها ، زيارة فى الظاهر وهرباً فى الحقيقة .
وضاق بها السيد ذرعاً ، ورمأها بالبرود والنضوب : وتكدر صفوها
وتنفس عيشهما ، دون أن يعدل عن هواه ، أو يعطف على ضعفها للموسم

وقد اتخذ نسوزها — هكذا دواء — حجة له في هواه ، وفيما يرتاد من حياة زوجية جديدة .

هن السيد رأسه متأسفاً وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل أم حميدة :
— لقد أنذرتها بالزواج من أخرى . وإني لفاعل بإذن الله . .

وتار اهتمام المرأة ، وتحركت غريزة العمل في باطنها ، وحدجته بنظرة
التاجر إلى زبون نادر الوجود ، ولكنها قالت بشيء من الارتباب :
— لهذا الحمد ياسى السيد ؟

فقال الرجل باهتمام جدى :

— لقد انتظرتك طويلا ، وكنت على وشك أن أرسل فى طلبك .
فما رأيك ؟

فتمهدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف . وقد قالت فيما بعد أنها
ذهبت بتبائع حناء فعثرت على كنز . ثم نظرت إليه مبتسمة وقالت :
— ياسى السيد أنت رجل قد الدنيا . ومثلك فى الرجال قليل ، ويلاحظ
من تكون نصيبك ، وأنا رهن إشارتك ، فعندى البكر والثيب ، الشابة
والنصف ، الغنية والفقيرة . اختر ما تشاء . .

وقتل السيد شاربيه الغليظين ، واعتراه شيء من الارتباك قليلا ، ثم
مال نحوها ، وقال بصوت منخفض ، وعلى فم ابتسامة :

— لا داعى للبحث والتعب . إن من أريد فى بيتك أنت !

واقسمت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعى :

— فى بيتى أنا !!!

فقال السيد وقد سرته دهشة المرأة :

— أجل فى بيتك أنت دون سواك . ومن لحكم ودمك . أعنى

كريمك حميدة . . !

ولم تصدق المرأة أذنيها ، وتولاها الدهول . أجل كانت تعلم — عن
طريق حميدة نفسها — أن السيد يتبعها أينما ذهبت عينين براققتين ، ولكن

الإعجاب شيء، والزواج شيء آخر. فمن عسى أن يصدق أن السيد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة ؟ ! . وقالت المرأة بصوت مضطرب :

— لسنا قد المقام يا سي السيد ! .

فقال الرجل بركة :

— إنك سيدة طيبة ، وقد أعجبتني كريمتك وكنتي . ألا يكون الناس أهلاً للخير إلا إذا كانوا أغنياء ؟ وما حاجتي المال وعندي منه ما فوق الكفاية ! .

وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها . ثم ذكرت فجأة أوراغاب عنها حتى هذه اللحظة . ذكرت أن حميدة مخطوبة ، وقد نددت عنها « آهة » كالمتزوجة ، حملت السيد على أن يسألها قائلاً :

— مالك ؟ .

فقالت المرأة باضطراب :

— رباه ! نسيت يا سي السيد أن أقول لك إن حميدة مخطوبة ! . خطبتها عباس الحلو قبل سفره إلى التل الكبير . . . !

فانكفأ وجه الرجل ، واصفر وجهه غضباً ، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قذرة :

— عباس الحلو . . . !

فقالت المرأة بعجلة ولهوكة :

— رباه لقد قرأنا الفاتحة .

فقطب السيد سليم قائلاً في غضب وازدراء :

— ذاك الحلاق الشجاع . .

فقالت أم حميدة كالمعتذرة :

— قال إنه سيشتغل في الجيش ، ليجمع ثروة ، وسافر بعبد أتي قرأنا الفاتحة . . .

وزاد غضب السيد لانزلاقه بغتة — مع الحلو — إلى مضمار واحد ، وقال بجملة :

— أيجب هذا الأحمق أن الجيش نعيم يدوم ! ولكني أعجب لما جعلك تذكرين هذه « الحكاية » !
فقالت المرأة معذرة :

— لقد ذكرتها فجأة ، هذا كل مافي الأمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، ولذلك لم يكن لدى حيلة في رفض يده ! لا تؤاخذني ياسى السيد . إن مثلك إذا طلب أمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، فلا تؤاخذني . سأذهب الآن وأعود إليك في الحال . لا تنضب على ، لماذا غضبت هكذا ؟ وبسط السيد وجهه . وذكر أنه غضب حقاً أكثر مما ينبغي ، كأنما الحلو هو المعتدى لا المعتدى عليه . ولكنه قال :

— ألا يحق لي أن أغضب ؟ ..
ثم توقف بغتة كأنه تذكر أمراً أريد له وجهه وسأها متزعجاً :
— وهل وافقت الفتاة ؟ أعنى هل تريده ؟
فقالت المرأة بسرعة :

— لا شأن لا بقتى بهذا الأمر ! وما حدث لا يعدو أن جاءنى الحلو يوماً مصحوباً بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة ...
فقال السيد :

— غريب والله أمر هؤلاء الشبان ! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمة ، ولكنه لا يجد بأساً من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة أولاداً يلتقطون رزقهم من الزبالة . لنس هذه الحكاية ...

— نعم رأى ياسى السيد .. سأذهب الآن ، وسأعود دون إبطاء ، وربنا المستعان ...

ونهمضت المرأة واقفة ، وانحنى على يده مسامة ، ثم تناولت لفافة الحناء ، وكان العامل قد وضعها على المكتب . ومضت إلى حال سبيلها ...

ولبت السيد متغيراً ، متجههم الوجه ، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنفزة والغضب . أول الخطي عثار ! . حلاق قنر لا يساوى ملياً ، ومع ذلك فهو يزجه في حلبة واحدة . ويضيق على الأرض بازدياء كأنما البصقة هي الطلو نفسه . وخال أنه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون في هذا الأثر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية . . ستقول زوجه إنه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمذق ! . أجل ستقول زوجه وتعيد ، وسيقول الناس ويتفنون في القول ، وسيتناهى ذلك كله إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه . تفكر في ذلك جميعه ، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال ، فقد انتهت المعركة قبل اليوم ، ومد يده بالفعل ، وتوكل على الله . ومضى يقتل شارب به بأناة ، ويهز رأسه استهانة ، وقد ملكت الرغبة الجارحة عليه نفسه ، وهونت عليه القيل والقال . وهل كلف الناس عنه ألسنتهم من قبل ؟ . ألم يجعلوا من صينية الفريك أسطورة يتناقضونها ؟ . فليقولوا ما بدا لهم ، وليفعل ما بدا له ، وسيظل بلا ريب سيد الجميع الذي يشق سبيله بين هامات متطامنة . أما أسرته فثروته كغيلة بإرضاء أفرادها جميعاً ، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر مما كانت تسلبهم إياه رتبة البكوية فيما لو سعى إليها . وانقشاً غضبه ، وانبسطت أسايره ، وارتاح إلى تفكيره ارتياحاً عظيماً . ينبغي أن يذكر دائماً أنه إنسان من لحم ودم ، وإلا أغفل حق نفسه ، وقدمها لقمة سائغة للهموم تزدريها . ماجدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حسرات على رغبة تحقيقها بيده ؟ ! أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشرى رهن إشارة منه ؟ !

ومضت أم حميدة مهرولة إلى شقتها ، وفي هذا الشوط القصير — ما بين
الوكالة والشقة — عمل خيالها بأحلام عراض . ووجدت حميدة واقفة وسط
الحجرة تمشط شعرها ، فتفحصتها بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة ،
أو كأنها تعان الأذى التي خبلت رجلا له وقار السيد سليم علوان وسنه
وثروته ! . ووجدت المرأة ماطقة تشبه الحسد . كانت تؤمن بلا شك بأن
كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها نصيبه ، وأن كل
نعيم ستذوقه ستحظى هي بتسليمها الموقور منه ، ومع ذلك لم تخل من هذا
الإحساس الغريب الذي خالط سرورها وأطماعها ! وقالت لنفسها « أكان
القدر حقا يدخر هذه السعادة لهذه الفتاة التي لا تعرف لنفسها أبا ولا
أما ؟ ! » وتساءلت في عجب « ألم يسمع السيد صوتها الخفيف وهي تزحف في
وجوه الجيران ؟ ألم يشهد معركة من معاركها ؟ يا ويل الرجال من لحم النساء ! »
ثم قالت لها دون أن تحول عنها عينيها :

— مولودة في ليلة القدر والحسين !

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع ، وسألتها ضاحكة :

— بله ؟ .. ماذا وراءك ؟ .. هل من جديد ؟ !

نخلعت المرأة ملائمتها وطرحتها على الكنبه ، ثم قالت بهدوء وهي تنفوس
وجوها لمتنحن أثر كلامها فيه :

— عروس جديد !

فلاح في العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطها دهشة وتساءلت الفتاة :

— أتقولين حقا ؟ !

— عروس كبير المقام ، يتمنع عن الأحلام ، يا بنت الكلب ..

نخفق قلب حميدة بقوة ، وتألفت عيناها حتى بدا حورها ساطعا وتساءلت :

— من عساه يكونى ؟

— خنى ؟ !

ففساءت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون :

— من ؟

فقال أم حميدة وهي تمز رأسها وترعش حاجبيها :

— السيد سليم علوان على « سن ورمح » !

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنفذ أسنانه في راحتها ، وهتفت :

— سليم علوان صاحب الوكالة ؟ !

— صاحب الوكالة ، وصاحب الأموال التى لا يفنيها المحيط !

فأضاء وجه الفتاة نوراً ، وغمغمت وهي لا تدري من الدهشة والسرور :

— ياخبر أسود !

— ياخبر أبيض ، ياخبر مثل اللبن والقشدة . لم أكن لأصدق لولا أنه

حادثى نفسه . .

وغرزت الفتاة المشط في شعرها ، وهرعت إلى أمها وارتجت إلى جانبيها ،

وسألتها وهي تشد على كتفها :

— ماذا قال لك ؟ خبرنى بكل ما قال كلمة . . كلمة . . !

وأنصتت إلى المرأة بانتباه عميق وهي تروى قصتها . وخفق قلبها خفقاناً

متواصلاً ، وتورد وجهها ، وتألقت عيناها بشراً وسروراً . هذه هي الثروة

التي تحلم بها ، هذا هو الجاه الذى تهيم به . وإنما من حب الجاه لى مرض ،

وإن الشغف بالقوة لغريزة جائعة فى باطنها ، فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء

إلا بالثروة ؟ ! . لم تكن تدري دواء لهذا التشوف الأليم يضطرم فى أعماقها

إلا الثراء الكبير ، فهو الجاه العريض ، وهو القوة الشاملة ، وهو بالتالى

السعادة الكاملة . كانت فى سرورها المبالغت كحارب أعزل عثرت يده

بسلاح مصادفة فى أشد المواقف حرجاً . كانت كطائر مقصوص الجناحين

يسف فى يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة ثم ينبت له ريش بمعجزة

تدق على الافهام فيبده من محاولاته الفاشلة تحليقا يسمو به إلى قن الجبال . وكانت أمها تنظر إليها بلحظ خفي فسألتها :

— ماذا ترين ؟

لم تدر أم حميدة ماذا تقول ، ولكنها كانت مشمرة للمعارضة أيا كان رأى الفتاة . فإذا قالت السيد قالت والخلو ؟ ، وإذا قالت الخلو قالت أو نفرط في السيد . أما حميدة فقالت بإنكار شديد :

— ماذا أرى ؟ !

— أجل ماذا ترين ، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه ، أنسيت أنك مخطوبة ؟ ! . . . وأنى قرأت الفاتحة مع الخلو ؟

فلاحت في عيني الفتاة نظرة حادة غشت جها لها ، وقالت في انزعاج وازدراء :

— الخلو !!

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة في البت في مثل هذا الأمر الخطير ، وكأن الخلو لم يكن قط ، وطاودها شعورها القديم بأن ابنتها فتاة شاذة خفيفة . والحق أن المرأة لم يداخلها شك جدي في النهاية المحتملة ، ولكنها كانت تريد أن تبلغها بعد لا ئى ، كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطوع هى إلى اقناعها بالقبول ، لا أن تلفظ اسم الخلو بعثل هذا الازدراء الغريب ، واستدركت تقول بلهجة تنم عن الانتقاد :

— أجل الخلو ، أنسيت أنه خطيبك ؟ !

كلا لم تنس ، ولكن سيان التذكر والنسيان ، ترى هل تمترض أمها حقا ؟ . وحدجتها بنظرة نافذة ، فأيقنت أنها كاذبة في انتقادها ، وهزت منكبيها استهانة ، وقالت باستخفاف واحتقار .

— ذبحة . . .

— ماذا يقول الناس عنا ؟

— دعهم يقولون ما بدا لهم . .

— سأستشير السيد رضوان الحسينى .

فجملت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة :

— ما شأنه في أمر يخصني وحدي ؟

— نحن أسرة لا رجل لها ، فهو رجلنا ...

ولم تطق المرأة انتظاراً فنهضت واقفة ، وتلفعت بملاءتها ، وغادرت الحجرة وهي تقول « سأشاوره وأعود توأ » . وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ . ثم تلبثت إلى أنها لم تتم تمشيط شعرها ، فغضت تمشطه بمحركات آلية وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة . ثم نهضت دالقة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة ، وعادت إلى جلستها .

لم يكن تحوّلها عن عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنت أمها ، أجل لقد حسبت حيناً أنها وصلت — راضية — أسبابها بأسبابه إلى الأبد ، فمنحته شفقتها يقبلهما بما أوتى من شنف وحب ، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلهما معاً ، ووعدته أن تزور الحسين لتدعوه ، وزارته بالفعل ودعت له — ولم تكن تزوره إلا لتستدعيه على عدوة عقب شجار — وانتظرت على أمل أن تظهر بهذه السعادة المروقة ، وفضلاً عن ذلك كله فقد رفعها الحلو من مجرد بنت إلى فتاة مخطوبة ، فلم يحد في وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامته « أخلق هذا لو خطبك إنسان » . بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان . ولم تذق من بادی الأمر الطمانينة الكاملة ، ووجدت في النفس شيئاً يضطرب يرتاد متنفساً . حقاً لوح عباس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد ، والسكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذي تريد ، ولقد حيرها أمره منذ أول لقاء . ولم تكن تدري كيف يكون رجلها على وجه التحقيق ، ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أية حال . ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة ، فجعلت تقول لعل المباشرة تهیء لها حياة لم تكن تحلم بها قط . ثم لم تكف عن التفكير ، والتفكير فضيلة ذات حدین ، فتساءلت ترى ما هذه السعادة التي يعينها بها ؟ ألا تكون مغالية في أحلامها ؟ يقول القی إنه سيعود بثروة ، وأنه سيفتح صالوناً

في الموسيقى ، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة ؟ وهل هذا حقاً ما تطمح إليه نفسها المجنونة ؟ ! وضاعف هذا التفكير من حيرتها ، وقوى شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق ، وباتت تدرك أن شعورها منه أشد من أن تلطفه المعاشرة . ولكن ما عسى أن تفعل ؟ ألم ترتبط به إلى الأبد ؟ .. ربه ، لماذا لم تتعلم حرفة كأولئك الفتيات من صوحيباتها ؟ أما لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء ، أو لما تزوجت على الإطلاق ! وأخذ حماسها يفتت ، وشعورها يخمد ، وهادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزها المقابلات وتفرها الآمال . هكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها ، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد ، ولكن بعد أن كانت نبذته في قلبها منذ أمد طويل . . . ولم يطل المطال بغياب الأم ، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تالوح فيه إمارات الجلد ، وقالت وهي تتخلع ملائتها :
— لم يوافق السيد أبداً . .

ثم قصت عليها ما دار بينهما وبين السيد رضوان ، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين إن الحلو شاب والسيد سليم شيخ ، وإن الحلو من طبقتها والسيد من طبقة أخرى ، وإن زواج رجل كالسيد من فتاة مثل ابنتها لا بد محدث متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض رشاشها ، وكيف ختم حديثه بقوله « الحلو شاب طيب وقد هاجر في سبيل الرزق طامحاً لهذا الزواج ، فهو رجلها المفضل ، وما عليك إلا أن تنتظري فإذا حاد خائباً لا قدر الله كان من حقتك بلا جدال أن تزوجها ممن تختارين » . وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها ، ثم صاحت بصوت جاف فضح الغضب قبحه :

— السيد رضوان ولي من أولياء الله ، أو هذا ما يجب أن يتظاهر به أمام الناس ، فإذا قال رأياً لم يبال مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله ، فسماعتي أنا لا تهمه في كثير أو قليل ، ولعله تأثر بقراءة

الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين ، فلا تسألي السيد عن زواجي
وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة . . . أما والله لو كان طيبا كما
تزهمون لما رزاه الله في أبنائه جميعا . . .

وارتاعت المرأة ، وقالت لها بإنكار وألم :

— أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم ؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد أنذرت حالتها بشر مستطير :

— هو فاضل إن أردت . وولي من أولياء الله إن شئت ، وني أيضا إن

أحببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتي . . .

وتألمت المرأة للإهانة التي لحقت السيد ، لا دفاعا عن رأيه الذي كانت

لا توافق عليه في باطنها ، ومع ذلك قالت مدفوعة برغبة في إفاضة الفتاة

والانتقام من سوء خلقها :

— ولسكنك مخطوبة . . .

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

— إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه إلا كلام

وصينية بسبوسة . . .

— والفاتحة ؟

— السامع كريم . . .

— الفاتحة ذنبها كبير .

فصاحت باستهانة :

— بليها واشربي ماءها !

فضربت المرأة صدرها وقالت :

— آه يا بنت الثعالب !

ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح في عيني أمها ، فقالت ضاحكة :

— تزوجيه أنت . . .

فضربت المرأة كفها بكف وهي تغالب الضحك ، ثم قالت بسخرية :

— من حقت أن تبغى صينية البسموسة بصينية الفريك . . .

فنظرت إليها بتعجب وقالت بغیظ :

— بل رفضت شابا واخترت شيخا . . .

فضحكت أم حميدة فحكة مملجة وتمتمت « الدهن في العتاق » ،
وتربعت على السكينة في سرور وقد تناست ممارضتها الكاذبة ،
واستخرجت سيجارة من علبة سجائرهما وأشعلتها ، وراحت تدخن بلذة
لم تشهر بمثلا من زمن بعيد ، فنظرت حميدة إليها بغیظ وقالت :

— تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف سرورى ، ولكنك
الكخبرة والمماندة والرغبة في إغاضى ساعحك الله . . .

فخدجتها أمها بنظرة عميقة ، وقالت بلهجة ذات معنى :

— إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة ، فهو في الواقع إنما
يتزوج من أهلها جميعا ، كالنیل إذا فاض أغرق البلاد . أفهمت ؟ . . .
أم تحسین أن تزفی إلى قصرک الجديد وأبقى أنا هاهنا تحت رحمة الست
سنية عفیفی وأمثالها من المحسنین ؟ . . .

فقهققت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها ، وقالت بكبرياء مصطنع :

— تحت رحمة الست سنية عفیفی ، والست حميدة هانم . . .

— طبعاً . . طبعاً بالقیطة الطوار ، یا ابنة المجهول . . .

فاسترسلت الفتاة في ضحكها وقالت :

— مجهول مجهول . . كم من أب معروف لا يساوى شيئاً . . .

وعند ضحی الغد ذهبت أم حميدة إلى الوكالة سعيدة رخیة البال ، لتقرأ
الفاصلة مرة أخرى ، ولكنك لم تجد السيد سليم بمجلسه المعبود ، واستعانت
عنه ، فقيل لها إنه تخلف عن الحضور اليوم ، فرجعت إلى البيت غير راحة
وقد تولاها الجزع . ولما ان انتصف النهار ذاع نبأ في الزقاق بأن السيد سليم
علوان أعیيب لیلۃ أمس بذبحۃ صدریة ، وأنه راقد فی فراشه بین الحیاة

والموت ! وقد عم الأصف الزقاق كله ، أما بيت أم حميدة فقد سقط عليه
النبا كأنه الصاعقة . . .

١٩

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء . ورأى أهله رجالا
يقيمون سرادقا على أرض خراب بالصناديق فيما يواجه زقاق المدق . وانزعج
عم كامل وظنه سرادق ميت فهتف بصوته الرفيع « إنا لله وإنا إليه راجعون ،
يا فتاح يا عليم يارب » ونادى غلاما من عرض الطريق وسأله عن شخص
المتوفى ، ولكن الغلام قال له ضاحكا .

— ليس السرادق ميت ، ولكنها حفلة انتخابية !

فبرز عم كامل رأسه وغمغم « سعد وحيدى مرة أخرى ! » وكان الرجل
لا يدري شيئا على الإطلاق عن عالم السياسة ، إن هو إلا اسم أو اسمان
يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى . أجل إنه يعلق في صدره صورة كبرى
لمصطفى النحاس ، ولكن كان ذلك لأن عباس الحلو ابتاع يوما صورتين
لزعيم ثبت إحداهما في الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه ، ولم ير الرجل في
تثبيتها بدكانه من بأس ، خصوصا وأنه يعلم أن هذه الصورة وأمثالها من
تقاليد الدكاكين ؟ ففي دكان الطعمية بالصناديقية صورتان لسعد زغلول
ومصطفى النحاس ، وفي قهوة كرشة صورة لخليل بيوتى عباس . وراح الرجل
يرمق العمال الماكفين على عملهم بانسكار وقد توقع يوما صاحبها مرهقا .
ومضى السرادق يتكون جزءا جزءا ، فنصبت الأعمدة ، ووصلت بالطنب
ومدت عليها الستائر ، وفرشت الأرض بالرمل ، وصفت القاعد على جانبي
ممر ضيق يفضى إلى مسرح أقيم في الداخل طاليا ، وركبت مكبرات الصوت
على مفارق الطرق ما بين الحسين والغورية ، وأجل من هذا كله أن ترك
مدخل السرادق بلا حاجز من ستار أو ظلة مما بشر أهل المدق بأنهم

سيشاركون في الحلقة من منازلهم ، وفي أعلى المسرح علقت صورة كبرى لرئيس الحكومة ، والصفت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذي تعرفه اكثرية أهل الحى لأنه كان تاجراً بالنحاسين . ودار فتيان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سطر عليها بألوان زاهية :

انتخبوا نائبيكم الحر ابراهيم فرحات

على مبادئ ســـــــــــــــــعد الأصلية

زهق عند الظــــــــــــــــلم والعوى

وجاء عند العـــــــــــــــــدل والسكاء

وأرادو أن يلصقوا إعلاناً بـدكان عم كامل ، ولكن الرجل الذى ترك غياب عباس الحلو فى نفسه أسوأ الأثر تصدى لهم ساخطاً وهو يقول :

— ليس هنا يا أولاد الحلال ، هذا شؤم يقطع الرزق ..

فقال له أحدهم ضاحكاً :

— بل تجلب الرزق . وإذا رآها حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك

بالجملة وأعطاك الثمن مضاعفاً وعليه قبلة ...

وانتهى العمل عند منتصف النهار . وعاود السكان هدوءه المهيود .

واستمر هذا حتى العصر حين جاء السيد ابراهيم فرحات فى هالة من حاشيته

ليعائن الأمور بنفسه . وكان الرجل لا يقبض يده عن الإتفاق ، إلا أنه

كان كذلك تاجراً لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتى لا يجوز

عليه مالا ينبغى أن يجوز . وقد تقدم القوم بجسمه البدين القصير ، يرفل

فى جيبته وقفطاناه ، ويقلب فيما حوله وجيئاً أسمر كرويا ذا عينين ساذجتين .

كانت مشيته تتم عن الزهو والثقة ، وعيناه تنطقان بالطيبة والسذاجة ،

ومظهره هامة يشى بأن بطنه أهم كثيراً من رأسه . وقد أحدث ظهوره

اهتماماً كبيراً فى الزقاق وما يحيط به ، لأنهم اعتبروه عروس الليلة ، وأملوا

من وراء « زفته » خيراً كثيراً ، خصوصاً وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة

التي دهمتهم فى الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتركية ا . ثم جاءت

على أثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفندي مرودة هتافات عالية . كان يصيح بصوت كالرعد « من نأثنا ؟ » . فيجيبونه بصوت واحد « إبراهيم فرحات » ، فيمتدح ثانية « من ابن الدائرة ؟ » ، فيمتدحون « إبراهيم فرحات » وهكذا ، وهكذا ، حتى امتلأ بهم الطريق ، وتسرب منهم كثيرون إلى السراشق . وجعل المرشح يرد الهتافات برفع يديه إلى رأسه ، ثم اتجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلها من رافعي الأتقال بنادي الدراسة الرياضي . وارتب من الحلاق المجوز الذي حل محل الحلو ومد له يده وهو يقول « السلام عليك يا أخا العرب » . فأنحنى الرجل على يده في استحياء وترحيب ، وتحول عنه إلى عم كامل قائلا : « لا تتجشم مشقة النهوض ، خلقتك بالحسين إلا ما لزمته مكانك . كيف حالك . . . الله أكبر . . . الله أكبر . . . هذه بسبوسة فريدة ، وسيعرف الناس جميعا قدرها هذه الليلة » . . . وتقدم مسالما على كل من لاقاه ، حتى انتهت إلى قبوة كرشة ، فحيا المعلم ، وجلس ، ودعا رفاقه للجأوس . واستبق إلى القبوة كثيرون حتى جمدة الفران وزينة صانع المعاهات . وردد المرشح نظره بين الحاضرين في سرور ، ثم قال مخاطبا المعلم كرشة :

— قدم الشاي للجميع . . .

وابتسم تحية لسلامات الشكر التي تناثرت عليه من كل حبيب وصوب ثم التفت صوب المعلم قائلا :

— أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السراشق من الطلبات . . .

فقال المعلم كرشة بشيء من الفتور :

— نحن في الخدمة ياسي السيد . . .

ولم يغب عن المرشح فتوره ، فقال برقة :

— نحن جميعاً أبناء حي واحد ، وكلنا إخوان . . . !

والحق أن السيد فرحات جاء القهوة خصيصاً لاسترضاء المعلم كرشة ،

ذلك أنه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليستميله إلى جانبه فيضمن صوته

وأصوات من يلوذ به من المعلمين وعما لهم ، وقدم له خمسة عشر جنيهاً مقدّم
ألقاب ، ولسكن المعلم كرشة أبي أن يعسها محتجاً بأنه ليس دون النوال
— صاحب قبوة الدراسة والذي ذاع أنه أخذ عشرين جنيهاً — منزلة ،
وما زال به حتى حمل على قبول المبلغ واعدأ إياه بالمزيد ، ثم افترقا والسيد
مشفق من انقلاب المعلم عليه . والواقع أن المعلم كرشة لم يحل من غضب على
« محدث السياسة » هذا على حد قوله . وأضمر له شر النوايا إذا هو لم يبادر
إلى إصلاح خطئه . وكان المعلم كرشة يتيقظ — على غلبة الذهول عليه —
في المواسم السياسية . وقد اكتسب في شبابه شهرة في عالم السياسة تضارع
ما اشتهر به بعد ذلك في الأمور الأخرى : فاشترك في ثورة ١٩١٩ اشتراكاً
فعلياً عنيفاً . وقد نسب إليه الطريق السكين الذي التهم الشركة التجارية
اليهودية للسجائر بميدان الحسين . وكان من أبطال الممارك العنيفة التي دارت
بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى . ولما أن خمدت
الثورة الدموية وجد فيما جد من ممارك انتخابية ميداناً جديداً على ضيقه
لنشاطه وحماسه ، فبذل في انتخابات ١٩٢٤ جهداً مشكوراً ، وصمد ببطولة
لمغريات انتخابات ١٩٢٥ — ولو أنه قيل وقتذاك إنه قبل رشوة مرشح
الحكومة ولكنه أعطى صوته لمرشح الوفد — وأراد أن يلعب الدور
نفسه في انتخابات صدق — فبأخذ النقود ويقاطع الانتخابات — ولكن
عيون الحكومة راقبته يوم المعركة ، وحماته مع غيره في لوري إلى مركز
الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغماً لأول مرة . وكان عام ١٩٣٦ آخر
عهده بالسياسة ، فطلقها بعد ذلك . وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات
فيما تلا ذلك من عيود كما يرصد الأسواق النافقة . وانقلب نصيراً لمن
« يدفع أكثر » . وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من
فساد ، قائلاً إنه إذا كان المال غاية المتنازعين في ميدان الحكم فلا ضير أن
يكون كذلك غاية الناهخين المساكين ! وفضلاً عن هذا وذاك فقد لحقه
الفساد هو نفسه ، وغلبه الذهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق في روحه

من الثروة القديمة إلا ذكرى ضامضة ربما كرا إليها الخيال فأشاد بها متباهياً في بعض ساعات العصفاء حول الجحرة ، ولسكنه نبذ في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة ، ولم يعد يعبأ شيئاً من بعد ذلك إلا « السكيف » و « الهوى » . وما عدا ذلك « إردم » على حد قوله . لم يعد يكره أحداً ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم . ولم يعد يحب أحداً كذلك ، ولذلك كان من العجيب حقاً أن يدب فيه حماس مفاجيء في هذه الحرب فيتعصب للألمان وأن يتساءل — في هذه الأيام خاصة — عن موقف هتلر ، أحقية قد أصبح مهدداً ، وألا يحمل بالروس أن يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد ؟ . ولكن إعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يداع عن بأسه وبطشه ليس إلا ، فكان يعده شيخ فتوات الدنيا ، ويتمنى له النصر كما تمناه طويلاً لعنترة وأبي زيد . بيد أنه ظل محافظاً على خطره في ميدان الانتخابات ، لأنه كان زعيم المعلمين الذين يتحلقون بجمرته كل ليلة ومن يقبعهم من فعلة وصبيان وبطانات ، ولذلك حرص السيد إبراهيم فرحات على استرضائه ، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين ، يقطعها في قيوته متودداً مستعطفاً .

وكان يسترق إليه النظر ، قال على أذنه وسأله بصوت خافت :

— أراض أنت يا معلم ؟

فتدلت شفقه عن ابتسامته ، وقال في شيء من التحفظ :

— الحمد لله ، أنت الخير والبركة ياسي السيد . . .

فهمس في أذنه :

— سأعوضك عما فاتك خيراً كثيراً . . .

وانبسطت أساريره وهو يقلب عينيه في وجوه الحاضرين ، ثم قال

برقة ورجاء :

— إن شاء الله لن تخيبوا لنا أملاً . . .

فتمالت الأصوات في وقت واحد تقول :

— ماذا الله يا سيد فرحات . أنت ابن خطنا .

فابتسم الرجل مطمئناً وألشأ يقول :

— إنى كما تعلمون مستقل ، ولكنى أستظل بعبادى . سيد الحقيقة .

وماذا أفندنا من الأحزاب ؟ ألا تسمعون مياتراتهم ؟ إنهم مثل (كاد يقول

أبناء الحوارى : ثم ذكر أنه يخاطب بعضاً من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه

قائلاً) : دعونا من ضرب الأمثال . لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب

حتى لا يغنى مانع من قولة الحق . وإن أكون عبداً لوزير أو زعيم ،

وسأذكر فى البرلمان إذا وقفنا الله للنجاح اتى إنما أتكم باسم أبناء الملقى

والغورية والصنادقية ، ولقد ولى عهد الشريرة والنفاق . وهما كم عهدنا

لا يشغله شيء عن أموركم العاجلة ، كزيادة الأقمشة الشعبية والسكر ،

والكبروسين ، والزيت ، وعدم خلفه الرغيف . وتخفيض أسعار

البحوم . . .

وسأله سائل باهتمام شديد :

— هل حقاً تتوفر هذه الضروريات غدا ؟

فقال الرجل بثقة ويقين :

— بغير جدال . وهذا سر الانقلاب الحاضر . كنت أمس أزور

رئيس الحكومة (ثم ذكر أنه قال إنه مستقل فاستدرك قائلاً) وهو

يستقبل المرشحين على اختلاف ألوانهم . فأكد لنا أن عبده هو عهد

الكساء والغذاء .

وازدرد ريقه ، ثم استطرد :

— سترون العجب العجيب . ولا تنسوا الحلوان إذا فزت فى

الانتخابات . .

فسأله الدكتور بوشى :

— الحلوان بعد ظهور النتيجة ؟

فالتفت السيد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق :

— وقبل ظهور النتيجة أيضا .
تخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال :
— كالصداق له مقدم ومؤخر - إلا أنت يا ست الستات فلا صداق لك :
لأن حبك روحي من السماء .
فتحول السيد إلى الشيخ منزجاً . ولكنه سرعان ما أدرك حين وقع
بصره على زينة — الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية — أنه من أولياء
الله الصالحين ، فارتسمت ابتسامة على وجهه الكروي وقال بركة :
— أهلاً وسهلاً بسيدنا الشيخ . .
ولكن الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق في ذهوله . ثم انبرى
أحد تابعي المرشح قائلاً :
— لكم ما تريدون ، ولنا القسم بكتاب الله ، وبالطلاق . . .
فقال أكثر من صوت :
— وجب . . .
وأخذ السيد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية : ولما أن
سأل عم كامل أجابه :
— ليس لي تذكرة ، ولم أشارك في أى انتخاب على الإطلاق . . .
فسأله المرشح :
— أين مسقط رأسك ؟
فقال بغير مبالاة :
— لا أدري . . .
وضجع الجلوس بالضحك ، وشاركهم السيد فرحات ، ولكنه غمغم
دون يأس :
— سأسوى هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة .

وجاء فتي الجلباب ، حاملاً مجموعة من الإعلانات الصغيرة ، فاتهمز فرصة
امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرق فيهم إعلاناته ، وظن كثيرون أنها

إعلانات انتخابية ، فأقبلوا عليها باجتهال مجاملة السيد المرشح ، وتناول
السيد فرحات إعلانا وقرأه فإذا فيه :

حياتك الزوجية ينقصها شيء . . .
عايك باستعمال عنبر السنطوري .

عنبر السنطوري

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة ويحلى بمعرفة وزارة الصحة
رقم ١٢٨ وهو منعش ومفرش ويبيدك من الشيخوخة إلى الصبا في
خمس دقائق .

طريقة الاستعمال :

خذ منه قدر القمحة على كباية شاي حلز كثير ، فتجد عندك النشاط .
ومقدار ربع الحق دفعة واحدة أقوى من جميع المكيفات . يسرى في
المروق كالتيار الكهربائي . اطاب غلبة عينة من موزع الإعلان . الثمن
٣ مليا يابلاش .

سمعتك بـ ٣ مليا . والمحل مستعد للاستماع لملاحظات الجمهور .
وضيح السكان بالضحك مرة أخرى ، وارتبك المرشح قليلا ، وتطوع
أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح :

— هذا ذال حسن .

ثم مال على أذنه وهمس قائلا :

— هلم بنا ، أماننا أحياء وأحياء .

فنهض الرجل وهو يقول :

— نستودعكم الله ، إلى لقاء قريب إن شاء الله ، اللهم حقق الآمال . . .
وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهيم بمغادرة القيوة .

— ياسيدنا الشيخ أدع لي .

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلا وقد بسط ذراعيه :

— الله يخرب بيتك . . . !

وما آذنت الشمس بالمغيب حتى كان السراشق قد ضاق عن القاصدين .
وتناقل الحاضرون أن سياسياً كبيراً سيلقى خطاباً هاماً . وذاع أن شعراء
وزجالين سيتبارون على المسرح . ولم يطل الانتظار فارتق المسرح قارئ ،
وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم . وأعقبته فرقة موسيقية من شيوخ
مهدمين منابلي الشيا ب فمزفوا النشيد الوطني ، وكان لإذاعة المكبرات
لموسيقاهم أثر واضح في دعوة الغلمان والتصبية من الأزقة والحواري حتى
سدوا الصناديق سدا . وتعالى الهتاف والضوضاء . وانتهى النشيد دون
أن يبرح رجال الفرقة أما كنهم ، حتى ظن أن الخطباء سيلقون خطبهم على
أنغام الموسيقى . ثم كانت المفاجأة السارة إذ دق بعضهم أرض المسرح حتى
شمل الصمت الجمع المحتشد ، ثم بدا مونولوجست معروف في لباسه البلدي ،
فما كادت تراه الأعين المجددة حتى جن جنونهم فرحا وسرورا ، وراحوا
يهللون ويصفقون ، وقال المونولوجست وتقتن . ورقصت امرأة شبه طارية
وهي تهتف المرة تلو المرة : « السيد إبراهيم فرحات . . . ألف مرة . . . ألف
مرة » . وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح في المذياع « السيد
إبراهيم فرحات أحسن نائب . . . ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون » .
واتصل الغناء بالرقص والهتاف ، وانقلب الحى جميعاً إلى مولد ^{بها} ^{سكت}
ولما عادت حميدة من مشوارها المجهود وجدت الحفلة في إبان ازدهارها
وسرورها . وكانت تظن كأهل الزقاق كافة أنها ستكون حفلة هتاف وخطب
« بالنحو » على حد تعبيرهم . وما إن رأت المنظر البهيج حتى شملها السرور ،
وتلفت يمنة ويسرة باخثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التي نادراً
ما ترى مثلها في حياتها . ومضت تشق طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات
حتى بلغت مدخل المدق ، واقتربت من جدار الصالون ، وارتقت حجراً
منفرساً لصق الحائط . وتطلعت باهتمام وسرور إلى السراشق .

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كل جانب ، ووقفت نسوة كثيرات
يقبضن على أيدي أطفالهن أو يحملنهم على أكتافهن . واختلط الغناء

بالهتاف بالحديث بالصياح بالضجحات بالعويل . واستولى المنظر الخلاب على
لبها فاجذبت روحها إليه . والتع السرور في عينيها الفاتنتين ، وفيها القتر
عن ابتسامة لؤلؤية . وكانت متلعة بملائتها فلا يبدو منها إلا وجهها
البرنزي : وأسفل ساقها ، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدم شعرها
الناجم . رقص قلبها سروراً ، وتنبهت حواسها جميعاً ، وجرى دمها طاراً
دافقاً . سرها المونولوجست سروراً لم تشعر بمثله من قبل ، حتى شعورها
المر القارض نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها . وظالت مستغرقة فيما
ترى غير ملتية بالا إلى هبوط الظلام حتى أحست شيئاً ما يجذب عينيها
نحو اليسار . كأنه نداء يدعو حواسها إليه ، أو ذلك الشعور الذي يقلقنا
إذا أحدثت فينا عينان . ولبته على رضعها فتحولت عن المونولوجست
عاطفة رأسها إلى يسارها فالتقت عيناها بعينين تنفرسان فيها بقوة وقوة !
ولبثتا مقدار ثانية ثم عادتا إلى هدفهما ، ولكنهما لم تستطعا أن تنعم
باستغراقهما الأول ، وظل شعورها منتبهاً إلى العينين العارمتين ، وجعلت
حدقتها تملآن ناحية اليسار ، وساورها شك وقلق ، فالتفت مرة أخرى
فالتقت بالعينين تنفرسان فيها بالقوة نفسها ، وقد نمتا — إلى ذلك — عن
الابتسامة غريبة . ولم تتمالك نفسها فأعادت رأسها إلى موضعه الأول في شيء
من الحدة وقد ملأها الحق . أحنقتهما هذه الابتسامة الغريبة لأنها أفصحت
عن ثقة وتحد لا حد لها ، فهبجت موضع الالتهاب والانتفجار من نفسها
الشرسة المتفجرة ، وشعرت برغبة جامحة ، أن تنشب أظافرها في شيء ما ،
في رقبتها لو أمكن مثلاً ! . وصممت على أن تهمله على نفورها من هذه
الطريقة السلبية في العراك ، وإن ظل شعورها قوياً بعينيه الوقحتين !
ونفص عليها سرورها ، وركبتها روح الشر التي تليها بسرعة جنونية .
وكان صاحب العينين لم يقنع بما فعل ، أو كأنه لا يبالى هذه النار التي شها ،
فراح يشق طريقه إلى موضع في طريق بصرها الشاخص إلى السرادق متعمداً
بلا شك أن يعارض سبيلها ، ووقف هنالك مولياً إياها ظهره . كان طويل

القائمة ، نحيفاً ، عريض المنكبين ، حاسر الرأس ، غزير الشعر أسود ، مرتدياً بدلة ذات لون ضارب للأخضرار ، متأنقاً في ملبسه ومظهره ، فلاح غريباً في هذا الوسط الذي يكتنفه . وسرعان ما أنستها الدمشية ما تولأها من حنق وتوحش . هذا أفندى وجيه . وأين من زقاقها الأفندية ؟ ! ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام ؟ . . . ولكن لم يكن شيء ليردعه . فما عثم أن التفت وراءه مرسلًا نحوها نظراً عارماً . وكان وجهه نحيلاً مستطيلاً ، لوزي العينين ، كثيف الحاجبين ، تنطق نظرة عينيه بالحنق والقحة . ولم يكتف بهذا التفرس على الألفسوب فيها نظره وصعد ، من شبهبها المنجرد إلى شعرها ، حتى انسأقت وهي لا تدري إلى النظر إلى عينيه كأنما لتسبر ما تركه تفحصه من أثر ، فالتفت عيناها ، ولاحت في عينيه هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحد وظفر ، فتناست دهشتها ، وطاودها الحنق والغيط والرغبة في المراك ، فغلا دمها غلياناً ، وهمت أن تشتمه علانية ، همت أكثر من مرة ، ولكنها لم تفعل ، وتولأها قلق وانفعال ، وضأقت بوقفها ، فنزلت عن الحجير ، ومرت إلى الزقاق مندفعة على عجل ، فقطعته في ثوان ، وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة إلى الالتفات إلى وراء ، ولكننه تمثل لعينها في وقفته مرسلًا عينيه في وقاحة وثقة وقد ازدادت ابتسامته اقتضاحاً ، فرغبت عن رغبتها ، وارتقت السلم متعجلة حائرة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها في تأديبه . واتجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملأءتها . ثم دلفت من النافذة المغلقة ، ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها ، وبحتت عيناها عن ضالتها حتى استقرتا عليه عند مدخل الزقاق ، وكان يرمق النوافذ المطلة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدى ، وحل محلها احتفال وتطلع . وسرها مظهره الجديد فانقأ حنقها ، ولبثت بموقفها تستلذ حيرته وتنتقم لغيظها وحنقها . أفندى وجيه ما في ذلك من شك ، وغير السابقين بلا جدال ، وقد أعجبته وإلا ففيم هذا الاهتمام الشديد . أما نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة

تستوجب أعنف عراك . . . فيم هذه الثقة التي لا حد لها ؟ أيجب نفسه .
بطل الأبطال أو أمير الأمراء ؟ وظالط ارتياحها حنق . ووجدت رغبة
فامضت إلى العنف والتحدى . ولكنها بدأ يبأس من النوافذ ، وأعياء
البحث عنها ، وخافت أن ينصرف عن تطلعه وينيب في الزحام . وترددت
لحظة ، ثم أدارت الأكراسة ، وفرجت ما بين مصراعي النافذة عن ريق
ووقفت وراءه كأنما لتشهد الحفلة . كان مولياً الرقاق ظهره ، ولكنها
كانت مطمئنة إلى أنه سيعاود البحث والانحصر والاستقصاء . وقد فعل ،
فتلقت رأسه مرة أخرى وتردد بين النوافذ . حتى علق بالريق فأضاءت
صفحة وجهه ، ولبت لحظات كالمرتاب ، ثم . . . ثم ارتسمت على شفتيه
هذه الابتسامة الوقحة ، ورد إليه مظهر التيه والخيلاء بأفظم مما كان .
وأدركت أنها انزلت إلى خطأ لا يفتقر بظهورها ، وثارت ثأرتها واستولى
عليها الحنق والغيظ ، ووجدت في ابتسامته تحدياً يدعوها للنزال ! وجدت
في هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل ، وقرأتهما بوضوح على ضوء
نفسها الناضبة المتعطشة للعراك . وبدأ الرجل وكأن شيئاً لا يمكن أن يقفه
عند حد ، فتحرك مصعباً في الرقاق بقدمين ثابتتين حتى خيل إليها أنه
قادم إلى البيت ، ثم مال إلى قهوة كرشة ، واختار مجلساً ما بين المعلم كرشة
وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الحساوي في الأيام الخوالي
مستظلاً إلى شبحها وراء الخصاص . خطا بجالوسه هذا خطوة جريئة .
ولكنها لم تتراجع ، لبثت بموقفها مرسله عينيها إلى المسرح وإن كانت
لا تكاد تدري بما يدور عليه ، شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لأخرى
في ومضات متقطعة كالكشف الكهربائي . . .

ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة .

وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليال وعهود . . .

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق ، فكان يجيىء عند العصر
 ويتخذ مجلسه المختار ، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاي .
 وقد أحدث ظهوره الطارىء — بوجاهته وأناقته — دهشة في القهوة ،
 ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الإهمال ، فليس من الخوارق
 ان يقصد أفندي مثله قهوة مفتوحة لسكل طارق . بيد أنه أتعب المعلم
 كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقديه ضخمة لا تقل في كثير
 من الأحيان عن الجنيه . كما أنه أسر سنقر بما كان ينقحه من بقشيش
 لا عهد له به من قبل . وراقبت حميدة مجيئه يوماً بعد يوم بعين متفتحة
 ونفس متوثبة . ولكنها أحجمت بادی الأمر عن خروجها إلى فسحتها
 اليومية لركة ثيابها وتفاهتها ، حتى ضاقت بالبيت ضيقاً شديداً ، ثم أغضبها
 إحجامها وعدته نوعاً من الجبن لا يسيغه طبعها الجرىء ، وعز عليها أن
 يتقضى مخلوق عليها بالترامشيء تستكرهه . فنشبت معركة جديدة في صدرها
 الذي لا يستريح من المارك . وقد رأت الأوراق النقدية التي كان يعتمد
 تقديمها لسنقر تحت بصرها ، وفطنت بطبيعة الحال إلى دلالتها . وربما
 كانت هذه لفة ساقطة في غير هذا المكان ، أما في زقاق المدق فهي لفة
 بليغة لا يخيب لها أثر . ومع أن الرجل كان شديد الحرص على ألا يبدر منه
 ما ينبه أحداً إلى الباعث الحقيقي لغشيانه القهوة ، إلا أنه كان لا يعدم
 فرصة فيسترق النظر إلى خصائص النافذة ، أو يضع مبسم النارجيلة على فيه
 زاماً شفقيه كأنه يقبله ثم يرسل الدخان إلى عل كأنما يرسل القبلة في الهواء
 إلى شبحها الجاثم وراء النافذة . وكانت ترى ذلك باهتمام ، تساورها أحاسيس
 متبانية لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق . وقد حدثتها نفسها بأن تنطلق
 إلى نزعتها ملقية بمخاوفها تحت نعلها . وأن تلقاه إذا سولت له نفسه

التعرض لها — الأمر الذي لا يداخلها فيه أدنى شك — بما تعيده في نفسها من قسوة حقيقة بأن تهزم قسوته شر هزيمة ، وأن تسلقه بلسانها سلقاً لا ينساها مدى الحياة . وإنه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب ، وابتسامته الظافرة ، وتحديه الوقح . تباله ، ما الذي يدعوه لهذا التظاهر بالقلبة والقهر ؟ ! لا ارتاح لها بال حتى تمرغ أنفه في الرغام . ولكن آه لو كانت تلك ملاة حسنة أو شبيهاً جديداً ؟ . . .

وقد اعترض سبيل حياتها وهي تعاني اليأس المرير : إذ سقط السيد سليم علوان بين حتى وسيت بعد أن مناها يوماً وبمض يوم بالحياة العريضة التي تهيم بها ، وبعد أن نبذت من أحلامها عباس الحلو ولقظته . وعلمت بعد ذلك أنه لم يعد ثمة أمل في ذلك الزواج المأمول ، فردت على رغبتها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقتاً ونفوراً . وأبت أن تسلم بسوء حظها ، وراحت تنتهر أمها ، وتهمها بأنها حسدتا وطعمت في مال الرجل فخبب الله آمالها . على هذه الحال لاح الرجل الجديد في أفق حياتها . وقد بعث ظهوره في نفسها ثورة هارمة جارفة استشارت كوامن غرائزها جميعاً . أغضبها زهوه ، وأحنقها تحديه ، وأغررتها وجاهته . وأيقظتها مخولته وجماله . جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المظمورة ، ووجدت فيه ما لم يجتمع لسواه من عرفت من الرجال : القوة والمال والعراة . ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلال ، أو تدري حاجات نفسها اللتوية ، فتجربت بين الانجذاب إليها ، وبين رغبتها المضطربة في الأخذ بتلابيبه . ثم وجدت في الانطلاق مهرباً من سجنها وخيرتها معا ، وفي فسحة الطريق مجالاً تسبر فيه نفسها وغرائزها . في الطريق يجوز أن يتعرض لها ، فتتاح لها فرصة أن تتحداه كما تحداهما ، وأن تنفس عن غضبها وحنقها ، وأن تلي هذا النداء الخفي الذي يبيب بها إلى النزال والعراة . . . والانجذاب !

وفي عصر يوم من تلك الأيام ، أخذت زيلتها ، والتحفّت ملاة

وظادرت الشقة لا تعباً شيئاً في الوجود . و انتهت إلى الطريق في أقل من دقيقة . ثم قطعت الزقاق لا تلوي على شيء . وخطر لها خاطر وهي تميل إلى الصناديقية ، ألا يحق له أن يظن بخرجتها هذه الظنون ؟ ألا تزعم له نفسه الغرورة أنها ضادرت بيتها عمداً لالتقاءه في الطريق ؟ . خصوصاً وأنه لا يدري شيئاً عن نزعتها اليومية المعتادة . وقد جاء أياً ما متتابعة فلم يرها يوماً تغادر البيت . فسيتبعها على الأثر ، ويتعرض لها في الطريق . وقد أبت أن تقيم وزناً لظنونه ، ورحبت بما عسى أن يدفعه إليه الفروق ، وتوثبت للقائه بنفس تنحرق على التحدي والعراك متوعدة إياه بأن تمحو عن شفتيه هذه الابتسامة الظافرة السخيفة . وبلغت في سيرها الوئيد السكة الجديدة . فتخيلته وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متمجلاً حتى لا يضلها . ولعله ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الفورية ، ولعله يفتش عنها بسنيته المتفرستين الجسوريتين . إنها تسكاد تراه بظورها وهو يهرول بجسمه الطويل ، بينما لا تسكاد ترى عيناها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيارات وعربات . ترى هل أدرك بصره ما خرج في ابتغائه ؟ . وهل ماودته الابتسامة المتحدية الظافرة ؟ . قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره ! . فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء ، حذار من الالتفات ، فالتفاتة واحدة شر من الهزيمة . إنه وقع جرى ، ولعله لا يفصلهما الآن سوى خطوات ترى ماذا هو فاعل ! أيقنع بتأثرها كالسكب ؟ أم يسبقها قليلاً ليربها نفسه ؟ أم يحاذيها ويأخذ في مخاطبتها ؟ . وواصلت السير متنبهة قلقه مترقبة متوثبة . تتوقع في كل خطوة جديداً . وتتفحص عيناها جميع الذين يلحقون بها ويتقدمونها من المارة وتنصت بيقظة للأقدام التي تتحرك وراءها . أرهقها الانتظار والترقب والتوثب ، وكادت تراود إرادتها في التلفت . بيد أنها استعدت عنادها وفضاظمتها وسارت لا تلوي على شيء . فما تدري إلى وصويحباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات ! ، فخرجت من غيبوبتها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ، ثم سامت ، ودارت على عقبيها تسير وسطهن ، وهن يسألنها

عن سر غيابها أياماً على غير عادة ، واعتلت بالمرض . وهى تهاين الطريق
لترى موقعه منه . ومضت تنازعن الحديث والمزاح وعيناها ترددان من
طوار لطوار . ترى فى أى مكان ينزوى ؟ لعله يراها من حيث لا تراه .
وربما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم . كانت ترجو
أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه ، ولكنها نجى من
مخالبها . ولكن أين يكون ؟ أيمكن أن يكون متأخراً عنهن إلى الوراء ؟
ولم تستطع أن تقاوم رغبتها فى التلفت هذه المرة ، فالتفتت . وخصت الطريق
ببصر حاد . ولكنه لم يكن هناك . لا إلى الوراء ولا إلا الأمام ولا إلى
اليمين ولا إلى اليسار ! لعله تأخر قليلاً فى الإفلات من القيوة فأضلها ولعله
يتخبط الآن فى الطريق لا يدري مكانها ! ومهران ما فتر حماسها وخمد
نشاطها . وعند ما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنه ربما بدا لها هنا فجأة كما
بدا يوماً عباس الحلو . وتجدد الأمل . ونشط الجاس فودعت آخر
صويحباتها ، وطادت متممة قلب عينيها فى جنبات الطريق ، ولكنه كان خالياً
أو كان خالياً ممن تبتغى ، وقطعت ما تبقى منه بقلب كبير . . . تنوء بهزيمة
نكراء . وصعدت مع أرض الرقاق ، واتجهت عيناها إلى القيوة ، وأخذ المعلم
كرشة يبدو لها شيئاً فشيئاً ابتداء من طرف عباءته فكشفه الأيسر حتى
رأسه المتطامن ، ثم . . . رباه ما هذا ؟ . . . إنه لم يبرح مكانه ، قابضاً على
خرطوم نار جيائه . . . وخفق قلبها بعنف ، وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها
وهرولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها . وارتقت السلم ذاهلة من
الخجل — ولو أن الخجل ليس من سجايها — وما كادت الحجرة تحتموها
حتى انفجرت براكينها ، واستولى عليها غضب جنونى ، فطرحت الملاءة
على الأرض وارتعت على الكنبه . لمن إذاً يحبىء القيوة كل مساء ؟ وكيف
يسترق إليها النظر بعينيها الفاجرتين ؟ . . . ولمن يرسم تلك القبلة الخفية فى
الهواء ؟ . . . وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب . ثم
انثالت عليها الفكر والخواطر : أيمكن ألا يوجد ارتباط بين مجيئه كل مساء

وبين أفكارها ، وأن ليست هذه الأفكار إلا أوهاما وأحلاما كاذبة ؟ . . .
 أم إنه تعمد أن يهملها اليوم تأديبا لها وتعذيبا فهو يعيث بها عبث القوي
 بالضعيف ؟ . . . أتتهض إلى القلة وتقذفه بها فتعظم رأسه وتروى غلة
 الحنق والانتقام ؟ . واستولى عليها شعور تمض بالامتعاض لم تشمر بمثله
 من قبل ، حتى لقد تساءلت في حيرة عما أصابها . بيد أنها لم تسكن تحيل
 ما كانت تريد . كانت تريد بلا شك أن يتبعها وأن يتعرض لها في الطريق .
 ثم ماذا ؟ . ثم تقذفه بحكم الغضب والحنق والوعيد . لماذا ؟ تحديا لشقته
 بنفسه وزهوه وابتسامته الواشية بالظفر . كانت ابتسامة الظفر أصل البلا
 كله ، فأدركت مفزاعها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها . هي ابتسامة
 الصراع والعراك ! وإنما على مساجلتها لقادرة ، لا بل أنها لم تخلق إلا لتتلقى
 هذه الابتسامة ومثيلاتها فتجيب عليها . كانت تأسى على فوات معركة طالما
 ترقبتها باهظة وشنف . وكانت في أعماقها تتحرق إلى أن تقيس قوتها بقوة
 هذا الرجل ذي الفحولة والجاء والخيلاء . هكذا تيقظت في عنف وشدة ،
 وانبتت في نفسها روح الالهفة والتمرد والعراك والشوق . . .

لبثت على السكينة فريسة لهايجها الوحشي ، ثم تلفقت إلى النافذة
 ترمقها شزراً . وجعلت تترجح حتى صارت وراءها ، ثم أرسلت بناظرها
 من خلال الخصاص ، ترى ولا ترى ، متلعة بالعممة التي غشيت الحجر .
 رأتها في جلسته الهادئة ، يدخل النار جيلة في طمأنينة وسلام ، تلوح في
 عينيه الثقة بالنفس والحدق ، وكأنه يعيش في طم وحده منقطع عما حوله ،
 وقد خلا وجهه من آثار هذه الابتسامة المثيرة . ها هو هاديء مطمئن بينا
 هي تشتعل ناراً . وتفرست فيه بقوة وحنق وما تزداد إلا انفعالا وحيرة .
 وظلت ملازمة مكانها حتى نادتها أنها لتناول العشاء ففسادت الحجر .
 وقطعت ليلة عملة مضنية . ونهاراً كثيباً ، وانتظرت عصر اليوم الثاني في قلق
 متواصل . لم يكن يداخلها شك في مجيئه في الأيام الماضية . أما اليوم فباتت
 تترقب قلقة شاردة النفس . وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن

أرض الرقاق ويرق، وثيلاً جدار القوة . ومن عجب أن حاصرها الطوف من عدم عجيته . ولعلها ابتدعت ذلك بفرقة المحارب للشاكس وكيد . وجاء مواعده دون أن يبدو له أثر ، وتصرمت دقائق ودقائق ، فمن المؤكد أنه لا يحضر اليوم . بيد أن هذا التخلف قد حقق ظننا ، فأدركت أنه تغيب متعمداً : وارتسمت ابتسامة على شفتيها وتهدت من الأعماق ارتياحاً . لم يكن من شيء واضح يدعو للارتياح حقاً . ولكن غريزتها أسرت إليها بأنه إذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمداً فلا شك أنه بالأمس تصمد كذلك ألا يطاردها ، فليس ثمة إهمال أو عدم مبالاة ، لا بل على العكس من ذلك فإنه يخوف غمار الحركة بمهارة وحذق ، وإنه لصامد في الميدان حتى في هذه الساعة التي لا يرى له أثر فيها . وارتاحت إلى سرار غريزتها ، واطمأنت إليه ، وتوثبت للنضال بعزم جديد . ونباها المكوث في البيت فتلفعت بملاءتها وضادرت البيت دون أن تعنى بزينتها كما اعتنت بها أمس . ولمح الهواء البارد في الطريق وجهها فأنعشها ، وذكرها انتعاشها بما قامت يومها من قلق وفكر ، فغمغمت ساخطة « يا لي من مجنونة ! . . كيف جشمت نفسي هذا العذاب ؟ ! . . ألا فلنردده الموت ! » واستجشت خطاياها حتى التقت بصويحباتها . ثم طادت معين . وقد أئذنتها بأنهن سيفقدن قريباً إحداهن التي ستزوج من زنقل صبي دكان طعمية سيدهم . وقالت إحدى الفتيات :

— لقد خطبت قلبها ولكننا ستزوج قبلك . .

وأثارها قولها فقالت بحدة وخيلاء :

— إن خطبي مشغول بإعداد مستقبل باهر . . .

تباغت بالحلو على رغبتها ، ثم ذكرت متحيرة السيد سليم علوان . — قتله الله ككل شيء غير ذي نفع — فتزى قلبها ألماً ، وتولاه الوجوم بقية الطريق . شعرت بأن الحياة تعاندها وتكيد لها ، والحياة هي العدو الوحيد الذي لا تدرى كيف تأخذ بتلابيبه . وسارت في رفقة الفتيات حتى

آخر الدراسة . ثم ودعت أخراها من : ودارت على عقيها لتعود من حيث أتت . وعلى بعد أذرع رأتها — رجلها دون غيره — واقفاً على الطوار كالمنتظر ! وثبتت بصرها عليه لحظات تحت تأثير المفاجأة التي دهشتها ، واعتراها شيء من الارتباك عضت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة ، ثم واصلت السير في شبه ذهول ، لم تكن مستعدة لهذا اللقاء ، ولم يعد يداخلها شك في أنه كان يتأثرها طوال هذا الوقت . وهكذا يحكم هو التدبير في هدوء ، ويدهمها هي في كل مرة الارتباك والذهول . وأخذت تنادي قواها المبعثرة وتستعدي وحشيتها ، وقد آلمها أشد الألم أنها لم تأخذ زينتها كما ينبغي ، وأحدث لها ذلك غير قليل من القلق . كان الجو متخشعاً تحت سمرة المنيب ، والمكان كالقفز . وكان الرجل ينتظر دنوها في هدوء ، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدي ولا لابتسامة الظفر ، فلما أن حاذته خاطبها بصوت منخفض قائلاً :

— من يتحمل سراحة الصبر يبلغ . . .

ولم تسمع تزمة عبارته لأنه غمغمها ، فخدجته بنظرة حادة ، ولم تنبس بكلمة ، وسارت لحال سبيلها ، فسأيرها وهو يقول بصوته الهادي العميق :

— أهلاً ومهلاً . كدت أجن بالأمس لأنني لم أستطع الجري وراءك حذر العيون . وكنت انتظر مثل تلك الخرجة صابراً يوماً بعد يوم ، فلما أن جاءت الفرصة دون أن أستطيع اتهازها كدت أجن . .

إنه يطالعها بوجه وديع ، غير الوجه الذي أهاجها ، فلا تحدى ولا ظفر ، وكلامه أشبه بالشكوى والتوجع والاعتذار ، وهي إنما توثبت لغير هذا ، فما عسى أن تصنع الآن ؟ . . اتهمل شأنه وتحث خطاها فينتهي كل شيء ؟ . . .

تستطيع أن تفعل هذا لو أرادت ، ولكنها لم تجد مشجعاً من قلبها ، وكأنها كانت تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأول ، فسارت بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها .

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة ، ويحيك أ كذوبة ماكرة ،

فلم يكن خوفه الذي أقمده أمس عن تعقبها . ولكنه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحى إليه بأن القعود في حالته خير من المعجاة ، كما أوحى إليه اليوم بأن يتلثم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة . وعاد يقول لها برقة :

— تعيلي قليلا . . . عندي . . .

فالتفتت إليه وقاطعته بحدة :

— كيف سولت لك نفسك أن تخاطبني ؟ . . . أتعرفني يا هذا ؟ !

فقال بأدبه الزائف :

— كيف لا ؟ . . . نحن أصدقاء قداماء . وقد رأيتك في الأيام الماضية

أكثر مما رأيك الجيران في أعوام طوال . وفكرت فيك أكثر مما فكر الصق الناس بك مدى عمره . فكيف لا أعرفك بعد هذا كله ؟ !

تكلم برقة ولكنه بلا تلثم ولا تهذيب . . . وازدادت هي تعلقا بكلامه ورغبة في مساجلته . وتولاهما شعور بالاستهانة . هو السلاح الوحيد الذي تستطيع أن تشهره في وجه عناد الحياة . بيد أنها لم ترد الخروج على « سنة التصنع والتثيل » ، فقالت بحدة وهي تحرص على ألا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن :

— لماذا تتبعني ؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة :

— لماذا أتبعك ؟ . . . لماذا أهل أعمالي وألزم القهوة تحت نافذتك ؟ .

لماذا أهر الدنيا جميعاً مقبلاً بزقاق الدق ؟ . . . ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل ؟ !

فقطبت وقالت بازدياد :

— لست أسألك حتى تخبرني بهذه السفافات . ولكني أنكر عليك

أن تتبعني وتخاطبني . . .

فقال بلبحة جديدة تم عن الثقة والمباقة :

— الأصل أن تتبع الحسناء أينما سارت . هذه هي القاعدة . فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للإسكارحفاً ، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيدان بقرب القيامة . .

وسرت عند ذلك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض مسويحيها فتسنت أن يريتها وهذا الأفتدى يغارها . . ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فآتمرت قائلة :

— ابتعد . . . هذا حتى يعرفنى !

وكان يتفحصها بنظر ثاقب ، فأيقن أنها تجاذبه الحديث وهي لا تدري ، أو وهي تدري ، فارتست على شففيه ابتسامة لو رأتها لأطادت إلى رأسها ذكريات وحشية ، وقال لها :

— لا هذا إلى حيك ، ولا هؤلاء الناس أهلك ! . أنت شيء آخر . إنك ما هنا غريبة . . .

فأمن قلبها على قوله ، وسرت به سروراً لم تشعر بمثله لقول قبله . واستدرك الرجل قائلاً كالساخط :

— كيف تسيرين بجلاءك بين هؤلاء الفتيات ! . أين هن منك ؟ . . أميرة فى ملاءة ورعية ترفل فى الثياب الجديدة . . .
فقات بحدة :

— مالك أنت ولهذا ! . ابتعد . .

فقال محتجاً :

— لن أبتعد أبداً . .

فسأله بحدة :

— ماذا تريد ؟

فقال بجرأة عجيبة :

— أريدك أنت ، ولا شيء غيرك . . .

— ذممة . .

— سألته الله ، لماذا تفضنين ؟ .. أأست في الدنيا لتؤخذني ؟ ..
وإني لأأخذك ..

وسرا في طريقهما ببعض الدكاكين ، فقهرته قائلة :

— لا تخط خطوة واحدة ، وإلا ..

فقال مبتسما :

— الضرب ..

وخفق قلبها ، وتألمت عيناها ، فقالت :

— صدقت ..

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— سنرى . سأتركك الآن على رغمتي . ولكنني سأنتظرك كل يوم ،

لن أعود إلى القهوة حتى لا أثير الشبهات في الزقاق . ولكنني سأنتظرك

كل يوم . كل يوم ، مع سلامة الله يا أجل من حملت الأرض ..

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر والسرور

والفرور . « أنت شيء آخر » .. أجل ، وماذا قال أيضا ؟ « إنك ها هنا

غريبة » .. « أأست في الدنيا لتؤخذني ؟ .. وإني لأأخذك » .. وماذا

قال أيضا ؟ .. « الضرب » .. داخلتها لذة جنونية ، وسرور وحشي ،

فقطعت الطريق لا تسكاد ترى شيئا . ولما أوت إلى غرفتها واستردت أنفاسها ،

ذكرت في عجب وزهو أنها استطاعت أن تسير رجلا غريبا وتحادثه

بلا حياة ولا ارتباك ! .. وأنها تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردد .

وغمرتها موجة طارئة من الاستهانة والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية

ثم ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الأخذ بملايكة ! .. فاستول

عليها الوجوم لحظة قصيرة ، ثم جعلت تعتذر لنفسها بأنه لم يلقها بذلك الوجه

الصفيق المتحدى ، لا بل راح يحدسها حديثا رقيقا مؤدبا . لا عن وداعة

طبيعية ، فقلبها يحدسها بأنه غر يقين فرصة للوثوب . فلتنتظر .. لتنتظر

حتى يتكشف عن حقيقته ، وهنالک ؟ !

وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشي ..

كان الدكتور بوشى يهم بمفادرة شقته حين جاءته خادم الست سنية عفيفي
تدعوه لمقابلة سيدتها . وعبس وجه الدكتور وتساءل في إنكار « ماذا تريد
المرأة ؟ ! .. زيادة إيجار ؟ ! » ولكنه سرعان ما نفي هذا الظن عن خاطره ،
لأن الست سنية لا تستطيع ان تتحدى القوانين العسكرية التي تحدد أجور
المساكن في أثناء الحرب . وفادو شقته وارتقى السلم متجههم الوجه . كان
الدكتور بوشى — كمعادة السكان — يستثقل الست سنية عفيفي ، ولا يفتأ
يشهر بيخاها في كل زمان ومكان . وقد منع عليها يوما فقال إنها تفكر في
بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجر شقتها . وضاعف حقه
عليها أنه لم يقدر — ولو مرة واحدة — على الإفلات من أداء أجرة
شقته إليها . إذ كانت المرأة تستعين بالسيد رضوان الحسيني إذا خرج الأمر .
فلم يسر الرجل بهذه الدعوة : « ودق الباب وهو يتعمد قائلا « لطفك يادافع
البلاء » . وفتحت له الست بنفسها ، وكانت متلفعة بخمار ، ودعته إلى
حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس . ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب ،
ثم قالت له الست :

— دعوتك يا دكتور لتكشف على أسناني ..

ولاح الاهتمام في عيني الرجل ، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة
التي لم يتوقعها قط ، وشمر نحو الست بمودة لأول مرة في حياته وسأها :

— هل وجدت ألماً لا يسمح الله ..

فقالت الست سنية .

— كلا والحمد لله ، ولكنني فقدت بعض الضروس والأسنان ونفص

البعض الآخر ..

وتضاعف سرور الدكتور : وذكر ما تهاشم به أهل الزقاق من أن
الست مستندو عما قريب عروساً ، فلعيب العامع بقلبه وقال :

— الأوفق أن تركبى طقمها جديداً . . .

فقالت الست . .

— هذا ما فكرت فيه . ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك ؟

فنهض الرجل واقفاً واقترب منها وهو يقول :

— افتحى فمك . .

ففضرت المرأة فاهها ، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين : ولم يجد به إلا
أسناناً معدودات ، فدهش . وأحس ببعض الخيبة ، ولكنه حذر أن
يهون من خطورة عمله ، فقال فى تودة :

— يلزمنا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان . ولكن ربما اضطررنا
إلى الانتظار ستة أشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ راحتها .

ورفعت المرأة حاجبيها للزججين فى الزخاج ، وكانت تتوقع أن ترف إلى
بعلها فى بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر ، وقالت بحزع :

— لا . . لا ، أريد عملاً سريعاً ، لا يتأخر عن شهر بحال . .

فقال الرجل بمكر وخبيث :

— شهر يا ست صنية ؟ . . . مستحيل . . .

فقالت المرأة باستياء :

— إذن مع السلامة . .

فترى الرجل قليلاً ثم قال :

— هنالك سبيل واحد إن شئت . .

فأدركت أن الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث ، وامتلات حنقا عليه
ولكنها دارت حنقا لحاجتها إليه ، وسألته :

— ماهو ؟

— أن أركب لك طقمًا ذهبياً ، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع مباشرة . .

وانقبض قلبها خوفاً ، وراحت تفكر في تكاليف العقم الذهبي .
وكادت تنبذ اقتراح الرجل لو لا أن تذكرت العروس المرتقب ، إذ كيف
يمكن أن تلقى عروسها بهذا القم الخرب ؟ كيف تؤاثرها شجاعته على
الابتسام إليه ؟ وكان من المعروف لدى أهل الزقاق جميعاً أن أسرار الدكتور
يوثى هينة ، وأنه يستبضع طقومه من هنا وهناك بعبارة ويبيعها بأبخس
الأثمان ، فلا يسأل من أين يأتي بها ، ويحبسهم رخصها . ولكن الطقم
الذهبي — على رغم هذه الحقائق جميعاً — شيء له خطره ، فلذلك تخوفت
المرأة التي ألقت الحرج ، وسألته بغير احتفال شأن المستمن باقتراحه :

— وكم يكلفني الطقم ؟

فقال الدكتور الذي لم يخدع باستخفافها الظاهري :

— عشرة جنيهات !

وانزعجت المرأة التي تحبل الأثمان الحقيقية للطقوم الذهبية ورددت
قوله في إنكار :

— عشرة جنيهات !

وتميز الرجل غيظاً وقال :

— إن ثمنه لا يقل عن خمسين جنيهاً عند أولئك الأطباء الذين يتاجرون
بفهمهم . ولسكننا وأسفاه قوم سيئو الحظ . .

وتجاذبا الثمن الذي اقترحه ، هو يحاول أن يستمسك به ، وهي تروم
خفضه حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهات . وغادر الدكتور الشقة وهو
يلعن في سره المعجوز المتصاية .

وكانت الست سنية عفيفي ، تلك الأيام ، تلقى الحياة بوجه جديد ،
كما كانت الحياة تطل عليها بوجه جديد كذلك . بات الأمل السعيد قاب قوسين
أو أدنى ، وأصبحت الوحدة ضيفاً ضعيف الظل يأخذ أهبتها للرجل ،
وأوشكت البرودة الجائمة في روحها أن تذوب وتجري ماء دافئاً . بيد
أن السعادة لا تنهل بغير ثمن ، وبغير ثمن فادح أيضاً . ولقد عرفت هذا

التمن الفادح في ترددتها على حال الآثاء بشارع الأزهر ، وعمارض الشباب بالموسكى ، ومنعت تنفق مما اكتنزت ، ذاك الدهر الطويل ، بل وتنفق بغير حساب . وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها في حطبها وترطابها ، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة ، وبما تقدم لها من معونة في كل خطوة بخطوها ، أنها أكثر نفيس لا يقدر بشئ . وإن كان باهظ التكاليف في الوقت نفسه . ولم تقبض عنها يدها معللة نفسها برشك انتهاء هذه المحنة . على أن الآثاء والشباب لم تمكن كل شيء ، ولم يكن بيت العروس الشئ الوحيد الذى يستوجب التجديد . وإنما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والمناية والكرم ، وقد قالت يوماً لأم حميدة وهى تضحك في غير قليل من الارتباك :

— يا ست أم حميدة ، ألا ترى أن الهموم قد أشعلت الشيب في سوالي ؟ ! .

فقالت أم حميدة التى كانت تعلم أن الهموم بريئة مما ترميها به :

— نداوى الهموم بالصبغة ، وهل توجد ثمة امرأة لا تصبغ شعرها في زماننا هذا ؟ .

فضحكت المرأة بسرور وقالت :

— بورك فيك يا ست النساء كلهن . ترى ماذا كنت أفعل بحياتى لولاك أنت ؟

وتريثت قليلاً ، ثم مسحت على صدرها وقالت :

— رباه هل يرضى هذا الجسد الجاف عروسك الشاب . . . لا أئدا ، ولا أرداف ولا شئ ، مما يجذب الرجال !

فقالت أم حميدة :

— لا تستقلى نفسك ، ألم تعلمى بأن النجافة موضة وأية موضة ؟ ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصاً عجبية تسمنك في وقت قصير . . .

وهزت أم حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت ، قائلة :

— لا تخافى شيئاً مادامت أم حميدة معك . أم حميدة مفتاح سحرى

تفتح له جميع الأبواب المغلقة ، وغداً تلمسين قدري في الحمام إذا حوأنامعا .
وهكذا كرت أيام الاستعداد في نشاط وتعب وسرور وأمل ، وصبغ
شعر وتحضير عقاقير ، وخلع أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبية ، وبين
يدى ذلك كله تقود تنفق . تغلبت على عادة الحرص ، وطرحت معبودها
الأصفر عند قدمي الغد المرموق . وفي سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين
ونذرت له ما تيسر من مال وثريد للفقراء الذين يحدقون بجامعة ، كما نذرت
للشمراني أربعين شحمة .

وقد نال العجب من أم حميدة كل منال وهي تلاحظ هذا التغير الكبير
الذي قلب الست سنية رأساً على عقب ، فجعلت تضرب كفاً بكف
وتقول لنفسها :

— هل يستأهل الرجال كل هذا العناء ؟ . جلت حكمتك يا رب فأنت
الذي قضيت على النساء بأن يعبدن الرجال . . .

٢٢

استيقظ عم كامل من إغفائه الزمنية على رنين جرس ، ففتح عينيه .
وأنصت قليلاً ، ثم اشرأب بعنقه حتى برز رأسه من الدكان ، فرأى حنطوراً
معروفا يقف امام الرقاق ، فنهض في عناء وهو يقول بسرور ودهشة :
« رباه ، هل عاد السيد سليم علوان حقا ؟ » . وكان الحوذى قد زایل مقعده
وهرع إلى باب العرببة ليعين سيده على النزول ، واعتمد السيد على ذراعه ،
وغادر مجلسه في تؤدة ، فلاح طربوشه أولاً مندلق الزر ، ثم ظهر جسمه
مقوساً ، ووقف أخيراً على الأرض يصلح هندامه . حنجه المرض في أواسط
الشتاء ، وأطاده الشفاء في أوائل الربيع ، وقد غمرت برودة الشتاء القارصة
موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا طرباً . ولكن أى شفاء هذا ؟ !
لقد عاد السيد رجلاً آخر . اختفى الكرش الذي كان يشق الجبة والقفطان

وتقعر الوجه الممتلىء الدموى فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوح الشحوب بشرته ، وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين هابس . ولم يتبين عم كامل بادیء الأمر ما طراً على السيد من تغير لضعف بصره ، حتى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولاه الانزماج ، وانحنى على يده كأنما ليخفي انزعاجه ، وصاح بصوته الرفيع :

— حمداً لله على السلامة يا موى السيد . ذا يوم أبيض . والله والحسين ما يساوى الزقاق من غيرك قشرة بصلة ...
فقال له السيد سليم وهو يسترد يده :
— بورك فيك يا عم كامل ...

وسار متمهلاً متوكئاً على عصاه ، يتأثره الخوذى عن كذب ، ويتبعه عم كامل مترنحاً كالنفيل . والظاهر أن رنين الجرس قد أعلن حضوره ، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالمعال ، وأقبل من القهقهة المعلم كرشة والدكتور بوشى ، وأحاط به الجميع مهللين داعين ، ولكن الخوذى علا صوته وهو يقول :

— أفسحوا للسيد من فضلكم ، دعوه يجلس أولاً ثم ساموا ...

وأفسحت له الامة ، فواصل مسيره هابساً ، وفؤاده يغلى خنقا وغيظاً ، وقد ود لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه . وما كاد يطمئن به مجلسه وراء المكتب حتى أقبل عمال الوكالة يستبقون ، فلم يجد بداً من أن يسلمهم يده يقبلونها واحداً بعد آخر ، متأذياً من لمس شفاههم ، مخاطباً نفسه : « يا لكم من كذابين مرأين ! ... أتم والله أصل هذا البلاء ! » . وتفرق العمال فجاء المعلم كرشة وشد على يده وهو يقول :

— مرحباً بسيد الحى جميعاً . ألف حمد الله على السلامة ...
فشكره السيد . أما الدكتور بوشى فقد قبل يده وقال له بلبهة خطافية :
— اليوم يحق لنا الفرح ، واليوم تطمئن جنوبنا ، واليوم يتحقق لنا الدماء ...

فشكره أيضاً مدارياً تأففه ، لأنه كان يستكرد وجهه الصغير المستدير .

ولما أن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع :
« كلاب .. كلاب .. عضوني بحيونهم الحاسدة ! » وراح يطارد
أشباههم من مخيلته لينقى صدره مما استناره من حنق وغيط وتأثر . ولم
يترك خلوته طويلا . فجاءه كامل أفندي إبراهيم وكيله ومثل بين يديه ،
وسرطان ما نسي بمجيئه كل شيء إلا الحساب والمراجعة ، وقال له باقتضاب :
— الدفاتر ...

وهم الرجل بالتحرك ولكنه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرا هاما ،
وقال له بلهجة أمرية :

— نبه الجميع إلى أني من الآن فصاعداً ، لا أحب أن أشم رائحة تدخين
(كان التدخين قد حرم عليه بأمر الطبيب) ، وخبر إسماعيل بأنني إذا طلبت
إليه ماء أن يهني لي قدحا نصفه ماء عادي والنصف الآخر ماء دافئ .
التدخين في الوكالة ممنوع منعاً باتاً . والدفاتر بسرعة . .

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة ، متذمراً في باطنه لأنه كان
من مدمني التدخين . ثم طاد بعد قليل حاملاً الدفاتر . ولم يغيب عنه ما ترك
للمرض في طبع السيد من تغير وتبدل ، فركبه الهم ، وأيقن أنه مقبل على
حساب عسير . وجلس كامل أفندي قبالة السيد ، وفتح الدفتر الأول ،
وبسطه بين يديه ، فبدأت المراجعة . كان السيد في عمله محيطاً ماهراً لا تقوته
فائتة وإن دقت ، فأكب على مراجعة الدفاتر دفتراً دفتراً بهمة لا تكمل ولا
عمل ، غير راحم نفسه المتهالكة ، وقد اتصل في أثناء ذلك ببعض عملائه
متحققاً من مواعيد حضورهم ، مطابقاً بين أقوالهم وبين المدون في الدفاتر ،
وكامل أفندي صابر متجهماً لا يخطر له الاحتجاج على بال . ولم تكن المراجعة
بالشيء الوحيد الذي يتابعه بأفكاره ، فكان ينوء صامتاً بأمر تحريم التدخين
الذي استصحب به على غرة ، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين في الوكالة فحسب ،
ولكنه أضاع عليه في الوقت نفسه ما كان يتفضل السيد بتقديمه له من
سجائر كوتاردللي الفاخرة . وقد رمق الرجل المكب على الدفاتر بنظرات

غريبة . وقال لنفسه متذكراً ساخطاً « رباه . . لشد ما تغير الرجل ، هذا شخص غريب لا أعرفه ! » وعجب لشاربه الذي احتفظ رغم هذا التغير بفضيلته ونظامته في وجه طمست سماته ومعاله وعنى عليها المرض الخطير فكأنه نخلة سامقة في صحراء جرداء . وأخرجه الخلق والاستياء عن طوره فقال مخاطباً نفسه « من يدري ؟ . . لعله يستاهل ما نزل به : إن الله لا يظلم أحداً » . وانتهى السيد من المراجعة في زهاء ثلاث ساعات ، فرد الدفاتر إلى الوكيل . وهو يحسبه بنظرة غريبة ، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريبه ، ومع ذلك فلا تخلو نفسه من الريب . وجعل يخاطب نفسه قائلاً « سأعود المراجعة مرة أخرى لا بل مرات ، حتى أكتشف عما تبطن هذه الدفاتر . كأنهم كلاب . . . بيد أنهم أخذوا عن الكلاب نجاستها ، وزهدوا في أماتها ! » ثم خاطب الوكيل قائلاً :

— لا تنس ما نهيتك إليه يا كامل أفندي : رائحة التدخين والماء الدافئ . . وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الطواجات فيناؤه بالسلامة ، ثم خاضوا فيما لديهم من الأعمال ، وقد أراد بعضهم أن يؤجل عمله تخفيفاً عنه ، ولكن قال باستياء :

— لو كنت عاجزاً عن العمل ما جئت الوكالة . .

وما كاد يخلو إلى نفسه حتى استبدت به أفكاره الناقمة الموتورة ، فراح يصب غضبه — كدينه في هذه الأيام الأخيرة — على الناس أجمعين . ولطالما قال عنهم إنهم حسدوه ، وإنهم تفسوا عليه الصحة والوكالة والخطور وصينية الفريك ، فلعنهم من أعماق الفؤاد . وكثيراً ما كان يردد هذه الظنون في أثناء مرضه ، ولم تنج زوجته نفسها من شر ظنونه ، فشدجها يوماً بنظرة شذراء ، وهي تجاس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يهدج ضعفاً وسخطاً :

— وأنت يا ست لك نصيبك من هذا ، فطالما دوختني بقولك إن

أيام الصينية انتهت ، وكأنك تنهين على حتى ، فالآن كل شيء انتهى
فقرى عيناً . . .

وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلاً : ولكنه لم يرق لها ، ولم
يلن من حديثه واستدرك يقول مغيضاً عنقاً :

— حسدوني . . . حسدوني ، حتى زوجي وأم أبنائي قد حسدتي . . .
ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه ، فقد كان الموت قبل
ذلك تخايل لصينيه غير بعيد . وإن ينس لا ينس تلك الساعة المروعة المزلزلة
ساعة الأزمة . كان يتيمياً للجوع حين أحس بنغصة تصدع لها صدره ، وشعر
بحاجة ماسة إلى تنفس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير ، وكان كلما
حاول المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع ، حتى استسلم في قنوط وعذاب
صيرين . وجاء الطبيب وتجرع العقاقير ، ولكنه لبث أياماً يراوح بين
يقظة الحياة وغيبوبة الموت . وكان إذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى
ببصر زائف زوجته وبناته وأبناءه محلقين به ، محمرة أعينهم من البكاء .
وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التي يفقد الإنسان فيها كل إرادة على جسده
وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين
ولا تسكاد تربط بينها رابطة .

وفي اللحظات القليلة التي استرد فيها شيئاً من وعيه كان يتساءل في
رجفة باردة « هل أموت ؟ ! » . أيموت وحوله الأهل جميعاً ؟ ! . ولكن
الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلا منتزعا من أيدي أحبائه ، فإذا أفاد
الأموال تعلق الأحباء بهم ؟ ! . ورغب ساعته أن يدعو الله وأن يستشهد ،
فخانه ضعفه ، وتصاعد الدماء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف .
ولم ينسه إيمانه — على رسوخه — أهوال تلك الساعة ، فاستسلم جسمه
على رغبته أما روحه ، فتعلقت بأهداب الحياة في فزع وجزع ، حتى سحبت
عيناه دمعاً مدراراً ، ونطقت نظرتهمما بالاستصراخ والاستغاثة . ولكن
كان في الأجل بقية ، فجاز طور الخطر ، وبلغ بر النقاهة . وتراجع إلى

احضان الحياة رويداً رويداً ، ومنى نفسه باسترداد صحته ومافيته وسابق مسيرته ، ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتمصرت أمنيته ، وقضت على أماله ، ولم تبق له من الحياة إلا على شيء يسير . أجسل ، نجا من الموت ، ولكنه انقلب شخصاً جديداً ذا جسم رقيق وروح مريض . وبكروار الأيام استغل مرض روحه فصار ضجراً وتمرداً وكراهية وعبوساً . وقد عجب هذه العثرة التي اعترضت سبيل حظه ، وتساءل بأى ذنب آخذه الله سبحانه ؟ وكان ذا ضمير من هذه الضمائر الراضية التي تقم الأعداء لأصحابها وتحسن مسالكهم . وتفنى عن أخطائهم ، وكان يحب الحياة حباً جماً ، فتمتع بماله ومتع به آله ، والتزم — فيما يظن — حدود الله . فاطمأن بذلك إلى الحياة اطمئناناً عميقاً . حتى انتبه منه على هذه الهزة العنيفة التي ذهبت بصحته ، وأوشكت أن تذهب بعقله . ما ذنبه ؟ لا ذنب له . ولكنهم الناس ، الناس غرماؤه ، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدى . وهكذا أمر من نفسه ما كان حلواً ، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم . والحق إن ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه .

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه في الوكالة : أحقاً لم يبق له من الحياة إلا أن يقبع في هذا المكان ويراجع الدفاتر ؟ ! وتراءى له وجه الحياة أشد تجهماً من وجهه . وجد كالتمثال ، ومضى وقت لا يدريه وهو غارق في أفكاره ، حتى سمع حساً عند مدخل الوكالة ، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجدور . ولاحت في عينيه نظرة غريبة ، فسلم : وألصقت برقع انتباه إلى دعاء المرأة وترحيبها . وقد شغلته الذكريات القديمة مما عداها . أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنها شيء لم يكن ؟ ! . لقد طافت به ذكراها في نومه مرات ، ومرت به دون أن تترك أثراً . لم يأسف عليها بمثل ما طمح إليها ، ثم أنسىها بعد ذلك كأنها شيء لم يكن ، أو كأنها كانت نقطة في دم الصحة الذي كان يجري في عروقه ، فلما أن فاض ونضب تطايرت

في الهواء . وغابت من عينيه النظرة القريبة التي رسمتها الذكريات . وحاد بصره إلى جموده ، فشكر المرأة حضورها لتهنئته ودهاها للجلوس . ووجد مضايقة في حضورها كادت تنقلب كراهية . وتساءل عما دهاها للمجيء ، حقاً ، أهو التهنئة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة ؟ ! . ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه ، لأنها كانت آتت منه منذ أمد بعيد . ومع ذلك قال لها وكأنه يعتذر :
— أردنا ... وأراد الله ...

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجالة :

— لا عليك من هذا ياسى السيد ، وما نسأل الله إلا الصحة والعافية . وسامت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالا وأشد انقباضاً . وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حناء من بين يدي حامل ، فاشتد به الغضب ، وانتهره بقسوة صائحا :

— ستفلق عما قريب الوكالة أبوابها ، فابحثوا عن مرتزق جديد ! .

ولبت برهة ينتفض من شدة الغضب والتأثر . وكأن هذا الغضب ذكره بما اقترحه عليه أبنائه أخيراً من تصفية أعماله والخلود للراحة ، فتضاعف غضبه وهياجه . وجعل يقول لنفسه إنها ليست راحته التي يبتغون ، ولكن المال . ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقاً وهو في عنفوان قوته ؟ ! . فالمال طلبتهم ، لا صمته ولا راحته . ونسى في غضبه أنه — هو نفسه — كبر عليه أن تنحصر آماله في العمل في الوكالة ، وألا يجد من لذة في الحياة إلا إرهاق النفس في جمع مال لا يستطيع أن يتمتع به ، ولكنه العناد الذي أولع به أخيراً ، وسوء ظنه بالناس جميعاً الذي لم ينج أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره ... ! . وقبل أن يفيق من حمى الغضب والهباج سمع صوتاً جهورياً يقول في عمق وحنان معاً :

— حمد الله على السلامة . . السلام عليكم يا أخى ...

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسيني مقبلاً ،

بجسمه الطويل العريض ، ووجهه المشرق المتألق : فانبسطت أساريره لأول مرة ، وهم بالوقوف ، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبيه وهو يقول :

— حلفتك بالحسين إلا ما جلست ..

وتصافحاً بحرارة . وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرات في أثناء مرضه ، ولما لم يمكنه مقابلة بعث له بتحياته ودعواته . وجلس السيد على مقعد قريب وراح يتحدثان في رقة ومودة . قال السيد سليم علواق بتأثر شديد :

— نجوت بأعجوبة . . . !

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادئ :

— الحمد لله رب العالمين . نجوت بأعجوبة ، وتميشت بأعجوبة . كلنا — لو تعلم — نعيش بأعجوبة . إن استمرار حياة المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهية ، فعمر أى إنسان فان سلسلة من المعجزات الإلهية ، وما بالك بأعمار الناس جميعاً ، وحيوات الكائنات جميعاً ؟ . . . فلنشكر الله بكرة وأصيلاً ، أثناء الليل وأطرافه النهار ، وما أتفه شكرنا حيال هذه النعم الربانية . . . وأصغى إليه في جمود . ثم تتم قائلاً بمسحور :

— المرض شر قبيح . . .

فابتسم السيد رضوان وقال :

— ربما كان كذلك في ذاته ، ولكنه من ناحية أخرى امتحان إلهي ، وهو من هذه الناحية خير . . .

ولم يرتح الرجل لهذه الفلسفة ، وحنق بغتة على قائلهما ، فضاع الأثر الطيب الذى أحدثه مجيئه ، ولكنه لم يستسلم لاتفعاله على غير عادته أخيراً وقال بلفظ وشت بتذمره :

— ماذا فعلت حتى ينزل بي هذا العقاب ؟ ... ألا ترى أنى فقدت
صحتى إلى الأبد ؟ !

فعبث السيد بلحيته الجميلة ، وقال بشيء من المعاتبة :

— أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة ؟ ... حقاً إنك رجل
طيب ، بار ، كريم ، قوام على الفرائض ، ولكن الله امتحن عبده أيوب
وهو نبي ، فلا تأس ولا تحزن ، وأبشر بالإيمان خيراً ...
ولكن الرجل زاد أفعاله . وقال بحدة :

— أرايت إلى العلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال ؟

— إنك بمرضك خير منه بصحته وطافيته ...

وغلبه الغضب ، فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال :

— إنك تحدث فى مسكينة وطمأنينة ، وتمظ فى ورع وتقوى ، ولكنك

لم تدق بعض ماذقت ، ولم تخسر شيئاً مما خسرت .

وتطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه . ثم رفع رأسه وعلى
شفتيه ابتسامته الحلوة ، وحده بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين ، وسرطان
ما استمكن غضبه وفتر أفعاله ، وكأنه يذكر لأول مرة ، أنه يخاطب أكبر
مصاب من عباد الله ، وطرفت عيناه ، وتورد وجهه الشاحب قليلاً ، ثم قال
بصوت ضعيف :

— أعذرني يا أخى ، إني تعب مرهق ...

فقال السيد ولما تمارق الابتسامة شفتيه .

— لا عليك من هذا . قواك الله وسامك . اذكر الله كثيراً . فبذكر

الله تطمئن القلوب . ولا تدع الأسمى يغلب عليك إيمانك أبداً . فالسعادة

الحقة تترد عنا على قدر ما نرتد عن إيماننا ...

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحمق :

— حسدوني . نكسوا على المال والجاه ... حسدوني ياسيد رضوانى . !

— الحسد شر من المرض ، وإنه لمن المحزن حقاً ، أن الذين ينكسون

على إخوانهم حطيم من المتاع الفاني كثيرون . لا تأس : ولا تحزن ، وسلم
إلى الله ربك الرحيم الغفور . . .

وتحدثنا طويلاً ، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف ، ولبت الرجل
هنيهة كالهادي ، ثم أخذ يعود رويداً رويداً إلى عبوسه وتجهمه ، ونبا به
القمود طويلاً ، فنهض قائماً ، ومشى متميلاً إلى باب الوكالة ، ووقف عند
مدخلها شابكا يديه وراء ظيهره . كانت الشمس تملو كبد السماء ، والجو دافئاً
مشرقاً . وقد بدا الرقاق كالمقفر في تلك الساعة من الظهيرة ، اللهم إلا الشيخ
درويش الذي جلس أمام القهوة يتشمس . فلبث السيد ملياً ، ثم تلفت —
بحكم عادة قديعة — نحو النافذة ، فوجدتها مفتوحة خالية ، وكأنه ضاق
بوقفه فرجع إلى مجلسه متجنباً عابساً . . .

٢٣

« . . . لن أعود إلى القهوة . حتى لا أثير الشبهات . . . » ، هذا ما قاله لها
عند افتراقهما . وقد ذكرته حميدة في صباح اليوم التالي لمقابلة الدراسة ،
ذكرته بخيال حتى يقظ سميد . وتساءلت أتدجب للقاء اليوم ؟ فأجاب
قلبا « نعم » دون خفاء . ولكنها قالت بعناد « كلا . . . يجب أن يعود
إلى القهوة أولاً » . وامتنعت عن الخروج في موعدنا للأوف ، وقبعت
وراء النافذة تنتظر ما يكون . وانصرفت ساعة الغيب ، وأطبق الليل
ناشراً جناحيه ، وعند ذلك أقبل الرجل من أسفل الرقاق مصوباً عينيه
نحو الزيق الذي انخرج عنه خصائص النافذة تلوح في وجهه ابتسامة تتم
عن التسليم . وجلس على كرسيه المختار . وشعرت وهي تراقبه بهجة
الانتصار ، ولذة الانتقام لعذابها يوم أعيائها العثور عليه في الوسكى .
والثقت عيناها طويلاً — دون أن تغضى أو ترتد عن موقفها — فازداد
ظل ابتسامته امتداداً ، ووشى وجهها بابتسامة وهي لا تدري . ما ذا ينبغي

يا ترى ؟ وبدأ لها هذا السؤال غريباً ، إذ أنها لا تدري لمثل إخطابه في طلبها إلا معنى واحداً ، سعى إليه من قبل عباس الحلو ، وطمع إليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر ، فماذا لا يكون غاية هذا الأفتدى الوجيه ؟ . . . أو لم يقل لها « ألت في الدنيا لتؤخذى ؟ . . . وإني لأخذك . . . » ؟ . . . فما عسى أن يعنى هذا إن لم يعن الزواج ؟ ! ولم يعق أحلامها طائق ، لشدة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل وغرورها بالجامع . وجعلت تنظر إليه من وراء خصاصها المنهرج ، وتتلقى نظراته المسترقة باطمئنان وثبات وبلا تردد . وحادثتها عيناه حديثاً عميقاً يعنى اللسان والحواس جميعاً ، فتردد صدها في أعماق نفسها محرراً غرائزها . ولعلها وجدت هذا الشعور العميق الصادق — وهي لا تدري — يوم التقت عينها أول مرة ، يوم حجبها بنظرتها العارمة المتحدية ، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظافرة ، فأنجذبت إليه كما تنجذب إلى المعتزك المستعز . وألحق أنها عرفت قدراً من نفسها على ضوء عينيها ، فلم تعد الضالة في متاهة الحياة ولم تعد الحائرة إلى نظرة عباس الحلو الوديعه وثروة السيد علوان الطائفة ، ولسكنها شعرت بأن هذا الرجل طلبتها ، وأن ما يستثيره في صدرها من الأفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذتها التي تجذب إليها بفطرتها ، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب ، وأنه رجل من غير الخثالة التي يستعبد لها الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه المالية . وراحت تنو إليه بعينين متلقتين تذكيان ضياء من وجد وتوثب ، ولم تبرح مكانها حتى غادر القيوة وهو يودعها بابتسامة خفيفة ، فأتبعته ناظريها وهي تقول وكأنها تنو عده « غداً » .

وفي عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدى والهيام بالحياة . وما كادت تخرج من الصناديق حتى رأتته عن بعد واقفاً عند ملتقى النورية بالسكة الجديدة ، فلاح في عينيها لمعة خاطفة ، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب ، هو مزيج من السرور والرغبة الوحشية في القتال !

وقد رت أنه سيتبعها في الذهاب والإياب حتى يخلو لها الجو في الدراسة ، فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء ، واثرت به منه كأنها لا تراه ، ولكن حدث — وهي تمر به — ما لم يقع لها في حسابات : فقد سار معها ومد يده بجرأة لا توصف فقبض على راحتها ، وقال لها بهدوء متجاهلاً المارة والواقفين :

— مساء الخير يا عزيزتي . .

أخذت على غرة ، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفعل ، وخافت إن أهدت الكرة أن تستنفذ الأنظار ، فاستولى عليها الارتباك والفيظ ، ووجدت نفسها بين اثنتين فأما غضب وفضيحة وجرسه ثم قطيعة ، وإما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها فرضاً وقهراً ، فامتألت حنقا ، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب :

— كيف تجرؤ على هذا ؟ . . دع يدي بسرعة . .

فأجابها بهدوء وهو يمشي إلى جانبها كأنهما صديقان ينطلقان معاً :

— حاملك . . حاملك ، لا كافة بين الأصدقاء . .

فقالت وهي تتميز غيظاً :

— الناس . . . الطريق . . .

فاستعطفها بالبتسامة قائلاً :

— لا تبالي أناس هذا الطريق ، فهم مجانين المال ، ولا يرون إلا مافي

رء وسهم من حسابات . هلا ملت إلى دكان صائغ فأنتق لك منه حلية تليق بحسبك . . ؟

فاشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد :

— أتمظاهر بأنك لا تعبأ شيئاً ؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— لست أقصد إثارتك ، ولكنني انتظرتك ليمشي معاً ، فقيم غضبك ؟

فقالت بحدة :

— إني أمقت هذا التهميم فاحذر أن تخرجني عن وعي . .

وطالع نذر الشر في وجهها فسأها في رجاء :
— أتعديتني بأن نسير معاً ؟

فهيئمت به :

— لا أعد شيئاً . . . دع يدي . .

فأطلق يدها دون أن يعتمد عنها ، وقال لها متملقاً :

— يالك من جسارة عبيدة ، هالك يدك ، ولكننا لن نفترق ،
أليس كذلك ؟

وتنهدت في غيظ ، ونظرت إليه شيزراً وهي تقول :

— يالك من سمج مغرور !

فتقبل الشتيمة بابتسام وصمت ، وسارا جنباً لجنب دون أن يعتمد عنه ،
وذكرت كيف تربصت له بالأمس القريب لتمثل به في هذا الطريق ، ولكنها
الآتي لا تفكر في هذا وحسبها أنها أجبرته على إطلاق يدها ، بل لمه لو حاول
استردادها مرة أخرى لما منعت ، وهل كانت غادرت بيتها وفي عقلها شيء غير
لقاته ؟ ! . وفضلاً عن هذا كله فقد ساءها أن يبدو أشد طمأنينة وجسارة
منها ، فسارت إلى جانبه غير حابئة بالسابلة ، متخيلة ما سيحدثه منظره في نفوس
فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد ، وسرطان ما عاود قلبها الشوق
والاستهانة والرغبة الجارحة في الحياة والمغامرة . . وراح الرجل يقول :

— إني أعتذر عما بدر مني من خشونة ، ولكن ما حيلتي في عنادك ؟ !
تعمدت تعديبي ، وما أستحق إلا عطفك جزاء ما أكن لك من عاطفة صادقة
وما أبذل في سبيلك من عناء متعب . .

ماعسى أن تقول له ؟ إنها ترغب أن تخاطبه ، وأن تبادله الحديث ،
ولكنها لا تدري كيف ، خصوصاً وأن آخر ما نطقت به كان نهراً وشتيمة ،
وقطع عليها تفكيرها أن رأَت صويحباتها مقبلات غير بعيدات ، فقالت
بارقاع كاذب :

— صاحباتي .

ونظر الرجل فيما أمامه فرأى الفتيات وقد ركن عليه نظرات متفحصة .
وعادت تقول بليغة تنم عن التانيب ، وهي تدارى سرورها :
— فضيحتي . . .

فقال بازدراء ، وإن سره أن تلازم جانبه ، وأن تخاطبه خطاب الرفيق
للفريق . . .

— لا عليك منهن . . . فلا تباليهن . . .

واقترب الفتيات ، فبادلتهن نظرات ذات معان ، وهي تذكر بعض
ما قصصن عليها من مفاخرات ، ثم مررن بهامتضاحكات متهامسات ، وعاد
الرجل يقول بخبت ودهاء :

— أهؤلاء صاحباتك ؟ . . . كلا ، لا أنت منهن ولا هن منك ، ولكنني
أعجب كيف يتمتعن بحريتهن بينما تقبعين أنت في البيت ، وكيف يرفلن في
الثياب الزاهية بينما تلتحفين أنت في هذه الللاء السوداء . . . كيف حدث هذا
يا مليحة ؟ . . . أهو الحظ ؟ ولكن يالك من صابرة متجلدة . . . !
وتورد وجيباً ، وخيل إليها أنها تصفى إلى قلبها يتحدث ، وقبست عينها
جذوة من قلبها المستعر حماساً و عاطفة . واستدرك الرجل بثقة و يقين :
— هذا حسن خليق بالنجوم . . .

وابتهلت هذه الفرصة لتبادله الحديث . فعطفت نحوه رأسها مبتسمة
بجراتها الفطرية وتساءلت وهي لا تدري ما يعنيه :
— النجوم ؟ !

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال :

— نعم . ألا تذهين إلى السينما ؟ . . . يدعون الحسناوات من الممثلات
بالنجوم .

وكانت تذهب إلى سينما أولمبيا مع أمها في فترات متباعدة لمشاهدة
بعض الأفلام المصرية ، فأدركت ما يعنيه ، وغمر شعورها سرور راقص
لاحت آثاره الوردية في خديها ، وساد الصمت خطوات ، ثم سألها برفقة :

— ترى ما اسمك ؟

فقلت بلا تردد :

— حميدة . .

فقال مبتسماً :

— أما الذى سمعته ليه ففرج إبراهيم . فى مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف ، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا انهما واحد . أليس كذلك يا ست الملاح ؟

لبيتها تتقن الكلام كما تتقن السب والمراك مثلاً ! . إنه يحسن الحديث ولاكنها عاجزة عن مجاراته ، وقد ضايقها ذلك ، ولم تقنع بالدور السلبي الذى يلعبه بنات جنسها ، وتشوقت بفطرتها إلى شيء آخر ، غير الانتظار والسكوت والحياء ، ولما كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور . فقد ساورها قلق وانفعال ، وحدجته بنظرة ثاقبة . وزاد من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق ، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت ، ولم تر بداً من أن تقول وهى تدفن حسرتها فى أعماقها :

— الآن نعود .

فقال بإنكار

— نعود !

— هذه نهاية الطريق . .

فقال محتجاً .

— ولاكن الدنيا لا تنتهى بانتهاء الموسكى ، لماذا لا نجول فى الميدان ؟

فقلت على رغبتها :

— لا أريد أن أتأخر عن موعد عودتى أن تقلق أمى . .

فقال بإغراء :

— إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة فى دقائق معدودات .

تاكس ! . رنت الكلمة فى أذنيها رنيناً عجيباً . ولم تكن ركبت فى حياتها

إلا العربية السكارو . ومضت ثوانى قبل أن تفيق من سحر السكامة المجدبة ،
بيد أن الأمر لا يخرج من اعتبار آخر هو ركوب التاكس مع رجل غريب ،
إلا أنها وجدت في هذا الاعتبار داعياً للهجوم لا للشكوى ، وتولاها
نزوع طاغ إلى المغامرة ، كأنما لقيت فيه ترويحاً عن ذاك الشعور القلق
المكتوم الذى أعياها الإفصاح عنه قبل ذلك بقليل . ولم تكن تدري أن
بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة ، حتى ليتعذر القول أيهما كان
أشد استحوذاً على مشاعرها في تلك اللحظة : الرجل الذى حرك أعماقها
أم المغامرة ذاتها ، ولعلهما كانا الاثنين معاً . ولاحت منها نظرة إليه فرأته
ينظر إليها باغراء وعلى شففيه ظل من الابتسامة التى طالما أهاجتها ، فتغير
شعورها وقالت :

— لا أريد أن أتأخر ..

فشعر بخيبة وقال متأسفاً :

— أخافين ... ؟

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد :

— لست أخاف شيئاً ..

فأضاء وجهه ، وكأنه عرف أشياء وأشياء ، وقال بسرور :

— سأدعوك تاكس ..

وكنت عن المعارضة ، وثبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من
موقفهما حتى وقف قبالتها ، وفتح الباب لها ، فالتحنت قليلاً خافقة الفؤاد
وهى تقبض على مساك ملاءتها ، وصعدت إليه . وتبعها الرجل وهو يقول
لنفسه بارتياح « وفرنا تعب يومين أو ثلاثة أيام » . ثم سمعته يقول للسائق
« شارع شريف باشا ... » . شريف باشا ، لا المدق ولا الصناديق ولا الغورية
ولا حتى الموسيقى ، شريف باشا ! . . . ولكن لماذا عين هذا الشارع
بالذات ؟ ! . . . وسألته :

— أين تقصد ؟

فقال ، وكان كتفه يمس كتفها :

— نجول قليلاً ثم نعود . . .

وتحرك التاكس فتناست كل شيء ، إلى حين . حتى ذلك الرجل الذى يكاد يلتصق بها . وقلقت عينها بين الأنوار التى تتخطفها ، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة . وانتقلت حركة التاكس إلى جسمها وروحها ، فانبعثت فى نفسها نشوة مطربة ، وتميأ لها أنها تطير طيراناً ، وتخلق فى سماء الدنيا ، وكأن وجدانها من البهجة يسجع شادياً متجاوباً مع انسياب الحركة وتجدد المناظر والأنوار ، حتى تألفت عينها بوميض مشرق ، وافتر ثفرها عن إشراق وذهول . وجرى التاكس فى خفة ، يخصوص خضماً من العربات والسيارات والترام والناس ، وجرى معه خيالها ، فاستبحر حماسها ، وسكرت مشاعرهما ، ورقص قلبها ودمعها وخواطرها . ثم أفاقت إفاقة مباغمة على صورته يمس فى أذنها قائلاً « انظرى إلى الحسان كيف يرفلن فى ثيابهن النورانية ! » . أجل . . . إنهن يتمايلن مبعثرات كالأكواب المنيرة . . . ما أجملين ، ما أبدعين ! . وذكرت عندذاك لحسب ملاءمتها وشبشبها ، فانقبض قلبها ، واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لغة عقرب . وعضت على شفتها فى امتعاض ، ثم تملككتها مرة أخرى روح التمرد والثورة والعراك ! . وتنبت إلى أنه التصق بها وهى لا تدري ، فأخذت تستشعر منه الذى انتشر فى حواسها ، وحمى به قلبها ، فهفت إليه بقوة فوق إرادتها . ورنأ إليها بلحظ كأنما يستطلع ميولها ، ثم تناول راحتها بلطف وجعلها بين راحتيه ، وتشجع باستسلامها فهوى بفعه إليها ، وكأنها أرادت أن تنقيه فألقت برأسها إلى الوراء قليلاً ، ولسكنه لم يجد فى ذلك رادها كافياً فطبع شفتيه على شفتيها وسرت فى أعماقها رعدة ، وشعرت برغبة جنونية تدعوها إلى أن تعض شفتيه حتى تدميهما . . . رغبة جنونية حقاً ، ركبتهما كما يركبها عفريت المراك ، ولسكنه ارتد عنها قبل أن تنفذها ! ولبثت شعلة الجنون متأججة

في صدرها تهيب بها إلى أن ترتقى على صدره وتنشب أظافرها في رقبته ،
حتى ألقنها منها صوته وهو يقول برقة :

— هذا شارع شريف باشا ، .. وهذا بيتي على بعد خطوات ، ألا تحمين
أن تريه ؟ !

والفتفت متوترة الأعصاب إلى حيث تومئ سبابته فرأت عمارات
تناطح السحاب لم تدر أيتها يعنى . وأمر الرجل السائق بالوقوف أمام
واحدة منها ، وقال لها :
— في هذه العمارة ...

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق ، ثم
ارتد عنها طرفها في حيرة ، ثم سألت بصوت منخفض :
— في أى طابق ... ؟

فقال مبتسما :

— الأول . لن تتجشمي مشقة إذا تفضلت بزيارتها ...
فرمقته بنظرة حادة منتقدة فاستدرك قائلا :

— ما أسرع غضبك ! .. ومع ذلك دعيني أسألك ما وجه العيب في
ذلك ؟ ألم أزرك دوما منذ وقعت عليك عيناى فلماذا لا تردى الزيارة
ولو مرة واحدة ؟

ماذا يريد الرجل ؟ .. أتحدثه نفسه بأنه وقع على صيد سهل ؟ ..
أأطمعته القبة التي استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر ؟ .. هل أعماه غروره
وشعوره بالظفر ؟ .. وهل هذا مآل الحب الذي أفقدها وعيا ؟ .. واشتعل
الغضب بقلبيها ، وتوثبت جميع قواها للنضال والتحدى ، وتمنت لو تطاوعيا
تقسما على السير معه إلى حيث يريد ، لتريه من نفسها ما يحيل ، ولترد إليه
صوابه . أجل ، دحاها شعورها المتمرد الجامح إلى خوض غمار هذه المعركة
وهل كان في وسعها أن تدعى إلى النزال ثم تعرض عن الداعى ؟ ألم يكن
الذي يستفزها غضب للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهذه جميعها اعتبارات لم

تألف الغضب لها أو الغيرة عليها ولكنه غضب لكبريائها وشعورها الطاغى بقوتها ورغبتها الجنونية في الملاحاة والعراك ، ولم تخل أيضا من جنون المفارقة الذي قذف بها إلى التاكس ! وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه في تفكير وسخرية معاً « محبوبتي من النوع الخطر الذي يفرقع باللمس فيستوجب العناء الشديد والترويض الماهر » ، ثم قال لها برجاء ورقة :

— أرجو أن أقدم لك قدحا من الليمون . .

ورمته بنظرة قاسية متحدية ، ثم غمغمت :

بـ لك ماتشاء . .

وفتح الباب مسروراً ، وانزلق إلى الطريق ، وتبعته على الأثر باستهانة وجرأة ، ووقفت تتفحص السكان والرجل يدفع الأجرة للسائق . وجرت خواطرها إلى الزقاق الذي خرجت منه اليوم ، وعجبت للمفاصرات التي اقتحمتها غير هيابة حتى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة ! . من يصدق هذا ؟ ! . وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسيني مثلاً لو راها تمرق إلى هذه العمارة ؟ . وارتسمت ابتسامة على شفتيها ، وداخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق ! .

وهرع الرجل إليها ، وأخذ يدها ، فدخلوا إلى العمارة معاً . وارتقيا سلماً عريضاً إلى أول طابق ، ثم سارا في ردهة طويلة إلى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحاً طالع به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح « اكتسبت يوماً أو يومين آخرين ! » ، ثم دفع الباب وأوسع لها ، فدخلت ودخل وراءها ، ثم أغلقه . وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحديق به الحجرات من الجانبين ، ويضيئه مصباح كهربائي قوى الإشعاع . ولم تكن الشقة خالية ، ففضلاً عن المصباح الذي كان مضاء قبل مجيئهما ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة ، كلام وزعق وغناء ! . واتجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه ، ودعاها للدخول ،

فانتقلت إلى حجرة متوسطة ، مؤثثة بمقاعد جلدية مابين كراسي وكنبات ،
توسطها سجادة مربعة مزركشة ، وفي الصدر منها صراة مصتولة تناطح
السقف ، وتنفض على منضدة مستطيلة مذهبة الأرجل ، وقد طالع الرجل
نظرة الدهشة الحائرة في عينيها بسرور وقال لها بلطف :

— اخلعي ملأئك وتفضلي بالجلوس ..

فاقتعدت كرسيا دون أن تخلع ملأئها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده
ومعهده الطريين ، وتمتت بلهجة تنم عن التحذير :

— ينبغي ألا أتأخر ..

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها « ترموث » وفض سدادته
وأفرغ منه في قدحين (شراب الليمون المشاوب) ، وقدم لها قدحا
وهو يقول :

— سيعود بك التاكس في دقائق ..

وشربا مصاحي رويا ، ثم أحاد القدحين إلى المائدة ، وفي أثناء ذلك
استرقت إليه نظرات فاحصة ، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق ، وثبتت
عينها غير قليل على يده فراءها جماها وجاذبيتها ، كانت جميلة التكوين ،
رشيقته ، سبطة الأنامل ، توحى بالقوة والجمال معاً ، فهاها منها تأثير عجيب
لم يجده لغير نظراته من قبل . وجعل يطيل النظر إليها مبتسما ابتسامة رقيقة
كأنما يطمئنها ويشجعها ، ولكنهما لم يداخلا ظل من الخوف وإن توترت
أعصابها قليلا من الحذر والتوجس والتوثب ، وذكرت الأصوات التي
سمعتها حال دخولها الشقة ، فمجبت كيف أنسيتها ، وسالته :

— ما هذه الضوضاء في الشقة ؟

فأجابها قاثلا وكان لا يزال واقفاً قبالتها :

— بعض الأهل وسوف تعرفينهم في الوقت المناسب ... لماذا لم

تخلعي ملأئك ؟ .

وكانت ظننته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته ، فمجبت كيف يقودها

إلى بيت مأهول . وتجاهلت سؤاله الأخير ، ولبتت ترنو إليه بسكينة
وتحدي . ولم يهاود سؤاله ، وليكنه اقترب منها حتى مس حذاؤه شيشها ،
ومال نحوها قليلاً ثم مديده إلى يدها فشد عليها ، وجذبها برقة وهو يقول :
— هلمى نجلس على السكينة .

ولم تمنع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنباً لجنب على كنبه كبيرة .
وكانت تتقاسمها في تلك اللحظة مشاعر الليل إلى الرجل الذي تحبه وأحاسيس
التحدي للرجل الذي قد تمنيه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقتها .
واقترب الرجل منها رويداً حتى لاصقها ، ثم أحاط خاصرتها بذراعه ، وهي
مستسامة ساكنة لا تدرى متى يحق لها المقاومة ، ومد يسراه إلى ذقتها
فرفع ثفرها إليه وهوى بضمه متميلاً كأنه ظمآن يكرع من جداول ، حتى
التقت الشفاه . وطلال التقاؤها كأنما أخذتهما سنة من الغرام . وأما هو
فكان يستجمع حرارته وقوته في شفتيه لينفذ بهما إلى ما يريد ، أما هي
فكانت تسكر وتثمل إلا أن توثبها أفسد عليها رقية السحر التي تحرق
شفتيها فظلت متنبهة متربصة . وأحسّت يده تسترخي عن خاصرتها ، وترتفع
إلى منكبيها ، ثم تهفو الملاء عنه ، تحفق فؤادها بعنف ، وتصلب عنقها
مبتعدة عنه ، وأطادت الملاء بحركة عصبية إلى موضعها وهي تقول بحمها :

— كلا . . .

ولنظر إليها بدهشة فوجدتها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعناد
والتحدي ، فابتسم متباليها وهو يقول لنفسه « هي كما ظننت متعبة ، بل
متعبه جداً » . . ثم خاطبها قائلاً بصوت منخفض :

— لا تؤاخذيني يا عزيزتي فقد نسيت نفسي . . .

وأدارت وجهها عنه لتخفي ابتسامه ارتسمت على شفتيها مروراً بالظفر .
ولكن ذلك لم يطل أمدّه فقد وقع بصرها اتفاقاً على يدها فأدركت لأول
وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة ، وتولاها الحياء ثم قالت
له باستياء :

— لماذا جئت بي إلى هنا ؟ ... هذا شيء ضعيف !

فقال معترضا بحماس :

— هذا أجمل شيء فعلته في حياتي ! ... لماذا تستوحشين من يتي !

أليس هو بالتالي بيتك أيضا ؟ !

ولاحظت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه الملاية ، فأدنى رأسه
ولمسه قائلا :

— لله ما أجمل شعرك ! ... إنه أجمل شعر رأيته في حياتي .

قال ذلك صادقا على رغم رائحة الفاز التي ذابت في أنفه ، فلذها أطراؤه
بيد أنها سألته :

— إلام نبقى هنا ؟

— حتى يتم التعارف بيننا . فلدينا بلا ريب أشياء وأشياء ينبغي أن
نقولها . أخائفة أنت ؟ ... محال ! ... أراك لا تخافين شيئا !

فقلبها السرور حتى اشتدت أن تقبله ، ورنق الصفاء في صدرها . وكان
يتفرس في وجهها فقال لنفسه « الآن فيمتك يا ابنة اللبؤة ! » ثم قال لها
بصوت تلتفّض نبراته حرارة :

— لقد اختارك قلبي ، وقلبي لا يكذبني . ومن يجمعهما الحب
لا يفرقهما شيء ، فأنت لي وأنا لك ...

وأدنى وجهه منها كالمتأذن ، فالت بعنقها نحوه فالتقيا في قبلة عنيفة ،
واستشعر ضغط شفقتيها الساحر على شفقتيه يكاد يعصرهما ، فيمس في أذنها :

— محبوبتي ... محبوبتي ..

وزفرت من الأعماق : ثم اعتدلت في جليستها لتسترد أنفاسها . وراح
يقول برقة بالغة في صوت كالهمس :

— هنا مكانك ، وهذا بيتك ، بل هذا (وأوماً إلى صدره) مأواك ...

فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

— أراك تذكرني بأنه ينبغي أن أعود الآن إلى البيت ...

وكان في الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل . فقال بانكار :
— أى بيت تعنين ؟ . . بيت الزقاق ! . . آه ، ليتك تمسكين من ذكر
ذاك الحلى جميلاً . ماذا يوجبك في هذا الزقاق ؟ . . لماذا تعودين إليه ؟
فضحكت الفتاة قائلة :

— كيف تسألني عن هذا ؟ ! . أليس هو بيتي وأهلي ؟ !
فقال بازدراء :

— لا البيت بيتك ، ولا الأهل أهلك . إنك من طينة أخرى يا صغيرتي ،
ومن السكر أن يعيش جسم حتى نضير في مقبرة مليئة بالعظام النخرة . ألم
ترى إلى الحسان يرفلن في الثياب الفاخرة ؟ وإنك لتفوقينهن جمالا وفطنة ،
فكيف لا تخطرين مثلن في الطارف والحلى ؟ . . إن الله أرسلني إليك
لأرد إلى جوهرك النفيس حقه السلوب . وعلى ذلك أقول إن هذا
بيتك وكفى . . .

لعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار السكان : فغدر
شموورها ، وتقارب جفناها ، ولأحت في عينيها نظرة طاملة . ولسكرها تساءلت
ماذا يعنى ياترى ؟ . . هذا حقا ما يهفو إليه فؤادها ، فما السبيل إلى تحقيق
الأحلام وتقريب المنى ؟ . . لماذا لا يفصح عما يريد ويصرح بما ينوى ؟ . .
إنه يعبر أروع تعبير عن آمالها وأحلامها ورغباتها ، إنه ينطق بأسانها الخفى
ويشئ بأعماقها جميلاً ، إنه يجلو الفامض الخفى ويحجم المعروف حتى لسكانها
تراه رؤية العين ، إلا شيئاً واحداً لم يحسسه صراحة ، ولم يقتحم السبيل إليه ،
فما حكمة التردد ياترى ؟ ! . ونظرت إليه بعينها الجميلتين الجسورتين وسألتها :

— ماذا تعنى . . ؟

فشمر الرجل بأنه ينتقل إلى مرحلة خطيرة من مراحل خطته المرسومة ،
ورماها بنظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت :

— أعنى أن تبقى في البيت اللائق بك ، وأن تتمتعى بأسعد
ما تجود به الحياة . . .

وضحكك ضحكة قصيرة في ارتباك وحيرة وتمتمت :

— لا أفهم شيئاً . . .

ففسح على مفرق شعرها بحنان ، متعوذاً بالصمت ريثما يرتب أفكاره ثم قال :

— لعلك تتساءلين كيف يريدني على أن أبقى في بيته ؟ ! . فأذني لي أن أسألك بدوري لماذا تعودين إلى المدق ؟ . . ألفتظرين هنالك شأن الفتيات البائسات حتى يتملف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوجك ويلتمهم حسنك النصير وشبابك الغض ثم يتركك لقي في الزبالة ؟ ! . لست أحادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة فارغة وتجيء بها أخرى ، ولكني أعلم اليقين أنك شابة قليلة الأشباه . جمالك فتان ، ومع ذلك فهو مزية واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطي عليه . أنت الجسارة نفسها ، ومثلك إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون . . .

وانكفأ لونها ، وجمدت قسماتها ، فقالت بحمدة :

— هذه دعاة لا تجوز علي ! . . بدأت مازحاً ، وانتهيت وكأنك جاد . !
— دعاة ؟ ! . لا والله ، لا وحق قدرك عندي . أنا لا أداعب حين الجد خاصة شخصاً مثلك ملائني تقديراً واحتراماً وحباً . وإذا صدق حدسي فأنت قلب كبير يستهين بكل شيء في سبيل سعادته ، ولا يمكن أن تقف في سبيله عقبة . إني أريد شريكاً في حياتي ، وإنك لشريكى دون الناس جميعاً . . .
ففتفت به في انفعال شديد :

— أى شريك ؟ ! . إذا كنت تجد حقاً فماذا تريد ؟ . . . الطريق بين ، فإذا أردت . . .

وكادت تقول « أن تزوجني » ولكنها أمسكت ، وسددت نحوه نظرات حادة مريبة ، فلم يفقه مرادها ، واستشعر سخيرية باطنة ، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع فقال بحماس تمثيلي :

— أريد شريكاً محبوباً تقتحم الحياة معه . حياة النور والثروة والجاه

والسعادة ، لا حياة البيت القمصة والحبل والولادة والقذارة . حياة النجوم
اللاتى حدثتك عنهن ..

وفتحت فاهها منزعجة ، ثم انبعث من عينيها نور خفيف ، واصفرت
غضباً وحنقاً ، وغلبيها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها :

— تدعوني للفساد ! .. يالك من مفسد أثيم . . .

هكذا هدرت في غضبها وإن كان غضبها المفاجأة التى دهمتها والخيبة التى
أدركتها أكثر منه للفساد الذى لم تعتد أن تشور له !

وتبسم الرجل كالهازيء وقال :

— إني رجل . . .

ولكنها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامى .

— لست رجلاً ، بل أنت قواد . .

فضحك ضحكة هالية وقال وما يزال يضحك :

— أليس القواد رجلاً أيضاً ؟ ! .. بلى . . . وهو رجل — وحق

جمالك الفتان — ولا كل الرجال . وهل تجددين عند الرجل العادى غير

وجع الدماغ ؟ ! أما القواد فهو سمسار السعادة فى هذه الدنيا ! . ولكن

لا تنسى أنى محبك كذلك . لا تدعى الغضب يحطم حبنا . إني أدعوك

للسعادة والحب والجاه . ولو كنت فتاة بلهاء لخادعتك ، ولكنى قدرتك

فآثرت معك الصراحة والحق . إن كائنا من معدن واحد ، خلقنا الله للحب

والتعاون ، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحب والمال والجاه ، وإذا افترقنا

افترقنا للشقاء والفقر والذل ، أو افترق أحدا — على الأقل — لذلك ...

ولم تتحول عنه عيناها ، وراحت تتساءل فى ذهول كيف تمخض عن هذا ؟ !

ولبت صدرها يجيش بالهياج والالتعال ، ومن عجب أنها ثارت به ووجدت

عليه وتغيظت منه ، ولكنها لم تحتقره ، ولم تنفك عن حبه لحظة واحده ! .

لا بل لم تنس — حتى فى عنفوان هياجها — أنها تصارع الرجل الذى لقنها

الحب وثبته فى أعماقها . وأرهقها الالفعال فنهضت قائمة فى حركة عنيفة

وقالت فى سخط وغيظ :

— لست كما تظن ...

فتمهد بصوت مسموع متكافئاً الحزن ، وإن لم تخفنه ثقته شأن رجال الأعمال ، وقال بصوت أسيف :

— لا أكاد أصدق أنني اتخذت بك . رباہ ! أتصبحين يوماً من عرائس المدق ؟ ! حبل وولادة ، وحبل وولادة ، إرضاع أطفال على الأرصفة ، ذباب وبصارة وفول ، ذبول وترهل ؟ ! ... كلا ، كلا . لا أريد أن أصدق هذا ...

فصاحت به غير متالسكة نفسها :

— كفى ...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعا ، ولحق بها وهو يقول برقة « رويدك » ، ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب ، وخرجا معاً . جاءت سميدة غير هيابة ، وذهبت مهيضة ذاهلة . ووقفاً أمام الباب الخارجى حتى جاءها غلام بقا كس ودخله كل من باب ، ومضى بهما مسرعا . ابتلعتهما أفكارها فغابت عن الدنيا ، وجعل يسترق إليها النظر صاهتاً دون أن يجد حكمة فى خرق الصمت الخيم . وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكس منتصف الموسيقى ، فأمر السائق بالوقوف . وتنهت على صوته فألقت ببصرها إلى الخارج ثم ترحزت قليلاً استعداداً للنزول ، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها ، ولكنه تريت قليلاً ، ثم مال نحوها فلم منكبها وهو يقول :

— سأنتظرك غداً ...

فابتعدت عن الباب وهى تقول باقتضاب وحدة :

— كلا ...

فقال ويده تدير الأكرة :

— سأنتظرك يا محبوبتى ... وستعودين إلى ...

ثم قال لها وهى تغادر التاكس :

— لا تنسى الغد ، سنبداً حياة جديدة رائعة . . . أحبك . . . أحبك أكثر من الحياة نفسها . . .

وراح يرقبها وهي تتعبد متعجلة ، وقد ارتسمت على شفقيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه « مليحة بلا أدنى شك ، وهيرات أن يكذبني ظني ، فهي موهوبة بالفطرة . . . هي ماهرة بالسليقة . . . وسوف تكون درة نادرة المثال . . . »

٢٤

سألتها أمها :

— لماذا تأخرت . . . ؟

فأجابتها بلا مبالاة :

— دعني زينب إلى بيتها فذهبت معها . .

فبشرتها المرأة بأنهما سيشهدان عرس الست سسنية عفيفي عما قريب ، وأخبرتها أن الست ستهدى إليها فستاناً لحضور الزفاف ، فتظاهرت حميدة بالسرور ، وجلست تصفى إلى ثرثرة أمها ساعة طويلة ، ثم تناولتا عشاءهما وأوتتا إلى حجرة النوم ، وكانت حميدة تنام على كنبه قديمة ، أما أمها فتفرش حشية على أرض الغرفة وتستلقي عليها . ولم تكد تمضي دقائق حتى راحت الأم في نوم عميق ، وملأت الحجرة شيخيراً . ولبثت حميدة محمقة في النافذة المعلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد . استحضرت ذكرياتها حوادث يومها العجيب فلم يفتها منه حركة أو سكون أو كلمة ، وهاش في خيالها مرة أخرى . وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل فشمرت على رغم قلقها الراهن بسرور غير خاف ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن في غرائزها . ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهي راجعة إلى زقاقها « ياليتني لم أره ! » . ولكنه كان قول

لسان لم يجد له صدق في قلبها . والحق أنها عرفت من نفسها ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها . وكأن هذا الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفي من ذاتها وييسطه لناظريها كمرآة مصقولة . بيد أنها قالت له « كلا » وهي تفارقه ، وربما لم يكن لها عن هذا القول مذهب ، ولكن ما معناه على وجه التحقيق ؟ ! أليس معناه أن تقبّع في بيتها مترقبة عودة عباس الحلو ؟ ! . رباه ، لم يعد للحلو مكان في نفسها ، المحي أثره ؟ وتبدد رجوع صدهاء وليس الحلو في الواقع إلا هذا الزواج التمس ، وما يعقبه من حبل وولادة وإرضاع على الأرضفة وذباب ، إلى آخر هذه الصورة البشعة الممقوته . أجل لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر في نفسها شأن الفتيات من أترابها ، ولم تكن نسوة الزقاق بمتجنّيات عليها فيما رمينها من قسوة وشذوذ ، فإذا تبتغى إذا ؟ ! . . . وخفق قلبها خفقانا متتابعاً فعضت على شفتيها حتى كادت تدميها إنها لتعلم ما تبتغى ، وبما تهفو إليه نفسها . كان يجري قبل اليوم في شعرها متقلقل بين النور والظلمة ، ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جلياً لا لبس فيه ولا إبهام . ومن عجب أنها لم تعان — في سهادها — تردداً خطيراً فيما ينبغى أن تختار من سبيل ، ولم تشعر كثيراً بوظائف التجاذب بين ماضيها وحاضرها ، أو بين ما في حياتها من خير وما يتصدى لها من شر ، بل الحق أنها اختارت سبيلها بالفعل وهي لا تدري ، ووقع اختيارها عليه وهي بين يدي ذلك الرجل ، في بيته ! . كان لسانها يهدير غضباً وأعماقها ترقص طرباً ، كان وجهها يربد ويعبس وأحلامها تتنفس وتمرح ! . . . وفوق هذا كله فإنها لم تمقته لحظة واحدة ، لا بل لم تحتقره قط وكان — كما لم يزل — حياتها ومجدها وقوتها وسعادتها ! . لم يثر خنقها إلا إدلاله بثقته وهو يقول لها « ستعودين إلى » ! .

أجل ستعود ، ولكنه ينبغى أن يؤدي ثمن هذه الثقة الوقحة خالياً . فليس حبها عبادة وخضوعاً ، ولكنه معركة يحتمل أوارها ويتطير شررها . طالما اختلفت في هذا البيت ، وهذا الزقاق ، وهيئات أن يعتاقها طائق بعد

اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان ، وهل من سبيل إلى الإفلات من ربقة الماضي إلا عن يد هذا الرجل الذي أوقد في خيالها ناراً؟ ولكنّها لن تهرع إليه في خشوع وإذعان هاتفة « إني عبد يديك فافعل بي ما تشاء » لأنّها لا تعرف هذا الحب . كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة « إني سيدتك فتخضع بين يدي » . فما أزهدها في الحب الناعم أو الحبيب الخرج . ولكنّها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات ، ولسان حائها يقول : « إني قادمة بقوتي فلاقي بقوتك ، ولنتناطح إلى الأبد في سعادة تجل عن الوصف ، ثم متمنى بما منيتنى به من جاه وسعادة » . لقد وضع السبيل بفضله هو ، وهيئات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها .

ومع ذلك فلم تخل ليلتها من أفكار نفصت عليها عزمتها بعض التنفيس . تساءلت « ترى ماذا يقولون عنى غداً ؟ » وجاءها الجواب في كلمة واحدة : طاهرة ! . وتقبض قلبها حتى جف ريقها . وذكرت كيف تلاحت مرة مع واحدة من صويحيباتها بنات المشغل فسبته صارخة « ياربينة الشوارع . . يا طاهرة ! » . . معيرة إياها بالعمل كالرجال والتسكع في الشوارع ، فما عسى أن يقال عنها هي ؟ . . . وداخلها الحزن والأسى ، فتململت في رقادها جزاً وضيقاً . ولكن شيئاً في الوجود لم يكن ليثنيها عما اعترمت ، أو يلوى بها عما اختارت ، فقد اعترمت بقوة أعماقها ، واختارت بمجامع قلبها ، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع إلا ما يموق المنحدر إلى الهاوية من دقاق الحصا .

ثم انتقل تيار أفكارها فجأة إلى أمها ، فالتفت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذي كان غاب عنها ساعة طويلة ، فتصورتها في غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشفيت على اليأس . وذكرت كيف أحببتها المرأة حباً صادقاً لم يترك في قلبها إحساساً — وإن قل — بالحرمان من الأمومة ، وكيف أحببتها هي أيضاً على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق ، وكأنما خافت أحاسيس

المطف التي أخذت تدب في نفسها فزفرت بقوة وضجج وقالت لنفسها « لا أب لي ولا أم ، وليس لي في الدنيا سواه » ، وولت الماضي كشحها ، ولم تعد تفكر إلا في الغد وما عسى أن يتكشف عنه . ثم أمضت السهاد ، وشمرت بحرارته تصهر جفونها ودماعها ، فتمنت أن ينقذها النوم من عذابه ، وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما إلا على نور الصباح . وأهابت بإرادتها أن تنش عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر ، فنجحت في طردها إلى حين ، ولكنما تنبتهت إلى الأصوات المتصاعدة من قبوة كرشة ، ووقفت من نفسها موقفاً مشيراً ، فراحت تلعبها وتهمها بتطير النوم من عينيها . وجعلت تنصت إليها على رغبتها ، وتسبب محدثها في حنق وغضب . « ياسنقر غير ماء النرجيلة » . . هذا صوت الفاجر الحشاش كرشة . « ياسيدي ربك يعلها » وهذا عم كامل الحيوان الأعجم . « ولو . . . كل شيء له أصل » . . هذا الأعمش القدر الدكتور بوشى . وتمثل لها حبيبها — على غرة — بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش ، وتخليته وهو يشير إليها بقبالاته تخفق فؤادها ، ثم استحضرت ذاكرتها صورة المهارة الهائلة ، والحجارة الرائسة ، وسرطان ما طن صوته في أذنيها وهو يهمس قائلاً « ستعودين إلى . . . » . رباه متى يرجعها النوم ؟ . « السلام عليكم يا إخوان » . . هذا صوت السيد رضوان الحسيني الذي أشار على أمها برفض يد السيد علوان قبل أن يهتصره المرض ، ترى ماذا يقول عنها غداً إذا تناهى إليه الخبر ؟ . . ليقل ما يشاء ، ولعنة الله على اللحي جميعاً . . وانقلب الأرق صداها وسقما ، ومضت تتقلب على جنبيها وبطنها وظهرها ، ومضى الليل بطيئاً ثقيلاً مرهقاً مضنياً . يزيد هولا خطورة الغد المرتقب . وقبيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى . وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل ولكن لم يساورها التردد وتساءلت في جزع متى يأتي الغيب ! . وقالت لنفسها إنها الآن زائرة طابرة في المدق ، لا هي منه ولا هو منها كما قال الحبيب . ونهضت كهاتما ففتحت النافذة ،

وطوت حشية أمها وكومتها في ركن الحجرة، ثم كنست الشقة، ومسحت
الردهة الخارجية، وتناولت فطورها على انفراد لأن أمها كانت قد غادرت
البيت إلى شئونها التي لا تنتهي، ثم مضت إلى المطبخ فوجدت عدساً في
طبق تركته أمها لتطبخه غداً ليومها، فحكفت على تنقيته وغسله، وأوقدت
الكانون. وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة « هذه آخر طبخة لي في هذا
البيت، وربما كانت آخر طبخة في حياتي... ترى متى آكل العدس مرة
أخرى؟! ». ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء،
وشعار مائدتهم كذلك؛ لم تكن تعلم شيئاً عن طعام الأغنياء إلا أنه لحم ولحم
ولحم. وأنشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتى انبسطت
أساريرها وقطر وجهها بشاشة حائلة. وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت
الحمام تستحم، ثم مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة
أرسلتها وراء ظهرها حتى مسبت أهدابها أسفل نخلتها. وارتدت خير
مالديها من ثياب، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية البالي،
فتورد وجهها البرنزي وعجبت كيف تزف إليه في مثل هذه الثياب، وأريد
وجهها وهاج صدرها، فصممت على ألا تسلم إليه حتى تستبدل بهذه الثياب
الرقيقة أخرى جديدة زاهية. وطاب لها هذا الرأي، وصادف من نفسها
— التي تأبى الهوى إلا في حومة العراق والعماد — هوى ولذة. ثم وقفت
في النافذة تلقى على حياء نظرات الوداع. وجعل بصرها يتردد بين معاملة
بغير توقف: الفرق، قيوة كرشة، دكان عم كامل، دكان الحلاق، الوكالة،
بيت السيد الحسيني، والذكريات تبعثها النظرات كأنها الشعلات يبعثها حك
أعواد الثقاب.

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى صدرها
بعطف أو مودة لا للزقاق ولا لأهله. وكانت أسباب الجوار والصدقة
مقطوعة ما بينها وبين ظالمة نسوة الحى كأم حسين — أمها بالرضاعة —
والعرانة، حتى امرأة السيد رضوان الحسيني لم تسلم من لسانها، فقد

بلغها يوماً أنها وصفتها ببذاءة اللسان ، فتربصت بها حتى رأتها يوماً على
سطح بيتها تنشر الفصيل فصعدت إلى السطح وثباً — وكان السطحان
متلاصقين — واقتربت من السور وجعلت تعرض بالمرأة قائلة بتهكم وازدراء
« أسفى عليك يا حميدة من فتاة بذينة اللسان ، غير جديرة بمباشرة الهوانم
من ستات المدق بنات الباشوات ! » ولكن المرأة آثرت السلامة ،
وتعوذت بالصمت . وقد ثبتت عيناها غير قابل على الوكالة فذكرت كيف
طلب السيد سليم علوان يدها ، وكيف ثملت بأحلام الثراء يوماً وبعض يوم !
لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يديها ! . ولكن شتان بين
رجل ورجل ! . فإذا كان سليم علوان قد حرك — بثروته — جانباً من
قلبها ، فيذ الذي حرك قلبها كاه حتى كاد يقتلعه ! . وعادت عيناها إلى دكان
الحلاق فذكرت عباس الحلو ، وتساءلت ترى ماذا يفعل إذا رجع يوماً من
مهجره فلم يعثر لها على أثر ؟ ! وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجر ،
وعجبت كيف منحه شفقتها يقبلها ؟ ! ثم ولت النافذة ظيورها ومضت إلى
السكنية أشد ما تكون عزماً وتضميماً . ورجعت أمها إلى البيت ظهراً ،
فتناولتا غداءهما معاً . وقالت لها المرأة في أثناء الطعام : « لدى زيجة مهمة ،
إذا وفقت فيها ، فتح الله علينا » فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوة بفتور ،
ولم تكدها تلتقي لما قالت بالا ، وكثيراً ما كانت تقول مثل ذلك ثم يتمخض
الرجاء عن بضع جنيمات وأكالة لحم ! ، أو أكالة لحم خسب بالنسبة لها .
ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلاً ، تربت هي على السكنية وراحت تطيل
إليها النظر . هذا يوم الوداع ، وربما لن تقع عليها عيناها بعد الآن .
ولأول مرة عراها الضعف ، فدرت حناياها عطفاً للمرأة التي آوتها وتبنتها
وأحببتها ولم تعرف سواها أما ، وتمنت لو تستطيع أن تقبلها قبلة الوداع . .
وجاءت ساعة الأصيل فنلعت بملاءتها وانتعلت شبشبها . وكانت يداها
ترتعشان انفعالا واضطراباً ، وقلبها يخفق بشدة . ولم يكن بد من أن
تفارق أمها بغير وداع ، فامتعضت ، ثم رأتها آمنة لا تدري شيئاً عما يخبئه

لها الند فازداد امتعاضها . وحم الرحيل فالت عليها نظرة طويلة ثم قالت وهي تهتم بالمسير :

— فتأت بعافية ...

فقالت لها المرأة وهي تشعل سيجارة :

— مع السلامة .. لا تتأخرى ..

وغادرت البيت تلوح في وجهها أمارات الجذ والاهتمام ، وقطعت المدق
لآخر مرة لا تلوى على شيء ، وسارت مع الصناديق إلى الغورية ، ثم
النعطفت صوب السكة الجديدة وتقدمت في خطوات متمهلة . وأرسلت
بصرها بعد تردد وإشفاق .. فرأته بموقف الأئمس ينتظر !.. التهب خذاها
واجتاحتها موجة صاخبة من التردد والفضب وودت من أعماقها أن تنأر
من ظفره هذا ثأراً يرد عليها بعض سكينتها . وغضت بصرها ، ثم تساءلت
أترأه يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة ؟ !.. ورفعت عينيها بنرفزة ،
ولكنها وجدته هادئاً جاداً رزيناً يلوح في عينيهِ اللوزيتين الرجا والاهتمام
فانفأ هياجها قليلاً . ومرت به وهي تتوقع أن يخاطبها ، أو أن ياخذ يدها
كما فعل بالأئمس ، ولكن تهاهنا ، وتريث قليلاً حتى غيها النعطف ، ثم
تبعا متمهلاً ، فأدركت أنه بات اشد حذراً ، وأعظم شعوراً بخطورة الأمر .
وسارت حتى أوشكت السكة الجديدة أن تنتهى ، ثم توقفت بغتة كأنما
ذكرت شيئاً جديداً ، وانقلت راجعة ، فتبعها قلقاً وهمس لها متسائلاً :

— ماذا أرجحك ؟

فترددت قليلاً ثم قالت وقد ساءها النطق عناء :

— بنات المشغل ..

فقال بارتياح :

— إلى الأزهر ، فلا يرانا أحد ..

وشقا طريقهما متباعدين ، وسارا في شارع الأزهر في صمت ثقيل ،
وقد أدركت أنها أعلنت — بالكلمة التي نطقت بها — تسليمها النهائي .

وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجوا من صكتهما الثقيل . ولم تعد تدري أين تتجه فوقفت ، وسمعته في اللحظة التالية ينادى التاكس ، وجاءت السيارة ففتح لها الباب ، ورفعت قدمها لتصعد إليها ، ففصلت هذه الحركة بين حياتين ! . وما كادت السيارة تنطلق بها حتى قال بصوت متهدج وبمباراة فائقة :

— الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة !... لم أنم من ليلتي ساعة واحدة أنت لا تدريين يا عزيزتي ما الحب . ولكني اليوم سعيد ، بل أكاد أجن من الفرح . رباه كيف أصدق عيني ؟ ! . شكراً يا محبوبتي شكراً . والله لأجعلن من السعادة أنهرًا تجري تحت قدميك . . . ما أجل اللباس حول هذا الجيد (ومس جيدها برقة) .. ما أروع الذهب في هذا الساعد (وقبل ساعدها) .. ما أفتن الروح في هاتين الشفتين (وهوى برأسه ليقبل ثغرها ولكنها تحامته فلثم خدها) .. يالك من فائنة نافرة !... واستراح قليلاً ثم استدرك قائلاً وعلى شفقيه ابتسامة :

— ودعي الآن عيد التعب ، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم !... حتى ثدياك سيحملانك عنك رافع من الحرير !... ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تنمر أو احتداد ، وإن توردت وجنتاهما ، واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التي تهرب بها من الماضي كله . وانتهى التاكس إلى العمارة التي صارت مأواها ، فغادراه ، ومضيا مسرعين إلى الشقة ، وكانت كما وجدتتها بالأمس ضاحجة بالأصوات المنبعثة من الأبواب ، ثم دخلا الحجرة الرائعة . وقال لها ضاحكا :

— اخضعي الملاية لنحرقها معا .

فغمغمت تقول وقد تورد وجيبها :

— لم أحضر ملايسي . . .

فصاح بسرور :

— حسناً فعانت . . . لا نريد شيئاً من الماضي .

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، ثم اتجه نحو باب أنيق إلى يمين المرأة العالية ، ودفعه عن شدة عناء وهو يقول :

— حجرتنا ...

ولكنها قالت بسرعة واحدة :

— كلا ... كلا ... سأنام هنا ...

فخدجها بنظرة ثاقبة ، ثم قال بأهجة تنم عن التسليم :

— بل تنامين في الداخل وأنام أنا هنا ...

وكانت تصمم في نفسها على ألا تؤخذ كالماشية ، وألا تسلم حتى تشبع رغبتها في العناد والإباء ، والظاهر أن رغبتها هذه لم تغب عن مكره ، لأنه دأري ابتسامة ساخرة . وتظاهر بالإذعان والتسليم . ثم قال لها بسرور وفخار :

— بالأمس يا عزيزتي دعوتي بالقواد ، فأسمح لي بأن أقدم لك نفسي على حقيقتها : محباك ناظر مدرسة ، ومستعالمين كل شيء في حينه ...

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق : « هذا وقت اجتماعهم في القهوة ، وسيرونني جميعاً بلا أدنى شك ، وسيخبرون أبي بمقدمي إذا عني هو عنه » كان الليل قد أرخى سدوله ، فأغلقت دكاكين المدق وخيم عليها السكون ، وضجت قهوة كرشة وحدها بالسمار . كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة ، منقبض الصدر ، متجههم الوجه ، يتبعه على الأثر فتى في مثل سنه وفتاة في مستقبل العمر . وكان حسين يرتدى قميصاً وبنطالونا ، ويحمل في يمينه حقيبة كبيرة ، وكذلك كان الفتى الذي يتبعه ، أما الفتاة فرفلت في فستان أنيق — بلا معطف ولا ملاءة — وقد بدت في مشيتها ذات وسامة ورشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشي بطبقتهما . واتجه حسين صوب بيت السيد رضوان الحسيني دون أن يلتفت ناحية القهوة ، ودخل

البيت يتبعه رفيقاه ، ثم رقوا السلالم حتى الطابق الثالث . ودق الفتي باب الشقة وقد ازداد وجهه تجيماً ، فسمع وقع أقدام تقترب ، ثم فتح الباب ، وبدت أمه وراءه تقول بصوتها الخشن « من ؟ » ، ولم تعرف الشبيح المائل أمامها لشدة الظلمة فقال حسين بصوت منخفض :

— حسين ! —

وهتفت المرأة وهي لا تكاد تصدق أذنيها :

— حسين !... ابني ! !

وهرعت إليه ، وأمسكت بذراعيه ، وقبلته ، وهي تقول بحرارة :
— عدت يا بني !... الحمد لله... الحمد لله الذي أثابك إلى رشدك ، وحماك من وسوسة الشيطان ، ادخل بيتك (وضحكت في انفعال) . ادخل يا غادر... لكم أقضضت مضطجعي ، وقطعت قلبي... .

ودخل الشاب مستسماً ليديها ، دون أن يخف تجيماً ، وكأن استقبالها الحار لم يكده يجدي شيئاً في تفريج كربيه ، ولما أن همت برد الباب حال بينها وبينه قائلاً وهو يوسع للفتاة والفتى :

— معي أناس . ادخلي ياسيدة ، ادخل يا عبده . هذه زوجتي يا أمي ، وهذا شقيقها... .

وجهت المرأة ، ولاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج ، وراحت تنظر إلى القادمين بذهول ، ثم تذهبت إلى اليد المبسوطة للسلام فتمالكت عواطفها وسامت وهي تتخاطب ابنها بلا وعي تقريبا :

— تزوجت يا حسين ؟!... أهلا بك يا عروس... تزوجت يا حسين دون أن نخبرنا ؟... كيف رضيت أن تزف في غياب والديك وهما على قيد الحياة ؟! .

فقال حسين بامتنعاض :

— الشيطان شاطر !... كنت فاضباً ثائراً ساخطاً... وكل شيء قسمة ونصيب !

وانزعجت المرأة المصباح من الحائط ، وتقدمتهم إلى حجرة الاستقبال ،
ووضعتته على حافة النافذة المفلقة ، ووقفت تنفّس في وجه زوجها ،
وقد قالت الفتاة بصوت أسيف :

— أحزننا والله غيابكم ، ولكن ما باليد حيلة ...

وأبدى شقيقتها كذلك أسفه ، فابتسمت المرأة ، ولم تكن أفاقت بعد
من دهشتها ، وتمتمت :

— أهلاً بكم جميعاً .

ثم التفتت صوب ابنها وقد هاهاها تبهمه وجهوده ، وذكرت لأول مرة
أن فيه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره . فقالت له بعتاب :

— هكذا تذكرتنا أخيراً ...

فهرز حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب :

— استغنوا عني ...

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة :

— استغنوا عنك ؟ ! أتعني أنك طائل الآن ؟ !

وقبل أن يفتح فيه قرع آذانهم دق عنيف على الباب ، فتبادلت المرأة
وابنها نظرة ذات معنى ، ثم غادرت الحجرة فليحق بها الشاب بعد أن أغلق
الباب وراءه ، وقال لها في الردهة الخارجية :

— هذا أبي بلا ريب ...

فقالت له بقلق :

— أظن هذا ، هل رآك ... أعني رآكم وأنتم قادمون ؟ .

ولكن الفتى لم يجبها ، وتقدم من الباب وفتحته ، فدخل المعلم كرشة
مندفعاً ، وما إن رأى ابنه حتى قال وعيناه تجماران ، وضباب الغضب
يفشى وجهه :

— أهذا أنت ؟ ! ... قالوا لي ذلك فلم أصدق ... لماذا عدت ؟ !

فقال حسين بصوت منخفض :

— يوجد في البيت غرباء ، هلم إلى حجرتك نتكلم ...
ومضى الشاب مسرعا إلى حجرة أبيه ، فتبعه المعلم منجرا ، ولحقت بهما
المرأة ، ثم أشعلت المصباح وهي تقول لزوجها في رجاء وتحذير :
— في الحجرة الأخرى زوج ابنتك وشقيقها ...
وارتفع جفنا الرجل الثقيلان في ذهول وهتف :
— ماذا تقولين يا مرة ؟ ... أتزوجت حقا ؟
واستاء حسين من أمه لأنها ألقت عليه الخبر دون تمهيد ، ولم يردأ
من أن يقول :

— نعم يا أبتى تزوجت ...
وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحنق وغيظ ، ولكنه لم يفكر
لحظة في معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه ، لأن المعاتبة في نظره حال من
المودة ، وصم في اللحظة التالية على إهمال هذا الخبر كأنه لم يسمعه ، وقال
بفيظ وحقد :

— هذا شيء لا يعنيني البتة . ولكن دعني أسألك لماذا عدت إلى
بيتي ؟ ... لماذا أريتني وجهك بعد أن أراحي الله منه ؟
فلاذحسين بالصمت ، ونكس ذقنه عابسا ، وانبرت الأم تقول باستعطاف :
— استغفروا عنه يا معلم ...

ونقم الشاب على أمه تسرعها للمرة الثانية . أما المعلم فقد ازداد حنقا
وصاح بصوته الغليظ — مما جعل المرأة تغلق الباب — قائلا :
— استغفروا عنك ؟ ... ما شاء الله ... وهل بيتي تكية ؟ ... ألم
تنبذنا يا هام ؟ ... ألم تعضني بنابك يا ابن الكاب ؟ .. فلماذا تعود الآن ؟ ..
أغرب عن وجهي . عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء ... هيا ...
فقال أم حسين برقة

— هدي روعك يا معلم وصل على النبي ..
فلوح لها الرجل بقبضته منذرا وصاح بها

— تدافعين عنه يا بنت الأبالسة ؟ ! . . . كلكم مجنوس شياطين يستاهل
جلد السياط وعذاب النار . ماذا تريدن يا أم الشر كله ؟ . . . أتريديني على
أن أويه وأهله ؟ . . . هل قالوا لك إنى قواد يأتيني رزقى من يمين وشمال
بغير تعب ولا جهد ؟ ! . . . ألا فاعلموا بأن الشرطة تخوم حولنا ، وبالأمس
قبضوا على أربعة من رفاقي ، وغدكم أسود بإذن الله . .
فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها :
— صل على النبي يا معلم ووحيد الله .

فصاح بفظاظة

— سليه عما جاء به ؟

فقالت برجاء واستعطفاف

— ابننا أرعن مجنون ، غواه الشيطان فاضله ، وليس له الآن من
ملجأ سواك . . .

فقال المعلم كرشة بحنق وسخرية :

— صدقت يا أم السوء . ليس له من ملجأ سواي . سواي أنا الذي يسب
حين السراء ويلجأ إليه حين الضراء !
ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية :
— لماذا استغفوا عنك ؟

وتنهدت الأم من الأعماق لأنها أدركت بغريزتها أن هذا السؤال
— على لهجته المريرة — إيذان بالتفاهم المنشود . أما حسين فقد قال بصوت
منخفض وهو يمانى مرارة القهر :

— استغفروا عن كثيرين غيري . . . يقولون إن الحرب وشيكة الانتهاء . . .
— انتهت الحرب في الميدان وستبدأ في بيتي أنا ! . . . ولماذا لم تذهب
إلى أهل زوجك ؟

فقال الشاب بغضاضة :

— ليس لها إلا شقيقها . . .

— ولماذا لم تلبها إليه ؟
— استغفروا لله أيضاً ...

فضحك مازناً وقال :

— أهلاً ... أهلاً ... وطبيحي أنك لم تجدي ملجأ لهذه الأسرة الكريمة
لتي أناخ عليها الدهر الذي بقي ذا الحجرتين ! ... مرحى .. مرحى ... ألم
وفر مالا ؟

فقال الشاب تلك ذات وهو يتنهد :
— كلا ...

— أحسنت . عشت عيشة الملوك ، كبرياء وماء وملاهي ، ثم عدت أخيراً
تبدأت شحاذاً ...
فقال حسين باقعمال :

— قالوا إن الحرب لن تنتهي ، وإن هتلر سيقاوم عشرات السنين ثم
يهجم بعد ذلك ...

— ولكنه لم يهجم ، واختفى (حتى في تلك اللحظة لم يقل إنه مات)
ركا بشيخ المغفلين صفر الدين . والبك شقيق الست ؟
— الحال من بعضه ..

— حال .. حال ... البركة في أهلك . هيني لهم البيت يا ست أم حسين
لو أنه حقير لا يليق بالمقام ، ولكني سأتدارك ذلك بإدخال الماء
الكهرباء ، وربما ابتعت حنطور السيد علوان ليكون تحت تصرفكم ...
فنفخ حسين قائلاً :

— حسبك يا أبي ... حسبك ...
فنظر إليه كالمعتذر وقال بسخرية :

— لا تؤاخذني . أتقلت عليك ؟ ... مزاج رقيق ، عز وجاه ، ارحموا
يز قوم بال . احترموا معلم كرشة ولا تحدث السادة إلا بحديث السادة .

تفضل بخام ملابسك . أما أنت يا ست أم حسين فافتحي الكنز في المراض وعبي للبيك حتى يتريش وينبسط . . .

ولم ينبس حسين بكامة وهو كظيم ، فرت العاصفة بسلام ، وراحت المرأة تناجي نفسها : « يا ساتر استر » . وكان المعلم — على حنقه وسخريته — أبعد ما يكون عن طرده ، بل لعله حتى في تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لمودته ، وسرور بزواجه ، لذلك كف عما كان آخذاً فيه ، وغهم قائلاً :

— الأمر لله ربنا يتوب على منكم .

ثم سأل الشاب مستدركا :

— ماذا أعددت للمستقبل ؟ .

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محنته .

— سأجد عملاً إن شاء الله ، ولا يزال لدى حلي زوجي .

فانتبهت أمه إلى كلمة « حلي » باهتمام وسألته بغير وعي :

— هل كنت ابتعتها لها ؟ .

فقال حسين :

— أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر .

والتفت نحو أبيه مستطرداً :

— سوف أجد عملاً . وسيبحث عبده نسيبي عن عمل أيضاً ، وعلى

أية حال فهو لن يقيم بيننا إلا أياماً .

وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذي أعقب الزوبعة فقالت لزوجها :

— تعال يا معلم سلم على أهل ابنك .

ولحظت ابنها بطرف خفي وغمزت بعينها ، فقال الشاب بغضاضة من

يستكره التودد بطبعه .

— هلا اكرمتني حياك أهلي ؟ .

وتردد الرجل لحظة ثم قال بامتعاض :

— كيف تريدني على الاعتراف بهذا الزواج الذي لم أباركه ؟ ! .
ولما لم يسمع من نجيب ، نهض متأقفاً ، ففتحت المرأة الباب وتقدمته ،
وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى جميعاً ، وسلموا ، ورحب المعلم بزواج ابنه
وشقيقها ، . انطوت الصدور على ما بها أما الوجوه فقد أشرقت بالترحاب
والجمالة . وكان المعلم كرشة قد سلم بالأمر الواقع . ولكن له لبث قلقاً
لا يدري أخطأ بتسليمه أم أصاب ، ولم تصف نفسه من موجدته واستياء .
ثم انتهت عيناها الناعمتان في أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة فتفحصه بعناية ،
وما عثم أن تولاه اهتمام مفاجئ ، أنساه قلقه وموجدته واستياءه . . .
كان شاباً يافعاً وسيم الطلعة خفيف الظل ، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف
يقظ . وطابت نفسه وصفت ، وسرت في أعماقه هزة سرور وحماس ،
فتفتح قلبه للأسرة الجديدة ، ورحب بها مرة أخرى ولسكن بشعور
جديد ، وسأل ابنه بلطف :

— أليس لك أُنثى يا حسين ؟ .

فقال حسين :

— غرفة نوم مكرومة عند الجيران .

فقال المعلم بلهجة آمرة :

— اذهب وأحضر عفشك . . . !

* * *

وخلال حسين إلى أمه ، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما ، وفي ختام
الحديث صاحت به فجأة :

— ألم تعلم بما حدث ؟ . . . ! اختفت حميدة .

فلاحت الدهشة في وجه الشاب وسألها :

— كيف ؟ .

فقالت المرأة دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشمانة .

— خرجت أول أمس كهاتها كل عصر ، ولسكنها لم تعد . ودارت

أمها على بيوت الجيران والممارف تفتش عنها دون جدوى . وذهبت إلى قسم الجمالية وقصر العيني ولا حياة لمن تنادى .

— ماذا حدث للبنات يا ترى ؟ .

فهزت أم حسين رأسها في ارتياب وقالت يتبين :

— هربت وحياتك ! . غواها رجل فأكل نخها وطار بها . كانت

جميلة ولكنهما لم تسكن طيبة قط .

٣٦

فتحت عينين محترتين من أثر النوم ، فراتا سقفاً أبيض ، ناصع البياض ، يتدلى من وسطه مصباح كهربائي بارع الونق في كرة كبيرة حمراء من البلور الشفاف . امتلأ بصرها دهشة ، ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة ، ثم تدافعت إلى رأسها ذكريات الليلة الماضية ، ذكريات الحياة الجديدة . واتجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقاً ، ثم رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس . تقذت إرادتها فنامت وحدها ، وقضى ليلته وحده في الحجرة الخارجية ، وافتر ثفرها عن ابتسامة . وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير ، فبدأ فستانها مستخدماً خجلاً فيما يغمره من نخل وحرير . ما أعمق الهوة التي تفصل ما بينها وبين الماضي ! . وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس ، فينير جو الحجرة بضوء شاحب خفيف ، فاستدلت على الضحى بسحابة ، ولكنها لم تدهش لاستيقاظها المتأخر ، فقد أرقها السهاد حتى قبيل الفجر . وسمعت نقرأ خفياً على الباب ، فتلفتت صوبه في انزعاج ، وجمد بصرها عليه دون أن تأتي حركة أو تنطق بحرف ، ثم غادرت الفراش ، ودلفت من التواليت ، ووقفت بين مراياه متحيرة مبهوتة . وعاد النقر في قوة مأموسة ففتفت : « من ؟ » . وجاءها صوته العميق وهو يقول : « صباح الخير . . هلا فتحت

الباب ؟ » . ونظرت إلى المرأة فرأت شعرها متشعثا ، وعينها حمرا ، وجفونها ثقيلين ، .. رباة .. أليس ثمة إماء تغسل به وجهها ؟ ! ألا ينتظر حتى تنهيا لاستقباله ؟ ! . وطاد ينقر الباب جزوا ، ولسكنها لم تلق إليه بالا ، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها في الدراسة أول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها ، وهي تسكون اليوم أشد قلقا بلا ريب ! . ورأت زجاجات الروائح العطرية منضودة على التواليت ، ولسكنها كانت تراها لأول مرة في حياتها ، فلم تهتد إلى وجه الانتفاع بها في مأزقها . ثم تناولت مشطا عاجيا وسوت شعرها في عجلة وطموجة ، ومسحت بطرف فستانها وجهها ، وألقت على المرأة نظرة أخرى ، وتهتدت في قلق وغيط ، ثم أخذت المفتاح وسارت نحو الباب ، وكأثما ضاقت بإشفاقها ، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب . التقيا وجهها لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة :

— صباح النور يا تيتي . . . لماذا أهملتني كل هذا الوقت ؟ .. أتريدن مواصلة النهار بالليل بعيدا عني ؟ !
فاتمعدت عنه دون أن تنبس بكلمة ، ولسكنه تأثرها والابتسامة لا تفارق شفقيه ، ثم سألهما :

— لماذا لا تتكلمين يا تيتي ؟ !

تيتي !! أاسم تدليل هذا يا ترى ؟ .. ولكن أمها كانت تدعوها « حمدمد » إذا أرادت أن تدلها ، فما تيتي هذا ؟ ! .. ورمقه بنظرة إنكار وغمغمات :

— تيتي !

فقال وهو يتناول راحتها بين يديه ويشبعهما تقييلا :

— هذا اسمك الجديد ، فاحفظيه عن ظهر قلب ، والنسى حميدة فلم يعد لها وجود ! .. ليس الاسم يا محبوبتي بالشئ التافه لا يقام له وزن ، هو بالحرى كل شئ ، وما الدنيا — لو تعلمين — إلا أسماء وعامت أنه يعد اسمها — كشيابها البالية — شيئا ينبغي انتزاعه وإيداعه

مقابر النسيان ، ولم تر في ذلك من بأس ، فلا يجوز أن تنادي في شريف
باشا بما كانت تنادي به في الملق ، وفضلاً عن هذا فهي تشهر شعوراً عميقاً
لا يخلو من وسواس وقلق — بأن أسباب الماضي قد انقطعت إلى الأبد ،
فماذا تبقى على اسمها ؟ . . . بل ليتها تستطيع أن تستبدل يديها يدين
جدينتين جميلتين كيديه هو ، وأن تستعوض عن صوتها — الذي تستفظ
نبراته العالية حتى الفظاظ والقبح — صوتاً رقيقاً رخياً ، ولكن ما باله
اختار هذا الاسم الغريب ؟ . . . ولم تملك أن قالت باستنكار :

— هذا اسم غريب ، لا معنى له . .
فقال ضاحكاً :

— اسم جميل . ومن جماله ألا معنى له . فالاسم الذي لا معنى له يحوى
المعاني كلها . بل هو من الأسماء الأثرية التي تسحر ألباب الإنجليز
والأمريكان ، ويسهل النطق به على ألسنتهم الموهجة . . .
فجالت في عينيها نظرة حيرة ، تشي بالارتياح وتتخفى للعناد
والانقضاض ، فابتسم برقة واستدرك يقول :

— تيتي العزيزة . . . رويدك ، ستعلمين كل شيء في حينه . ألم تعلمي
بانك ستصيرين غداً سيدة باهرة الجمال بعيدة الصيت ؟ . . هذه هي معجزة
هذا البيت . ام حسبت أن السماء تمطر ذهباً وماساً ؟ . . كلا يا عزيزتى
إن السماء في أيامنا هذه لا تمطر إلا شظايا . والآني خذى أهبتك لاستقبال
الخطيئة . ولكن معذرة لقد ذكرت أمراً هاماً . ذكرت أنه ينبغي أن
أصحبك لزيارة مدرستي — أنا ناظر يا محبوبتى ولست قوادا كما دعوتنى
بالأمس — فالتحنى بهذا الروب وانتعلى هذا الشبشب . . .

وذهب إلى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كروية يتصل بفم معدنى فيها
أنبوبة من المطاط الأحمر ، وسدد فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على
الأنبوبة فيميج في صفحة وجهها سائلا زكى الشذا ، وقد ارتعشت بادیء
الأمر شاهقة ، ثم استنامت إلى طيها في دهشة وارتياح . وألبسها الروب

بنفسه ، وجاءها بشبشب فانتعلته ، ثم تأبط ذراعها ومضى بها إلى الحجرة الأخرى ، ثم إلى الردهة الخارجية . وسارا معاً متجهين صوب أول باب إلى اليمين وهو يقول لها تحذرا :

— إياك وأن تبدي خجلة أو خائفة . . . إني أعلم أنك جسورة لا تهين شيئاً . . .

وأثابها تحذيره إلى رشادها ، فخدجته بنظرة حادة ، ورفعت رأسها في استهانة ، فابتسم قائلاً :

— هذا أول فصل في المدرسة . . فصل الرقص العربي . . .

وفتح الباب ودخلا . رأت حجرة متوسطة ، جميلة البناء ، ذات أرض خشبية لامعة ، تكاد تخلو من الأثاث اللهم إلا عدداً محدوداً من المقاعد لضدت في جناحها الأيسر ، ومشجبا كبيرا في ركنها الأقصى ، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين ، ووقف في الوسط فتى في جلباب أبيض حريري مبهف محترماً بزوار . اتجهت الرؤوس نحو القادمين ، وجرت على الفغور إسكات التحية ، فقال فرج إبراهيم بلهجة قوية تنم عن السيادة حقاً :

— صباح الخير . . هذه صديقتي تيتي . . .

وحنّت الفتاتان رأسيهما تحية ، ثم قال الفتى بصوت متكسر مخنث :

— أهلاً يا أبله . .

وردت تيتي التحية في شيء من الارتباك وهي تطيل النظر إلى الفتى الغريب . كان — على غير ما يبدو — في نهاية العقد الثالث ، وضيق الملامح أحول العينين ، يزين وجهه بزواق نسائي من كحل وحمرة وبودرة ، ويجمع شعره الجعد بالفازلين . فابتسم فرج إبراهيم وقال يعرفه لها :

— سوسو معلم الرقص . . .

وكأنما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقة الخاصة ، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين فانزاً بعينه ، فراحتا تصفقان على « الواحدة » ،

وانساب الأستاذ راقصاً كالأفصوان ، في خفة وليونة تثيران الدهشة ، حتى خالته جسمها بلا عظام ولا مفاصل ، أو أنه قطعة من مطاط مكهرب . كان كل ما فيه يرتد بلا توقف ، ردفاً . . وسطاه . . صدره . . رقبته . . حاجباه . وكان يلقي إليها بنظرة متكسرة متضخمة ، مبتسماً ابتساماً فاجرة عن أسنان ذهبية . ثم اهتز هزة عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنى ، واستقام ظهره فكفت الفتاتان عن التوقيع . لم يكن فى نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يحيى القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال . والتفت نحو فرج إبراهيم متسائلاً :

— تأميدة جديدة . . ؟

فالتفت هذا بدوره إلى تيتى وقال :

— أظن هذا . .

— ألم ترقص فيما سلف ؟

— كلا . .

فابتسم سوسو مسروراً وقال :

— هذا أفضل ياسى فرج . إذا كانت تجهل الرقص فهى عجينة طرية أصورها كيفما أشاء ، أما أولئك اللاتي يتهامن الرقص على غير أصوله فما أشق تعليمهن . .

ونظر إلى تيتى ، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت فاضح :

— أم تمسكين الرقص لعباً يا أبلتى ؟ . . العفو يا حبيبتى . . هذا فن

الفنون ، وأستاذة له اللجنة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشم من عناء ومشقة . . انظرى . .

وأرعى خصره بفتة فى سرعة عجيبة ، ثم أمسك وهو يرمقها بهجب وتيه ، وسألها باستعطاف :

— هلا انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك ؟

ولكن فرج عاجله قائلاً :

— ليس الآن . . . ليس الآن . . .

فقط سوسو يوزه متأسفاً وسأطفاً :
— أتحبناين منى ياتيتي؟ ... أنا أختك سوسو ! ... ألم يعجبك رقصي؟
وكانت تدافع جاهدة شعوراً بالضيق والارتباك ، وتحاول في إصرار
وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية ، فابتسمت وقالت :

— رقصك بديع جداً ياسوسو ...
فصفق سوسو بيديه حبوراً وقال :
— دمت من فتاة كريمة . الحياة فانية ياتيتي ، وأجمل ما فيها كلمة حلو .
وهل دام شيء للإنسان ؟ .. الواحد منا يشتري حق الفازلين ولا يدرى
أيكون لشعره أم لشعر ورثته !

* * *

وغادرا الحجرة — أو الفصل — إلى الردهة ، فمضى بها إلى الحجرة
التي تليها . وشعر بعينيهما تلحظانه ولكنه تجاهلهما عن حكمة ، حتى بلغا
الباب فغمغم قائلاً :
— فصل الرقص الغربي ...

فتبعته صامتة . كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلاً ، وأن الماضي
قد عفاه الحاضر ، فلم تر بداً من الاستسلام للمقادر ، وتساءلت هل تبلغ
حقاً السعادة المنشودة ؟ . وجدت هذه الحجرة في بنائها وصورتها كسابقتها
إلا أنها حجرة حية متحركة صاخبة . كان الحماكي يبعث لحناً غريباً تلقته
أذنها في دهشة وإنكار ، وكان قوم يرقصون أزواجاً ، قوام كل زوج
فتاتان ، وقد انتحى شاب أنيق البزة جانباً وهو يراقبهن بهناية ، ويولين
بملحوظاته ، وتبادل الرجلان التحية ، وواصل الراقصات رقصهن وهن
يتفحصن حميدة بنظرات ناقبة ناقدة . ودارت عيناهما بالمرقص والراقصات
فعمجت لثابهن البديعة وزينتهن البارعة ، وسرعان ما تناست هواجسها ،
واستولى عليها انفعال عارم ، فعانت شعوراً مؤلماً بالضمة ، ثم استفزها
إحساس حاد بالحماس والتوثب . ولاحت منها التفاتة إلى رجلها فوجدته

محافظاً على هديته ووزائته ، تلوح في عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوة . والتفت نحوها فجأة كأنها جذبتة عينها ، فانبسطت أساريره ، ومال نحوها قليلاً متسائلاً :

— أيعجبك ما ترى ؟

ف قالت ببساطة وهي تقاوم انفعالها :

— جداً . . .

— أى الرقصين تفضلين ؟

فابتسمت ولم تجب . ولبتنا قليلاً صامتتين ، ثم فادرا الحجرة . واتجهوا نحو باب ثالث وقد تجلى الاهتمام في وجهها . وما كاد يدفع الباب حتى حملت في دهشة وذهول . رأت في وسط الحجرة امرأة عارية منتصبية القامة . وظلت ثواني لا تحول بصرها عنها فلم تر شيئاً سواها . ومن عجب ان المرأة العارية بقيت بموقفها كأنها لم تشعر بمقدمهما ، وجعلت تنظر إليهما في هدوء واستمرار وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييها أو تحييه هو بالأحرى . وعند ذاك قرعت أذنيها أصوات ، فتلفتت يمنة ويسرة وأدركت أن الحجرة معمورة بالآدميين . رأت إلى يسار الداخل صفّاً من المقاعد مشغولاً نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعري . . . ورأت على كئيب من المرأة العارية رجلاً في بدلة أنيقة قابضاً يمينه على مؤشر قد ركز سنانه على مقدم حذائه . ولاحظ فرج إبراهيم دهشتها ، فرغب أن يسرى عنها ، فقال لها :

— هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الانجليزية . . .

فخدجته بنظرة إنكار كأنها تقول له « لا أفهم شيئاً » فأشار لها بالتمهل

ثم وجه خطابه للرجل القابض على المؤشر وقال :

— استمر في درسك يا أستاذ . . .

فقال الرجل بصوت يدل على الطاعة :

— هذه حصّة تسميع .

ورفع المؤشر بخفة ، وأمس بسنانه شعر العارية ، فنزلت المرأة بلهظ غريب « هير » ، فأنزله إلى جبينها فبكت « فرنت » ، وانتقل إلى الحاجب فالعين ثم الفم ، وشرق وغرب ، وصعد وصوب ، وهي تجيب على أسئلتها الصامته بكلمات غريبة ، لم تسمعها حميدة من قبل ، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجاً ، وتساءلت كيف تبدو هذه المرأة عازية حيال هذا الجمع ، وكيف ينظر فرج إلى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة ! . . . وغلى دمهها ، والتهب خداهما . وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهز رأسه راضياً عن التلميزة الذكية ، ويتمتم « برافو . . . برافو . . . » ثم خاطب الرجل قائلاً :

— أرنى شيئاً من الغزل . .

فنهجى الرجل المؤشر جانباً ، وأقبل على المرأة مخاطباً في لهجة انجليزية وعاطفة المرأة قولاً بقول ، فتراطنا دقائق بلا تلعثم أو تردد ، حتى صاح فرج إبراهيم :

— عظيم . . عظيم . . . والأخريات ؟

وأشار إلى الفتيات الجالسات ، فقال الأستاذ :

— فى طريق التحسن . . . وإنى أقول لهن دائماً إن الكلام لا يحصل بالحفظ ، ولكنه يكتسب بالتجربة ، فالحانات والبنسيونات هى دور العلم الحقيقية ، وما هذا الدرس إلا تثبيت للمعلومات الميوشة . .

فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته :

— صدقت . . صدقت . .

وحياه بإيماءة من رأسه ، وتأبط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان مهماً ، وقطعا الردهة الطويلة مرة أخرى صوب حجرتهم . كان وجهها جامداً ، وفمها مطبقاً ، وعيناها تنمان عن الشرود والحيرة ، وكانت تتلمس سبباً للانفجار ، لا لهدف ترى إليه ، ولكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب . ولازم الرجل الصمت حتى حواها المخدع ، ثم قال بلطف :

— يسرنى أنى أطلعتك على مدرستي ، وأنتك فقتشت فصولها بنفسك

ربما تراءت لك ذات برنامج عسير شاق ، ولسكنك رأيت بعينيك تلميذاتها
البارحات ، وجميعهن بغير استثناء دونك ذكاء وجمالاً . . .

فرمته بنظرة عناد وتحد وسالته ببرود :

— أتريدني على أن أفعل مثلين . . . ؟

فابتسم في رقة وقال بمكر ودهاء :

— لا سلطان لأحد عليك ، ولا راد لقضائك ، وأنت وحدك صاحبة
الأمر والنهي ، ولسكن واجبي أن أوضح لك العالم ، والخيرة لك . والحق
أنه لمن حسن الحظ أنني وجدت رفيقاً ليبدأ تسكفيه الإشارة ، قد حباه الله
جمالاً وهمة وبهاء . فإذا سمعت إلى استنارة حماسك اليوم فعسى أن تسعى
أنت غداً إلى استنارتى . إنى أعرفك حق المعرفة ، وأقرأ قلبك كصفحة
مبسوطة ، وها أناذا أقول لك عن عقيدة ويقين إنك ستقبلين على تعلم الرقص
والإنجليزية ، وإتقان كل شيء في أقصر فترة من الزمن . ولقد اتبعت
معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنبت الكذب والخداع ، لأنى
أحببتك حباً صادقاً ، ولأنى أيقنت من أول لحظة بأنك لا تخفين ولا تخدعين ،
فاعلى ما تشائين يا محبوبتى . جربى الرقص أو انبذيه ، استهترى أو عفى ،
ابقى أو عودى فلا قبل لى بك على جميع الأحوال . . .

ولم يذهب خطابه سدى ، فقد سرى عنها ، وخف توتر أعصابها .
واقترب منها ، وأخذ راحتها بين يديه ، وضغط عليها بحنو ، وهو يقول :

— أنت أسعد حظ جادت به الحياة على . . . ما أفتنك . . . ما أجملك . . .

وحدق في عينيها بإمعان وافتتان ، ورفع يديها — وهما مضمومتان —
إلى فمه ، وراح يقبل أطراف أناملها زوجاً زوجاً ، وهى مستسلمة ليديه ، تهجد
لسكل لثة من شفته تسكورها فى أعصابها ، حتى تندت عيناها برقة وهيام .
وند عنها نفس حار فى شبه تنهدة ، فأطاطها بذراعيه ، وضمها إلى صدره رويداً
حتى شعر بمس ثديها لقلبه ، ثدى بكر ناهد يكاد لصلايته ينغرس فى صدره ،
وراح يمسح على ظيهرها براحتيه صعوداً وهبوطاً ، ووجهها مدفون فى صدره

ثم همس « فمك » فرغمت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلاً ، فطبع شفتيه على شفتيها في قبلة طويلة جداً ، فأطبقت جفنيها كأنها أخذتها سنة من نعاس . وحملها بيدس فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع ، وسار بها متميلاً نحو الفراش ، وقد هز ساقيهما المعلقةين هزة أطاحت بالشبشب ، ثم أنامها ، ولبت مائلاً عليها معتمداً على راحتيه ، منها النظر في وجهها الموردة . وفتحت عينيها فالتفت بعينه ، فأبتسم إليها ابتسامة رقيقة ولكنها ظلت تروى إليه بنظرة ساجية . وكان في الحق متبالساً لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذلك ، وكان فكره أنشط من قلبه ، وكان قد أجمع رأيه على خطة لا يحميد عنها ، فاستوى واقفاً وهو يغالب ابتسامة ماكرة ، وقال بلهجة من يزع نفسه عن هواها .

— مهلا . . مهلا . . إن الضابط الأمريكي يدفع خمسين جنياً عن طيب خاطر ثمناً للعدراء !

التفتت إليه داهشة . وسرمان ماخابت من عينيها النظرة الفاترة ، وحل محلها نظرة صارمة قاسية قاذرة . ونهضت جالسة في الفراش ، ثم انزلت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحية الهائجة . وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خده بقوة وقسوة تجاوزت أركان الحجر رنينها . ولبت ثواني جامداً ثم تمدد جانب فمه الأيسر في ابتسامة هازئة ، وبسرعة تفوق الفكر رفع كفه ولطمها على خدها الأيمن بقوة متناهية ، ثم رفع يسراه — قبل أن تفيق من اللطمة الأولى — وصك بها خدها الأيسر بشدة بالغة ! . اصفر وجهها ، وسرت ارتعاشة في شفتيها وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية ، فارتدت على صدره ، وأنشبت أناملها المتقبضة في عنقه . وتلقى الرجل هذه الهجمة بسكينة ، ولم يحاول مدافعتها بل أحاطها بذراعيه وشد عليها حتى كاد يهرسها . ومضت أصابعها تلين ، ثم ارتدت عن عنقه ، وتحسست منكمبيه وعلقت بهما ، ورفعت إليه وجهها قائماً وثغراً مرتعشاً مشوقاً . . .

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته سكون عميق ، حتى
قهوة كرشة أغلقت أبوابها وتفرق سمارها . وفي هذا الهزيع من الليل سرق
من باب الفرن شيخ زليطة ، صانع العاهات ، ينطلق إلى تجواله الليلي . قطع
الرجل أرض الزقاق إلى الصنادقية ، وعرج إلى اليسار متجها صوب الحسين ،
فسكاد يصطدم بشيخ قادم في منتصف الطريق ، وما لبث أن تنور وجهه على
ضوء النجوم الشاحب فيتف به :

— الدكتور البوشي ! . . من أين أنت قادم ؟

فأجابه الدكتور بمجلة ولطفة :

— كنت ماضياً إليك . . .

— أعندك طلاب ماهات ؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس :

— عندي ما هو أهم ، لقد توفي عم عبد الحميد الطالبي !

فأضاءت عينا زليطة في العتمة وسأله باهتمام :

— متى توفي ؟ . . . وهل دفن ؟

— دفن مساء اليوم .

— أعرفت مقبرته ؟

— فيما بين باب النصر وطريق الجبل .

وثأبط زليطة ذراعه وسار به في الطريق الذي كان آخذاً فيه وهو
يسأله مستوثقاً :

— ألا يمكن أن تضل الطريق في الظلام ؟

— كلا . . . كنت في أثناء سيرة الجنازة منتبهاً يقظاً فحفظت علامات

الطريق ، وفضلا عن هذا فهو طريق معروف لسكينا ، وطالما قطعناه معا في
الظلام الدامس . .

— وأدواتك ؟

— في مكان حريز أمام الجامع . . .

— وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة ؟

— عند المدخل حجرة مسقوفة ولكن القبر في فناء مكشوف . .

فسأله باللهجة لم تخل من تهكم :

— أ كنت تعرف الرحوم ؟

— معرفة بسيطة . كان بائع دقيق في البيضة .

— أ طقم كامل أم بضعة أسنان فقط ؟ . .

— طقم كامل . .

— ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل دفنه ؟

— كلا . إن أهل البلد أهل تقوى ، وهيمات أن يفعلوا ذلك . . .

فقال زليطة وهو يهز رأسه أسفا :

— مضى زمن والناس يودعون القبر حلى موتاهم !

فتمهد الدكتور قائلا :

— أين منا ذاك الزمن !

وبلغا الجمالية في ظلمة حالكة وصمت مخيم ، ومرا في طريقهما بشرطين

ثم أخذوا يقتربان من باب النصر . واستخرج زليطة من جيبه نصف سيجارة

وأشعلها وراح يدخن بشغف . وقد فزع الدكتور بوشى من ضوء عود

الثقاب وقال لصاحبه بنرفزة :

— بنس ما اخترت هذا الوقت للتدخين . . .

ولكن زليطة لم يأبه ومضى يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— لا فائدة ترجى من الأحياء ، وقليل من الموتى ذو وقع . . . !

ومرقا معا من باب النصر ، ومالا إلى اليمين يقطعان طريقا ضيقا تحف

به المقابر من الناحيتين ، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة . وقال
زيطة عند نهاية الثالث الأول من الطريق « هالك المسجد » فتلفت بوشى فيما
حواله ، وتنصت قليلا فى حذر ، ثم اقترب من الجامع متحاميا إحداث
أى صوت ، وتحنس الأرض لصق جداره فيما يلى مدخله حتى عثر بحجر
كبير ، ثم أزاحه عن موضعه بيديه ، واستخرج من ثغرة تحته فأسا صغيرا
ولقافة تحوى شمعة ، وطاد إلى صاحبه ، فاستطردا فى مسيرهما وهو يقول
همسا « تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراوى بخمس مقابر » ، وجدا فى
السير وعينا الدكتور تتطلعان إلى المقابر على يسار الطريق ، وقلبه يدق
بهنف ، ثم تثاقل بغتة وهو يهمس « هذه المقبرة » ، ولما لم يقف ، بل
حث صاحبه على السير وهو يقول :

— سور المقبرة المطل على هذا الطريق طال ، والطريق نفسه غير مامون ،
فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء ، ثم ندور المقبرة من
ناحيتها الخلفية حيث يوجد القبر فى الفناء المكشوف . . .

ولم يبد زيطة اعتراضا ، فتقدما فى صمت حتى انتهيا إلى طريق الصحراء
واقترح زيطة أن يجلسا على الطوار قليلا ريثما يراقبان الطريق ، فجلسا جنبا
لجنب ، وراحا يراقبان السكان بأربع أعين . كان الظلام شاملا ، والمكان
مقفرا ، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة من الأرض لا يحيط بها البصر
ومع أن هذه المخاطرة لم تكن الأولى من نوعها إلا أن الدكتور بوشى
لم يستطع أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرب . فلبث يحملق
فى الظلام ، فؤاده خافق ، وريقه جاف ، وأعصابه متوترة ، حين جلس
زيطة جامدا ، رابط الجأش ، لا يبالي شيئا . ولما اطمان إلى خلو الطريق
قال للدكتور :

— دع الأدوات واسبقنى إلى سور المقبرة الخلفى ، وانتظرنى هنالك . .
ونهبذ الدكتور على كره ، وتسلسل بين القبور مائلا نحو الأسوار الخلفية
للمقابر ، وسار لصق الجدران متمسكا طريقه فى ظلام دامس ليس به من

بارقة نور إلا ما تشعه النجوم ، وجعل يعد الأسوار حتى بلغ خامسها ، وألقى على ما حوله نظرة لص ، ثم جلس القرفصاء . لم تثر عيناه بشيء يريه ولم يبلغ أذنه حس ، ولكن القلق لم يزايله ، واشتد جزعه . وبعد قليل رأى شبح زليطة على مدى أذرع منه ، فمض في حذر ، وطأ الرجل السور ثم قال همساً :

— تقوس حتى أصعد على ظهرك . .

وتقوس الدكتور معتمداً راحتيه على ركبتيه ، وورق الرجل ظهره ، وتحسس الجدار حتى قبض على حافته ، ثم تسوره بمهارة وخفة ، ورمى بالفأس ولفافة الشمعة إلى داخل الفناء ، ثم مد يده إلى الدكتور حتى التفت بيده ، وأمانه على تسليق الحائط حتى تسنمه ، وهويا معاً . ووقفا عند أصل السور استريحان ، والتقط زليطة في أثناء ذلك الفأس واللفافة . وكانت أعينهما قد اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت ، فرأيا الفناء في شيء من الوضوح ، وقبرين متجاورين ينهضان على كשב من موقفها ، وفي نهاية الفناء يقوم الباب المطل على الطريق الذي جاء منه ، وعلى جانبيه حجرتان . وسأل زليطة وهو يومئ إلى القبرين :

— أيهما ؟

فأجابه بصوت يكاد ينجس في حلقه :

— على يمينك . .

ودنا زليطة من القبر بلا تردد ، يتبعه بوشى مرتجف الأوصال . وحتى قامته متحسناً أرض المنزل فوجد لها طريقة ندية ما تزال ، فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة مكوما الثرى بين رجليه المنفرجتين . وثابر على العمل الذي لم يكن جديداً بالنسبة إليه حتى كشف عن السلالم التي تسقف منزل القبر ، وشمر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه ، وأقبل على طرف السلمة الأولى ، ورفعها شاداً على عضلاته حتى انتصبت قائمة ، وأخذ ينمها بمعونة البوشى حتى طرعاها أرضاً . وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية . واكتفى

بالشجرة التي فتحها حيث يمكن أن ينزلق منها هو وصاحبه ، ومضى إليها
ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور منغمماً « اتبعني » فتبعه منقبض
الصدر مقشعر البدن . وكان الدكتور يجلس — في مثل هذا الظرف —
على الدرجات الوسطى ، ويشعل الشمعة ويثبتها في الدرجة السفلى ، ثم يغمض
عينيه ويدفنها بين ركبتيه . وكان يدخل القبور على كره ، وطالما ناشد
زليطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر ، ولكن الآخر أبى أن يؤدي له
هذه الخدمة إلا إذا شارك في جميع خطواتها ، مستلذاً في أعماقه تعذيبه !
وقد اشتملت ذبالة الشمعة فأضاءت ، القبر وألقى زليطة نظرة متحجرة على
الجثث المدرجة في أكنافها ، مطروحة في تتابع وتواز حتى غيابات القبر ،
يرمز نظامها إلى تسلسل التاريخ واطراد الزمن ، وينطق صمتها الرهيب
بالفناء الأبدي . ولكنها لم ترجع في صدر زليطة أي صدى ، فسرعان
ما استرد نظرتة المتحجرة وثبتها على السكفن الجديد عند بدء القبر .
وجلس القرفصاء ، ثم كشف عن رأس الجثة يدين باردتين ، وحسر الشفتين
وطالج بأصابه الطقم حتى انتزعه ، وأودعه جيبه وقد تلوثت أنامله . ثم
غطى الرأس كما كان ، وتحول عن الجثة إلى الباب ، فرأى الدكتور دافنا
رأسه بين ركبتيه والشمعة في أسفل الدرج تزهز ، فرماه بنظرة ساخرة
وغنم في ازدراء « اصبح ! » ، فرفع الدكتور رأسه مرتعداً ، ومال
نحو الشمعة فتناولها وتمخيا فأطفأها ، ورقى السلم في عجلة كأنه ينهر . ورقى
زليطة الدرج كذلك ، ولكنه قبل أن يبرز من الشجرة صكت أذنيه صرخة
داوية ، وسمع الدكتور يصيح بصوت كالمواء « في عرضكم ! » . تسمرت
قدماه ، ثم تراجع نازلاً الأدراج وهو لا يدري ما يفعل وقد أثلجت أطرافه
وما زال يتراجع حتى داس كعبه الجثة ، فتقدم خطوة ووقف متسماً
لا يجد مهرباً . وخطر له أن يرقد بين الجثث ، ولكنه قبل أن يأتي حركة
واحدة غمره نور وهاج أغلق جفنيه قسراً ، وسمع صوتاً شديداً يصيح به
في لهجة صعيدية :

— اصعد... وإلا أطلقت عليك النار...
وطوقه اليأس فاستسلم ، ورقى الدرج كما أمر ، وقد نسي الطقم الذهبي
في جيبه .

* * *

ولم يتناه إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشى وزيطه في مقبرة
الطالبى إلا عند عصر اليوم التالى . وفشا الخبر وعرفت أسبابه ، وتناقله
القوم في دهشة وانزعاج . وما إن علمت به الست سنية عفيفى حتى استحوذ
عليها الفزع وولوات صارخة ، وانتزعت طقمها الذهبي ورمته به ، وأخذت
تلطم خديها فى حالة عصبية شديدة ، ثم سقطت عفاى عليها . وكان زوجها
فى الحمام ، فلما أن قرع أذنيه صراخها أخذته الرعب فارتدى جلبابه على
جسده المبلول ، وهرع إليها لا يلوى على شيء .

٢٨

كان عم كامل جالسا على كرسية على عتبة الدكان ، ماثلا رأسه على صدره ،
فارقا فى النعاس ، والمنشأة فى حجره . ثم استيقظ على ديب شيء على صلعبته
فتحركت يده حركة آلية ليطرد ما ظنه حشرة ، ولسكنها وقعت على كف
أدمية ، فقبض عليها ساخطا ، وتأوه متذمرا ، ورفع رأسه ليرى ذاك
اللداعب الثقيل الذى أيقظه من نعاسه اللذيذ ، ف وقعت عيناه على عباس
الحلو... لم يكن يصدق عينيه ، فمعلق فيه مشدوها ، ثم اشتد احمرار
وجهه المنفوخ فرحا ، وهم بالنهوض ، ولكن الشاب لم يمكنه من ذلك ،
واحتضنه بذراعيه فتعانقا عنقا حارا ، والحلو يهتف به متأثرا :

— كيف حالك يا عم كامل ؟

فيجيبه الرجل فى لهفة وسرور :

— كيف أنت يا عباس... أهلا وسهلا ومرحبا... لشد ما أوحشتنى

يا عكروت...

ووقف الحلو بين يديه مبتسماً ، والآخر يتطلع إليه بعينين شقيقتين .
وكان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً ، وقد حُسر رأسه ورجل شعره
فبدلاً أنيقاً حسن المنظر موفور الصحة مورد الوجه ، فرمقه عم كامل بإعجاب
وقال بصوته الرفيع :

— ما شاء الله ! أنت رائع يا جوني . . . !

فضحك عباس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جندل وقال :
— ثألك يو . . . لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزية وحده بعد اليوم .
وأجال الشاب عينيه في الزقاق المحبوب ، فوقعتا على دكانه القديم ،
ورأى صاحبه الجديد مكباً على حلق ذقن زيون ، فرنا إلى الدكان رنوة
حنان وتحمية . ثم طار بصره إلى النافذة فوجدتها مغلقة كما كانت حين
قدومه ، فتساءل ترى أهي في الدار أم في الخارج ؟ : وما عسى أن تفعل
إذا فتحت الباب فوجدت أنه الطارق ؟ . . . سوف تخلق في وجهه بدهشة
وذهول ، فيملاً عينيه من حسنها الباهر . . . هذا يوم أغر من الأيام .
العدودة في العمر . وانتبه إلى صوت عم كامل وهو يقول متسائلاً :

— أتركت عمالك ؟ .

— كلا ، ولكني أخذت إجازة قصيرة .

— ألم تدربنا حصل لصاحبك حسين كرشة ؟ .. هجر أباه ، وتزوج ،
ثم استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجر وراءه زوجه وشقيقتها .
فلاح الأسف في وجه الحلو وقال :

— يا لسوء الحظ . . . ! إنهم يستغنون عن العمال كثيراً في هذه الأيام .
وكيف استقبله المعلم كرشه ؟
فقط عم كامل بوزة وقال :

— لا يفتأ شاكياً متبرماً ، أما الفق وأهله فيقيمون في الدار .
ومسكت الرجل نصف دقيقة ثم قال متعجلاً كأنما ذكر أمراً هاماً .
— أما علمت بأن الدكتور بوشى وزليطة مسجونان ؟ !
ثم قص عليه كيف قبض عليهم في قبر الطالبي متلبسين بمجرمة مرفقة

طقمه الذهبي . وقد وجهم الحلو وجوماً شديداً . ولم يكن يستبعد أن يرتكب زيلة أشنع الجرائم ، ولكنه عجب للدكتور بروشي كيف سولت إليه نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء . . . وذكر كيف طلب إليه أن يركب له طقمًا حين عودته من القل الكبير ، فالتوت شفقاها امتعاضا وتقززا . واستدرك عم كامل يقول :

— وقد تزوجت الست سنية عفيفي . .

وكاد يقول له « العقبى لك » ولكنه أمسك فجأة وقد دق قلبه بعنف ! . ذكر عند ذلك حميدة ! . . . ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجبا من نسيان ما كان ينبغي أن يذكره لأول وهلة ! . ولكن الحلو لم ينتبه لتغيره ، ومرطان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلا :

— أستودعك الله إلى حين . .

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهجة :

— أين تقصدا ؟

فقال الحلو وهو يهم بالمسير :

— إلى القبوة أسلم على من بقي من أصحاب . .

فاتسكأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهدا ، وتبعه متبخترا . وكان الوقت عصرا فلم يجدا بالقوة من أصحابهما إلا المعلم كرشة والشيخ درويش ، فسلم عباس على المعلم الذي لاقاه بترحيب ، وشد على يد الشيخ درويش . فرمقه الشيخ بنظرة باسمة من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة . وكان عم كامل يعاني انقباضاً ثقيلا ، وحزناً مريراً ، ولا يدرى كيف يفاتحه بالنبأ الأليم ، فقال له برجاء :

— هلا عدت معي إلى الدكان قليلا . . . ؟

ووقف عباس متردداً بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التي انتظرها جزماً بضعة أشهر ، ولكن لم يهن عليه عم كامل ، ولم يجد بأساً في المكوث معه فترة قصيرة من الوقت ، فرجع معه إلى دكانه مداريا برمه بابتسامة

لطيفة ، وجلسا في الداخل جنباً لجنب ، وهو يقول بسرور :

— الحياة في القل الكبير حياة عظيمة . عمل متواصل . وريح موفور ،
إني لا أبعثر نقودي قائماً بعيشة متواضعة لا تسكاد تختلف عن عيشة الزقاق .
حتى الخشيش لم أذقه إلا مرات معدودات مع أنه هنالك كالماء والهواء .
وقد ابتعت هذا . . . انظر يا عم كامل . العقبى لك . . .

واستخرج من جيب بنطالونه علبة صغيرة وفتحها ، فبان بداخلها عقد
ذهبي مركب من سلسلة وقلب رقيق ، ثم استطرد وعيناه البارزتان تلعبان
بسرور :

— شبكة حميدة . أما علمت ؟ . . . سأكتب الكتاب في إجازتي هذه . . .
وتوقع أن يقول الرجل شيئاً ، ولكن عم كامل لاذ بصمت ثقيل ،
وغض بصره كأنه يخفيه ، فنظر إليه الشاب باهتمام ، ولأول مرة رأى
ما ينطق به وجهه من وجوم واكفورار . ولم يكن عم كامل من الذين
يفلحون في إخفاء ما يعتمل في أنفسهم ، فلاح باطنه عارياً في وجهه ،
وسرمان ما قطب الحلو وساوره القلق ، فأغلق العلبة وأعادها إلى جيبه ،
وأنعم في صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه . وأشفق على قلبه
الجلد الحبور أن تطفئ جذوته خيبة لا يديرها ولا يتوقعها . أشفق من
ذلك إشفافاً أليماً موجعاً ، ولكن نذر السكدر تخايلات لعينيه في وجه
الرجل المرتبك الواجم ولم يستطع مع جموده صبراً . فسأله بارتباب :

— مالك يا عم كامل ؟ . . . لست كعهدي بك . ما الذي غيرك ؟ . . . لماذا
لا تنظر إلى ؟ !

فرفع الرجل وجهه إليه ببطء ، وطالعه بعينين مظلمتين محزونتين ، وفتح
فيه ليتكلم ، ولكن لسانه خانه فلم يطاوعه . وبلغ الجزع بعباس مداه ،
وتنبأ قلبه بالفاجعة ، فشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرحه ، ويحمد أنقاس
أمله ، فيتف بحزم قائلاً :

— ماذا وراءك يا عم كامل ؟ . ما الذي تريد أن تقول ؟ . عندك ما تقوله .

بلا ريب ، بل في ضميرك أشياء ، وأشياء ، فلا تقتلني بترددك . حميدة ؟ .. !
إي والله حميدة .. ! قل ما تشاء . لا تعذبني بسكوتك . مات ما عندك
دفعة واحدة .

فازدرد الرجل ريقه . وقال بصوت لا يكاد يسمع :
— ليست موجودة ! . لم تعد هنا . اختفت . لا يدرى أحد عنها شيئاً .
أنصت إليه بذهول وفزع ، ونقشت الكلمات في وعيه كآلة كآلة ،
ولكن غشي فيه ضباب وغبار ، وكأنما انتقل فجأة إلى دنيا المحومين ،
فقال بصوت متهدج :

— لست أفهم شيئاً . ماذا قلت ! . لم تعد هنا ، اختفت ؟ . ماذا تعني ؟
فقال عم كامل بأسى :

— شد حيلك يا عباس . يعلم الله أني حزين أسيف ، وأنني حملت شوك من
أول الأمر ، ولكن ما باليد حيلة . اختفت حميدة ، ولم يدر أحد عنها
شيئاً . خرجت يوماً كعادتها كل عصر ولكنها لم تعد . فتشروا عنها في
مظانها جميعاً دون جدوى . بلغنا قيم الجالية ، وبحشنا في قصر العيني ،
ولكن لم نعثرها على أثر ..

لاح في وجهه سهوم ، ولبت حيناً جامداً صامتاً ، لا يتكلم ولا يتحرك
ولا يطرف . لا مذهب ولا مهرب . ألم يتنبأ قلبه بالفاجعة ؟ . بلى ، وهاهو
يصدق . يا عجباً .. ماذا يقول الرجل ؟ .. اختفت حميدة ؟ .. وهل يخفى
البشر كما تخفى إبرة أو قطعة من النقود ؟ . لو أنه قال مات أو تزوجت
لأمكن أن يجد لمضطربه مدى أو نهاية ، فاليأس على أية حال أروح من
الشك والحيرة والغداب . ولكن ما عسى أن يفعل الآن ؟ . بات اليأس
نعمة لا يطعم فيها بحال . وخرج من جموده فجأة ، فاستعرت نفسه هياجاً
وارتعشت أطرافه ، وحذج الرجل بعينين مجهرتين وصاح به :

— اختفت حميدة ! .. وماذا فعلتم ؟ .. بلغتم قيم الجالية وبجئتم في
قصر العيني ؟ .. جزاكم الله كل خير ، ثم ماذا ؟ .. عدتم إلى أعمالكم كأن
شيئاً لم يكن ! .. يا لطف الله ! .. انتهى كل شيء ، فرجعت أنت إلى دكانك

وراحت أمها تطرق أبواب العرائس ، وانتهت حميدة ، وانتهت أنا أيضاً .
ماذا تقول يا رجل ؟ خبرني عما تعلم ؟ ماذا تعرف من أسر اختفائها ؟ ..
كيف اختفت ؟ ومتى وقع ذلك ؟ !

استحوذ الاضطراب على عم كامل لما بدر من صاحبه من حدة وغضب
وقال بصوته الحزين :

— مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بني . كان حادثاً مروعاً مفرعاً
ارتجت له القلوب . والله يعلم أننا لم نأل جيداً في البحث والاستفسار ،
ولكن ما باليد حيلة !

فضرب عباس كفاً على كف ، وقد احتقن الدم بوجهه ، وازدادت
عيناه جيحوظاً ، وقال كأنه يخاطب نفسه :

— زهاء شهرين ! .. رباه .. هذا تاريخ قديم . لا أمل في العثور عليها
ماتت ؟ .. غرقت ؟ .. خطفت ؟ .. من لي بأن أدري ؟ .. خبرني بما
يقول الناس ؟

فقال عم كامل وهو يرمقه بحزن وحنان :

— ظنوا ظنوناً كثيرة ، ثم رجحوا أنها ذهبت ضحية لحادث ، أما
الآن فلا يذكر شيئاً ..
فيتف الشارب متأوها :

— طبعاً .. طبعاً ، فلا هي ابنة لأحد منهم ، ولا قريبة أحد ، حتى
أمها ليست بأمها . ترى ماذا حدث لها ؟ .. كنت في هذين الشهرين أسعد
الناس أحلاماً . أرايت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقب يقظته
ساخراً هازئاً طاوياً مصيره بيديه القاسيتين ؟ ! .. ولعلني كنت أنعم بلذيت
السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة ، أو تتخبط في قعر النيل .. شهران
يا حميدة ! .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ونهمض قائماً ضارباً الأرض بقدمه ، ثم قال بامتعاض :

— أستودعك الله ..

فسأله بلهفة :

— علام نويت ؟

فقال بفتور :

— سأقابل أمها . . .

وذكر وهو يدلف من باب الدكان متناقلاً كيف جاء يكاد يطير من جلده فرحاً ، وكيف يذهب عظمياً مهيناً . فعض على شفته ، وتسمرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه ، وتحول نحوه صاحبه فراه ينظر إليه بعينين مفرورتين بالدمع ، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعى ، وارتقى على صدره فى قنوط ، ولشج منتحبا باكياً كالأطفال . . .

* * *

ألم يداخله شك فى حقيقة اختفائها ؟ . . . ألم يساوره ما يساور المحبين من ارتياب وسوء ظن فى مثل حالته ؟ الحق أن طيف شك قد لاح بخاطره ولكنه لم يلق إليه بالاً فتبدد . كان بطبعه شديد الثقة ، يجود بالظن الحسن بغير حساب . كان طيب القلب جداً ، ومن هذه القاة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة العاذير لغيرهم ، واختيار أخف التأويلات لأفطع الفعل . ولم يغير الحب من طبعه هذا ، بل لعله وسخه وقواه ، فلم تظهر منه وسوسة الغيرة وهميمة الشك بأذن مرهفة . وقد أحب حميدة حباً شديداً باركته فطرتة الطيبة بثقة وطمأنينة . وآمن — إلى هذا كاه — بأن فتاته أكمل فتاة فى هذه الدنيا التى لم ير منها شيئاً يذكر . فلم يداخله شك فيها . أو أن طيف الشك الذى لاح له لم يجد فى قلبه مرتعاً يعيث فيه . وقد ذهب لمقابلة أمها ذلك اليوم ، ولكنها لم ترو له غلة ، وأعادته عليه ما قصه عم كامل بصوت مخمق بالعبرات . وزعمت له أن الفتاة كانت لا تفتأ تتذكره وتترقب عودته بصبر فارغ فضاعفت بكذبها أحزانه ، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبلى الفكر معذب النفس . وغادر الرقاق تسوقه قدماه الثقيلتان ، وقد زعفر الأصيل هامة النهار ، تلك الساعة التى اعتاد — فى الأيام الخوالى —

أن يرى فيها مطلقها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليومية . وقطع الطريق
 ذاهلاً عما حوله . فتمثلت لعينيه بجسمها المنفوف في الملاءة السوداء وعينها
 النجلاوين المحبوبتين ، وهفت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة ،
 فتنهد من الأعماق ، وتفتح محزوناً قانطاً . ترى أين هي الآن ؟ ... ماذا
 تصنع ؟ وماذا صنع الله بها ؟ ... تعيش على ظهر الأرض أم ترقد في قبر
 من قبور الصدقة ؟ .. رباه . كيف تحجر قلبه طوال ذلك العهد فلا استششف
 ريبة ولا شام نذيراً ! ... كيف استنم إلى طمأنينة الأحلام ولذة المني
 فأكب عن العمل خافلاً عما يخبئه له القدر ؟ ! . وأيقظه الرغام من دھوله
 فتنبه إلى الطريق ، هذا الموسيقى طريقها المختار باناسه ودكا كينه ، كل شيء
 فيه باق على حاله ، إلا هي ، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بها بالأمس . وألمت
 به رغبة في البكاء ، ولكنه لم يستسلم لها هذه المرة . لقد أراحه البكاء على
 صدرهم كامل ، وأرخى توتر أعصابه ، وتركه لحزن عميق هادئ ، فيجوز
 به الآن أن يتساءل عما هو فاعل ، أيدور على الأقسام وقصر العيني ...
 ولكن ما جدوى ذلك ؟ ، أيدوخ شوارع القاهرة منادياً باسمها ؟ ،
 أيطرق أبواب البيوت باباً ؟ . الله ما أعجزه وما أعجز حيلته . إذن هل يعود
 إلى التل الكبير متناسياً ما وراء ظهره ؟ ، ولكن لماذا يعود ؟ ، لماذا
 يصر على تحميل نفسه آلام النوبة ؟ ، لماذا يكمد ويكده ويجمع النقود ؟ .
 الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته ، خاضت في قلبه مشاعرها جميعاً
 إلا فتوراً يزهد في الأنفاس وخموداً يقتل الإحساس ، وهوى إلى هذه الحالة
 المضنية التي تبدو فيها الحياة فراغاً كثيباً يمدق به سد هائل من القنوط .
 كان يعيش على الفطرة لا يدري شيئاً عما وراءها ، مخلصاً لقوانين الحياة
 الأولية ، فوجد في الحب جوهر حياته وخلودها ، فلما أن فقدته فقد
 الأسباب التي تصله بالحياة ، وتردى مزعزعا كذرة هائمة في الفضاء ، ولولا
 أن الحياة — التي تجرع نصوص الآلام — تتفنن في إغراء بنيتها بالتعلق بها
 حتى في أحلك أوقاتها ، لختم عمره وقضى . ولكنه مضى في سبيله حائراً

قد ضل هدفه ، بل شعر في تلك اللحظة أنه ضله إلى الأبد ، بيد أنه مازال معلقاً
بحيط دقيق يدق على وعيه . ولسح في عرض الطريق بنات المشغل العائدات
فما يدري إلا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن ، فوقن داهشات
وقد تذكرنه في غير مشقة ، وقال لهن بلا أدنى تردد :

— مساء الخير يا بنات ، لا تؤاخذني ، ألا تذكرن صاحبتيكم حميدة ؟
فقالت إحداهن :

— نذكرها جميعاً . . . ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ
ذلك اليوم !

فسأل بصوت ينطق بالأسى :

— ألا تدرين شيئاً عن اختفائها ؟

فقالت أخرى وقد لاحت في عينيها نظرة ماكرة :

— لا ندرى شيئاً على وجه اليقين . إلا ما قلته لأنها حين جاءني يوم
اختفائها تسأل عنها : من أننا رأيناها مرات بصحبة أفندي يسيران معاً
في الوسكى . . .

وحلق في وجه محدثته بذهول وقد ارتعش جانب فيه وسألها :

— أرايتها بصحبة أفندي . . ؟ !

ونال منظره من الفتيات فاخفت من أعينهن نظرات خبيثة ساخرة ،
وتكافن الزانة ، وقالت محدثته برقة :

— نعم يا سيدي . .

— وأخبرت أمها بذلك ؟

— نعم . . .

وشكرهن بكامة ، وسار في طريقه . ولم يداخله شك في أنهن سيجهلن
منه حديثهن بقية الطريق ، ولعلهن يضحكن كثيراً من القبيح الذي
هاجر إلى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوته ، فأثرت عليه آخر وفرت معه .
يا له من مغفل حقاً ! . ولعل أهل حيه جميعاً قد لفظوا بغفلته . وقد رحمه

عم كامل فأخفى عنه الحقيقة ، كما أخفتها أم حميدة ، وهل كان بوسمهما أن
 يفعل ما فعلا ؟ . وخطب نفسه ولما يفق من ذهوله قائلاً « هذا ما حدثني
 به قلبي لأول وهلة » ، ولم يكن صادقاً في قوله ، لأن الشك لم يلم به إلا
 الإمامة خفيفة ، ولكنه لم يعد يذكر في محنته غير هذه الإمامة الخفيفة من
 الشك ، بيد أنه تأوه في اللحظة التالية وتساءل يبسط أصابعه ويقبضها
 في حركات تشنجية « رباه كيف أعقل هذا ! . . . » . أهربت حميدة حقاً مع
 رجل ؟ . . . من يصدق هذا ؟ ! . . . لم تمت إذاً ، ولم يعرض لها حادث ،
 ولقد أخطأوا خطأ كبيراً ، البحث عنها في الأقسام وقصر العيني ، وخاب
 عنهم أنها تنام مسجدة رحية البال بين ذراعي الرجل الذي خطفها . ولكنه
 وعدته ومنته ، أفسكت تخادعه ؟ . . أم توهمت خطأ أنها تميل إليه ؟ . .
 كيف عرفت ذلك الأفتدى ؟ ومضى أحبته ؟ . وأي جراحة شيطانية أغرتها
 بالفرار معه ؟ ! . كان ممتقع اللون ، بارد الأطراف ، تلوح في عينيه نظرة
 ساهمة قائمة ، وتبرق فيها من آن لأن لحظة خاطفة تقدح شرراً . خطر له
 خاطر فصعد رأسه إلى الدور على جانبي الطريق ، ينظر إلى نوافذها ويتساءل :
 في أي دار ترقد لصق رجلها الآن ؟ . انقشع غبار الحيرة ، وحل محله غضب
 ناري ومقت نهم ، وتقبض قلبه وتلوى تحت ضغط يدي الغيرة القاسيتين ،
 غير أن شعوره بالخيبة — الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود في التراب —
 كان أفضح من الغيرة نفسها . إن الغرور والكبرياء وقود للغيرة . يؤرثان
 لهيما ، ولم يكن حظه منهما ملحوظاً ، ولكنه كان شديد الأمل كبير
 الأحلام ، فذوى أمله وتبدد حلمه ، وانفجرت نفسه غضباً . وأفاده الغضب
 من حيث لا يدري ، فاستنقذه من ذلك الحزن الصامت الثقيل ، وعمله
 بالانتقام يوماً ولو على سبيل البصق والازدراء . والواقع أن فسكرة
 الانتقام استجوزت على مشاعره في تلك الساعة الجهنمية من الغضب والقهر ،
 فتمنى أن يتمكن من طعن قلبها الغادر الخائن بمعدة حادة . الآن يستطيع
 أن يدرك سر مواظبتها على الخروج في العاصري ، فقد كانت تنطلق هارضة

تقسمها على ذئاب الطرق ! . ولسكنها جنت بغير شك، جنت بهذا الأفتدى ،
وإلا لما آثرت العير معه على الزواج به ! . وعض على شفته الماء وحنقاً
لهذا الخاطر . واقفل راجعاً وقد ضاق ذرعاً بالمشى والوحدة . وتحسست
يده جلبة العقد في جيبه ، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنها صرخة
غضب في رداء ضحكة . ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبية !
وذكر كيف وقف في دكان الصائغ يقلب عينيه بين الحلى وقلبه يكاد يقفز
من صدره جذلاً وسروراً ، وهفت الذكرى على قلبه كالنسيم الواني إلا أنها
التقت بوهج قلب مضطرب فانقلب النسيم خرواً . . .

٢٩

ما إن وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شد
الخواجا الجالس قبالة على يده وقال له :

— مبارك عليك يا سليم بك . هذه ثروة طائلة . . .

وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يتخفى في سبيله حتى توارى وراء باب
الوكالة . صفقة رابحة . وبحسبه أنه تخلص من مخزون الشاي الذي اشتراه
الخواجا جملة ، فربح الشيء الكثير وأمن شر المخاوف ، خصوصاً وأن
صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء . بيد أنه قال لنفسه ساخطاً متبرماً
« ثروة طائلة ولكنها ملعونة ، لقد حلت اللعنة بكل شيء في دنياي » .
والحق أنه لم يبق من السيد القديم إلى شيخ هزيل ، وكانت أعصابه أشد
ما يرضيه ، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه ، فسامته تفكيراً متواصلاً في الموت
حتى صار الموت شغله الشاغل . ولم يكن الرجل في الأصل بالضعيف الإيمان
ولا كان بالرعيد الجبان ، ولكن تهافت أعصابه أنساه آداب الإيمان
وألوى بشجاعته . وما انك يفكر في ساعة الاحتضار — وقد ذاق بعض
مرارتها في إبان مرضه — ويستذكر ذكرياته عنها همن حضرهم الموت من

أقاربه ، ذاك الرقاد المستسلم الأليم ، وصعود الصدر وهبوطه ، وهذه الحشرة المتقطعة ، وإظلام المقلتين ، وبين هذا وذاك تترع الحياة من الأعماق والأطراف ، وتودع الروح الجسد ، أفقع كل هذا في يسر ؟ ! إن الإنسان ليجن إذا انتزع ظفره ، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته ؟ ! . ولا يدري إلا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم ، فما نستطيع أن نلحس غير آثار الاحتضار الظاهرة ، أما صداها في الروح ورجعها في الجسد ، فسر الميت الذي ينطوى عليه صدره ، ويقبر معه في جدته ، وآخر ذكرياته عن الام الدنيا في أفزع حالاتها وأبشعها ، ولو أنه أتيج لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة في الحياة ، ولما ت الناس ذعراً قبل أن تدركهم النهاية . وطالما تمنى أن يسلكه الله في زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكينة القلبية . ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء ، إنهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون ، أو حين يقومون أو يعمدون ، وكأنهم يعمرون بالاحتضار فيتحينون منه غفلة ثم ينساون خفية إلى باب الأبدية ! . ولكنه في شبه يأس من هذه الميتة السعيدة ، وقد ضرب له أبوه — وجده من قبل — مثل الميتة التي يشعر قلبه المتهافت الفزع بأنها ستجري عليه . احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان . من كان يصدق أن السيد سليم علوان — الرجل القوي السعيد — سيمسى فريسة لهذه الأفكار والمخاوف ؟ هكذا كان ، ولم يكن الاحتضار بفزع الوحيد ، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها ، فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته ! وصور له خياله وثقافته المتوارثة عن الأجيال ، أن بعض شعوره سيلازمه بعد الموت ، أليس يقولون إن عيني الميت تريان من يحدقون به من الأهل ؟ . . . ختم أن يرى الموت جبرة ، وإن يشهر بالنهاية الأبدية وهي تشتمله ، وأن تتصل حواسه بظامة القبر ووحشته وغرته وهياكله وعظامه وأكفانه بل بضيقه واختناقه ، وما يحتمل أن يتردد في النفس من أشواق وحنين وحب للدنيا وأهلها ! . . . تمثل ذلك كله

بصدر منقبض وقلب متشنج وأطراف باردة وجبين يتفصد عرقاً ،
ولم ينس ما وراء ذلك من بحث ونشور وحساب وعذاب . أواه . . .
ما أبعد الشقة بين الموت والجنة ! . . .

لذلك تعلق بأهداب الحياة بقوة الخوف واليأس . على رغم أنها حياة
عاطلة من أسباب النعيم ، فلم تترك له دوراً يلعبه في مسرحها إلا الراجعة
وعقد الصنقات . ودأب عقب ثقافته على استشارة طبيبه ، فأكد له
الطبيب شفاءه من الذبحة وآثارها ولكنه نصحه بالحذر والحرص
والاعتدال . وشكا إليه عدة مرات ما يعاني من سهاد وهو اجس فأشار
عليه باستشارة إخصائي في الأعصاب ، ومن ثم مضى يتردد بين الإخصائيين
في الأعصاب والقلب والصدر والرأس . وتفتح له باب المرض عن طام
لا يقل عن هالما اتساع رقعة وازدحاما بالسكان من الجراثيم والأعراض
الخفية . ومن عجب أنه لم يكن يؤمن لا بالطب ولا بالأطباء ، ولكنه
آمن بهما في اضطرابه ، ولعل إيمانه هذا كان من بين أغراض المرض الذي
ألم بأعصابه ! . . .

في هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته ، وفي أوقات عمله ،
وأوقات السلام التي تصفو فيها نفسه وتنقي من نمش الهواجس كان كأنه
يتفرغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر ، فهو إما في حرب مع نفسه
وإما في حرب مع الناس . وأدرك عمال الوكالة من بادئ الأمر أن سيدهم
قد استحال شخصاً شاذاً ملعوناً ، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة
استمرت ربع قرن من حياته ، وبقي من بقي من العمال على مضض وتوجس
واستكراه . وقال عنه أهل الزقاق إنه بين العقل والجنون ، وقالت حسنية
الفراثة بشماتة لم تحاول إخفاءها « إنها صينية الفريك والعياذ بالله » .
ويوماً قال له عم كامل عن قصد حسن ونية سليمة :

— هلا أمرتني يا سي السيد أن أصنع لك صينية بسبوسة مخصوصة

يرد عليك ثوب العافية بإذن الله ! ولكن السيد غضب غضباً شديداً
وانفجر صائحاً فيه :

— إليك عنى أيها الغراب . أجننت يا أعشى القلب والبصيرة ! ...
إن أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم أمعتهم سليمة حتى الق...
ولم يعد بعدها عم كامل إلى التعرض له بخير أو بشر .

أما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه ، ولم يفتأ يلقي على حسنها
المزعوم له تبعة ما حصل له في جسمه وعقله ، وكان ينتهرها قائلاً :

— لشد ما تقمت على صحتي وهافيتي ، حتى تحطمت بين يديك ، فهنيئاً لك
الراحة يا أفعى ... واشتد به سوء الظن ، حتى ارتاب يوماً أن يكون نما
إليها عزمه على الزواج من حميدة ، لأن أمثال هذه الأمور تتصدى لها
أعين كثيرة فتراها في خفية من صاحبها ، وتتطوع ألسنة كثيرة لإذاعتها
وإيصالها لصاحب الشأن ، ولم يستبعد عند ذاك أن تكون المرأة قد
انتقمت منه بأن عملت له « عملاً » هو الذي أودى بصحته وعقله ! ...
ولم يكن في حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض له من فكر بميزان العقل
ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة ، فسرطان ما انقلبت الريبة يقينا . فتميز
غيظاً ، وامتلاً حنقاً ، وتوئب للانتقام . اشتغل في معاملتها ، ودأب على
سبها ونهرها ، ولكنها قابلت قسوته بالامتنان والصبر والأدب ، فلم
يجده شططه ، ولبت يتحرق إلى إثارتها ، وإخراجها من التعوذ بالصمت
والصبر إلى الأخذ بأسباب التشكي والتذمر وذرف الدموع ، فقال لها
مرة بجفاء وازدراء :

— لقد مللت عشتك ، ولا أخفى عنك أنى شارع في الزواج ،
سوف أجرب حظي مرة أخرى ... وصدقته المرأة ، فتصدع بنيان
رزايتها المتناسك ، وفزعت إلى أبنائها فباحث لهم بما تلقاه على يديه من
سوء القول والفعل . وها لهم الأمر ، ودهمهم الخطب ، فأيقنوا أن أباهم
ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب . وزاروه يوماً واقترحوا عليه — إبقاء

على صحته — أن يصنى تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه . وفطن الرجل
إلى ما يساورهم من خوف غير جديد عليه ، فغضب غضبة هائلة ، وعنفهم
بنفاظة لا عهد لهم بها ، وخاطبهم بحدة قائلاً :

— حياتي ملك لي أصرفها كيفما أشاء ، وسأبقى هاملاً ما راق لي العمل
فاعفوني من نصيحتكم المفرض .

وخبك متهمكاً ثم استدرك وهو يقلب في وجوههم عينيه الذابلتين :
— ألم تحدثكم أمكم عما اعترمت من الزواج مرة أخرى ؟ . . . هو
الحق . لقد شرعت أمكم في قتلي ، فسأوى إلى كنف امرأة جديدة على
شيء من الرحمة ، وإذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فتروني كفيلة بإشباع
أطماعكم جميعاً . . .

وأنذرهم بأنه سيقبض يده عنهم ، وأن على كل منهم أن يعتمد في حياته
على موارده الخاصة . قال بسخط وغضب :

— إنى كما ترون لا أكاد أذوق غير مر الدواء ، فلا يصح أن يتمتع
الآخرون بما لي . . .
قال له كبيرهم :

— كيف تخاطبنا بهذه الليجة المرة ونحن ابناؤك البررة ؟
فقال السيد ساخراً :

— بل أبناء أمكم . . .

وتقد وعيده فلم يعد يحمل شيء من طرفه إلى بيوت أبنائه ، وحرم
مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التي اشتهر بها ، والتي حرمت عليه هو
بعد مرضه ، ليشاركه الجميع — خصوصاً زوجه — فيما فرض عليه . ولهج
بحديث الزواج المزعوم حين وجده السهم النافذ الذي تحطمت دونه ما تدرع
به زوجه من صبر وأناة . وتشاور أبنائه فيما بينهم ، وقد ألفاهم الخطب
قلباً واحداً في التوجع لأبيهم ، والإخلاص له في محنته ، وقال كبيرهم :

— تتركه وشأنه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . . .

بيد أن المحامى قال بشيء من الحزم مستدركا :
— اللهم إلا إذا شرع فى الزواج حقاً ، فأشد ما نتخذُه من احتياط
أهون من أن نتركه هملاً بين أيدي الطامعين . . .

وكان اختفاء حميدة حدثاً فظيماً فى حياته . ومع أنه لم يعد إلى ذكرها
— منذ مرضه — فتخلفت عن تيار شعوره ، إلا أن خبر اختفائها أثار
اهتمامه وجزعه ، فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها ، ولما تنهى إليه ماتهامس
به اللاغطون من أنها فرت مع رجل مجهول ، انزعج انزعاجاً شديداً ،
وثار غضبه ذلك اليوم فلم يجروا أحد على الدنو منه ، فرجع مع المغيب إلى
بيته مهدم الأعصاب ، وأصابه صداع شديد أرقه حتى مطلع الفجر .
وحنق على الفتاة الطارئة حنقاً كبيراً ، وتأكل قلبه حقداً وغضباً ، وتغنى أن
يراها يوماً متدلية من مشنقة ، مندلقة اللسان ، جاحظة السنين ، ولما علم
بعودة عباس الطاو من التل الكبير سكن روعه لغير ما سبب واضح ،
ودفعته رغبة لا تقاوم إلى استدعاء الشاب ، وقربه ، ولاطفه فى الحديث
وسأله عن أحوال معيشته ، متجنباً ذكر الفتاة ، فسر الشاب بعطفه ،
وشكر له حبه ، وأقبل على الحديث فى استفاضة من استنام إلى لطفه ،
والسيد يشرق إليه النظر من عينيه الفارتين . . وفى الأيام الأولى التى
أعقبت فرار حميدة وقع حادث — ربما كان فى ذاته تافهاً — ولكنه مما
يؤرخ به فى زقاق المدق . كان السيد سليم علوان متجهاً نحو الوكالة فى ضحوة
من النهار فالتقى بالشيخ درويش ذاهباً لبعض شأنه . وكان السيد — فى
عيده الأول — من محبى الشيخ درويش ، وكثيراً ما تعادده بالبر
والإحسان والهدايا ، ولكنه أغفله فى مرضه وأهمله وكأنه لم يعد يشعر
له بوجود . ولما التقيا على كئيب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش
وكأنه يخاطب نفسه :

— اختفت حميدة . . .

افجرت السيد ، وظنه يعنيه بقوله ، فما تمالك أن صاح به :
— مالي أنا ولهذا !

— ولكن الشيخ درويش واصل خطابه قائلاً :

— ولم تختلف فحسب ، ولكننا هربنا ، ولم تهرب فحسب ، ولكننا هربنا مع رجل ، ويسمون ذلك في الانجليز Elopement ، وتمجيتها e....l....

وقبل أن يتم الرجل تمجية الكلمة انفجر السيد صارخاً :

— إنه ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون ، اغرب عن وجهي عليك لعنة الله . . .

وجهد الشيخ في مكانه كأنه تسمر في الأرض ، ولاحت في عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوح له شخص بعصا مهدداً ، ثم أعول باكياً . ومضى السيد لطيفته ، ولبت الشيخ درويش بموقفه باكياً ، وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ ، حتى أهاب نواحه بالمعلم كرشة وعم كامل والحلاق المعجوز فهرعوا إليه متسائلين ، وقادوه إلى القهوة ، وأجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه ، وطيب له المعلم كرشة قدحاً من الماء . وربت عم كامل على كتفه قائلاً بتوجع :

— وحد الله يا شيخ درويش ، اللهم اكفنا سوء . . . بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب . . . اللهم لطيفك . . .

ولكن الشيخ ازداد بكاء وعويلاً ، فاضطربت أنفاسه ، وارتجفت أوصاله ، وأطبقت شفاته في توتر وتشنج . وراح يشد ربطة رقبته بعنف ، ويضرب الأرض بقبقابه . وفتحت نوافذ الدور وأطلت الرؤوس في دهشة وانزعاج ، وجاءت حسنية الفرانة . وشق المنحيب طريقه إلى مسمى السيد سليم علوان في الوكالة ، فأنصت إليه غاضباً حائقاً ، وظل ينصت إليه هائجاً ، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل ؟ . . . وعبثاً حاول أن يغيب باقتباهه عنه ، فكأنه كان يلح في مطاردته والتضييق عليه ، حتى خيل إليه أن الدنيا جميعاً تبكي

وتنوح . وسكت غضبه وسكن هياجه ، ولكن ما طفق البكاء يرعش
أوتار قلبه فترن في إشفاق وألم . ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الولي ! ..
ليته لم يصادفه في طريقه ! . وما كان ضربه لو أغضى عنه ومر به من الكرام ! .
وتأوه نادما ، ومضى يقول : إن الإنسان في مثل حالته من المرض حري بأن
يزدلف إلى الله لا أن يغضب ولياً من أوليائه . وطوى كبرياءه ، ونهض
قائماً ، وغادر الوكالة متوجهاً إلى قهوة كرشة . وقصد الشيخ الباكي غير
طابء بالأظفار التي سددت نحوه في دهشة ، ووضع يده على منكبه برفق ،
وقال بلهجة تنم عن الاعتذار والأسف :
— يا شيخ درویش .. سامعنی .

٣٥

كان عباس الحلوي يجلس مختلياً بنفسه في شقة عم كامل حين دق الباب
بهنف ، فنهض إليه وفتحته فرأى حسين كرشة مرتديا القميص والبنطلون ،
تبرق عيناه الصغيرتان كهادته ، وقد بادره قائلاً :
— كيف لم تقابلني وهذا ثاني يوم لك في المدق ! .. كيف حالك ؟
فدله الحلوي يده مبتسماً ابتسامة باهتة وقال :
— كيف أنت يا حسين ؟ .. لا تؤاخذني فتمتع أخاك لا ناس ولا مهمل .
هلم نسر معاً . . .
وخرجا معاً . وكان عباس الحلوي قد قضى ليلته مسهداً ، وقطع النهار متفكراً ،
فسار مصدع الرأس ، مثقل الجفون . لم يكده يبقى من ثورة الأمس أثر ،
سكت الغضب الجنوني ، وبرد الهياج الحامي ، وتلاشت خواطر الانتقام
الدموي ، على حين رسب في قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلهم ، وبمعنى
آخر تخلصت نفسه مما لا تطيقه من ألوان الانفعال ، مسامة بكيتها للحزن
والیأس . وقال له حسين متسائلاً :

— أما عانت بأنى كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة ؟
— حقاً ! ..

— وتزوجت ، وأخذت بأسباب حياة رائعة ..
فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئاً من الاهتمام الذى لا يجده :
— حمداً لله ... مبارك .. حال .. حال ..

وكانا بلغا الفورية ، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بجدة :
— بل زفت وهباب ! ... استغنوا غنى فعدت إلى الرقاق على رغمتى .
وأنت هل استغنوا عنك أيضاً ؟ .

فأجابه الشاب بفتور :

— كلا .. واسكنى منحت إجازة قصيرة .
فأكلت الغيرة قلبه ، وضحك ضحكة باردة ثم قال :
— أنا الذى دفعتك إلى العمل دفعا وأنت تمنع ، وما أنت ذا تنعم به
على حين أتسكع أنا متعطلاً .

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوى عليه طبيعة صاحبه من غل
وشر فقال بانسكسار :

— نهايتنا قريبة على أية حال ، هذا ما يؤكده لنا .
فارتاح حسين قليلاً ، ثم استدرك يقول بصوت أسيف :
— كيف انتهت الحرب بهذه السرعة ؟ ! من كان يصدق هذا ؟ ! .
فباز الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة . سيان عنده أن تستمر الحرب
أو تنتهى ، وأن يبقى فى عمله أو يفصل منه ، إنه لا يبالي شيئاً على الإطلاق .
وكاد يضجره حديث صاحبه ، إلا أنه ألقاه أخف من الوحدة والفسكر ،
ومن ناحية أخرى تحمله — كما اعتاد أن يتحمله — دفعا لشره . واستطرد
حسين قائلاً :

— كيف انتهت بهذه السرعة ! .. كان الأمل معقوداً بهتلر أن يطيلها إلى
مالا نهاية ، ولكن أنهاها حظنا الأسود .

— صدقت ...

فصاح حسين بشدة :

— نحن نعساء . بلد نعس وأناس نعساء . أليس من المحزن ألا ندوق شيئاً من السعادة إلا إذا تطاحن العالم كله في حرب دامية ؟ ! . فلا يرحمنا في هذه الدنيا إلا الشيطان !

وأمسك قليلاً وهما يشقان طريقاً بين سبالة السكة الجديدة ، وقد أخذ ستار الظلام في الانتشار ، ثم قال متنهداً في حسرة :

— لشد ما تمنيت أن أكون جندياً محارباً ! . تصور حياة جندي باسل ، يخوض غمار الحرب ، وينتقل من نصر إلى نصر ، يركب الطيارات والدبابات ، يهاجم ويقتل ويسبي النساء الفارات ، ويبدل له المال عن سخاء ، فيسكر ويعربد فوق القانون . هذه هي الحياة . ألا تتمنى أن تكون جندياً ؟ .

الحق أن ركبتيه كانتا تتخلخلان إذا سمع صفارة الإنذار ، وكان من رواد الخبأ المواظبين ، فكيف يتمنى أن يكون جندياً من المحاربين ؟ بيد أنه تمنى صادقاً لو كان خلق جندياً فظاً متمطشاً للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه في السعادة والحياة الرغيدة ! . وقال بلهجته الفاترة :

— من لا يتمنى ذلك ؟ ! .

وانتبه إلى الطريق ، فازدحمت برأسه الخواطر ، ربا . كيف للزمان أن يعجز عن كريات هذا الطريق من صدره ؟ ! ، إن أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين ، وإن هواءه لا يبرح معبقاً بأنفاسها المحبوبة ، وكأنه يراها رؤية المين وهي تخطر بقوامها المعتدل المشوق ، أنى له أن يطمع في نسيان هذا كله ؟ ! . وقطب متغيظاً على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله ، وأطبق فمه فلاح وجهه صارماً قاسياً ، وطاودته لفحة من ثورة الأمس ، ينبغى أن ينبذ من ينبذه ، وأن يطرح من يخونه ، وألا يحرق

أضلمه حزناً — ولا حتى غضباً — على من يرقد ناعماً بين أحضان غريم له .
تعباً للقلب من صاحب خمون . دسيسة على الروح والجسم : يحب من
لا يحبهما ، ويحرص على من يفرط فيهما ، فيسبب صاحبها النكس والهلوان .
واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاحب وهو يلكزه هاتفاً :
— حارة اليهود .

وأوقفه بيده عن السير متسائلاً :

— ألا تعرف حانة فيتا ؟ .. ألم تدمن الخمر في التل الكبير ؟ .

فأجابه عباس قائلاً باقتضاب :

— كلا ..

— كيف حشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر ؟ يا لك من خروف تعس !
الخمر شراب منهش ومفيد للمخ : تعال ..

وتأبط ذراعاه ومال به إلى حارة اليهود . وكانت حانة فيتا تقع على بعد يسير
من مدخلها ، على جانبها الأيسر ، وهي أشبه بدكان متوسطة ، مربعة الشكل ،
تتمدد في جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخامي ينهض وراءها الخواجا فيتا ،
وقد ثبت في الجدار خلفه رف طويل صفت عليه الزجاجات . وقامت في
نهايته من الداخل براميل ضخمة ، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس
والأقداح ، ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد ، حوزية وعمال وآخرون
حناة ونصف عراة كالشحاذين إن كان الشحاذون يسكرون . وبقي من الحانة
غير ذلك موضع اتسع لبعض المناضد الخشبية ، فجلس إليها أعيان السوق
والمعاجزون عن الوقوف لسكبر أو لسكر شديد . ورأى حسين مائدة شاعرة
في نهاية الحانة فقاد صاحبه إليها ، وجلسا حولها . وقلب عباس عينيه في
المكان الصاحب المدوى في صمت وفلق ، حتى استقرتا على غلام في
الرابعة عشرة قصير مفرط في البدانة ، مطين الوجه والجلباب ، حافي القدمين ،
يزحم الشاربين ويكرع من قدح مترع ، ويتمايل رأسه سكرآ ، فالتصت عيناه
دهشة ولفت حسين إليه ، ولكن هذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية :

— هذا عوكل بائع الجرائد . يبيع الجرائد في النهار ويسكر في الليل .
غلام ولكن قل في الرجال مثله . أرأيت يا غشيم !
ومال برأسه نحوه قليلا وقال :

— كأس النبيذ بقرش ونصف لذة للمتعطلين أمثالي . منذ شهر كنت
أشرب الويسكي في بار فنش ولكنها الدنيا القلب ، معلهش يا زهر ! .
وطلب كأسين ، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على المائدة ومعهما طبق
ترمس . ونظر عباس إلى كأسه بقلق وقال مشفقاً من لسان صاحبه إشفاقه
من الإقدام على التجربة الجديدة .

— يقولون إنها مؤذية . !

فقيض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية :

— تخاف على نفسك ؟ ! . خلها تقتلك . . في داهية يا سيدي ، لا انت
في الزيادة ولا في النقصان ، صحتك .
وقرع كأسه بكأسه ، ثم أفرغه في جوفه بغير مبالاة ، ورفع عباس
كأسه وكرع منه كربة . ثم أبعده عن فيه متقززا ، وقد شعر كأن لساناً
من لهب اندلع في حلقه ، فتقبض وجهه كأنه وجه لهبة من اللطاط ضغطته
أصابع طفل ، وقال متأففاً :

— فظيع . صر . حامى .

فتضاحك حسين ساخراً ، شاعراً برهو واستعلاء وقال بازدراء :

— تشجع يا طفل ، الحياة أمر من هذا الشراب ، وأوخم طاقبة . . .
ورفع كأسه ووضع حافته بين شفتيه وهو يقول « اشرب حتى لا يندلق
على قيصك » فتجرعه الآخر حتى الثمالة . ونفخ متقززا ، ثم أحس حرارة في
بطنه ، سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها في جوفه ، فشغل بالانتباه إليها عن
تقززه ، وتتبع أثرها وهو يندفع مع دمه ، ويجري في عرقه ، حتى إذا بلغ
رأسه خفت وطأة الدنيا عليه قليلا ، وقال حسين بسخرية :

— اكتف اليوم بكأسين ولا تزد . .

وطلب كأساً أخرى لنفسه وراح يقول :

— أقيم الآن عند أبي وممي زوجي وشقيقتها ، ولكن نسيبي وجسد عملا في الترسانة وسيفارقنا اليوم أو غداً . ويقترح أبي علي أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهاً في الشهر ، وبمعي آخر أشتغل من الفجر حتى نصف الليل بثلاثة جنيهاً . . . ولكن ماذا تقول لحشاش مجنون ؟ . . . وهكذا ترى أن الدنيا تناصبني العداء ، وتستفز غضبي ومقتي ، وليس عندي إلا جواب واحد : فأما الحياة التي طابت لنا وإما حرقنا الدنيا ومن عليها . .

فسأله عباس ، وكان أخذ يستشعر راحة وجددها عجيبة لذيذة بالنسبة لما تعناه طوال يومه من هم وفكر .

— ألم توفر مالا ؟ . .

فقال حسين بحدة وسخط :

— ولا ملأ ! كنت أسكن شقة نظيفة بالوايلية ، فيها الكهرباء والماء ، وكان عندي خادم صغيرة تقول لي بكل احترام « ياسيدي » وكنت أرتاد السينما والفرقة القومية . رجحت كثيراً ، وضيعت كثيراً ، وهذه هي الحياة . إن أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود ؟ بيد أن النقود ينبغي أن تساير العمر حتى نهايته ، وإلا فالويل لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار . ليس لدى الآن إلا قليل من الجنيهاً غير حلي زوجي . .

وصفق طالباً كأساً ثالثة ثم قال بإشفاق :

— والأدهى من ذلك أن زوجي تقيأت في الأسبوع الماضي . .

فقال عباس متظاهراً بالإهتمام :

— لا بأس عليها . .

— لا بأس ولا زفت ، هذه أمارات الحبل كما تقول أمي ، وكأن الجنين

غثت نفسه تقززا من الحياة التي تنتظره فأعدى أمه . .

ولم يطق عباس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته وطووجته ، ولم يعد يهتم

بذلك ، وانتابته كآبة فجائية بعد أن نعم ساعة بالراحة ، ولاحظ الآخر
شروده وسهره فقال باستياء :

— مالك ؟ .. إنك لا تصفى إلى ..

فقال عباس بصوت حزين :

— اطلب لى كاسا أخرى ..

وحقق حسين مشيئته بسرور ، ورنأ إليه بنظر صريب ، ثم قال :

— أنت متكدر وأنا أعلم بسبب كدرك ..

فخفق فؤاد الشاب وقال بهجة :

— لا شيء مطلقا . هات ما عندك إني مصغ إليك ..

ولكنه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار :

.. حميدة ..

فاشتد وجيب قلبه ، وكأنه تجرع كأساً تالئة ، فهاج دمه وسري إليه

الوجد والحزن والغضب ، فقال بصوت متهدج :

— أجل حميدة ، هربت ، خطفها رجل ، طار وشقاء !

— لا تحزن كثيراً كالحمقى ، وهل طابت حياة من لم تفر عنهم نساؤهم ؟ !

وتناهى الاتعمال بالشاب فقال بغير وعى :

— ترى ماذا تفعل الآن ؟ !

فضحك حسين ساخرأ وأجابه :

— تفعل ما عسى أن تفعله أية امرأة فرت مع رجل ..

— أنت تهزأ بالمى ..

— أملك سيخيف ، خبرنى متى علمت بفرارها ؟ ... مساء الأمس ! ..

كان ينبغي أن تكون نسيتمها الآن ! ..

وهنا أحدث عوكل — الفلام الشريب بائع الجرائد — حركة لفتت إليه

أنظار الجلوس ، وكان استوفى شربه ومضى عملا مترنحا حتى إذا بلغ عتبة

الحانة نظر فيما حوله بعينين زائفتين ورأسه يميل إلى الوراء فى عظمة وسلطنة

وصاح بلسان ملتو :

— أنا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال ، اسكر وأنبسط ، وها أنا ذاهب إلى عشيتي ، فيل لأحد منكم اعتراض ؟ أهرام ، مصرى البعكوكة . . .

واختفى الغلام تاركا وراءه عاصفة من الضحك ، أما حسين كرشة فقد عبس فاضباً ، ولاح الشر في عينيه ، وبصق بصقة طارت إلى الموضع الذى كان به الغلام ، وأخذ يسب ويلعن . كانت أقل إثارة من تحد — ولو على سبيل المزاح — كافية لاشمال غضبه وإهاجة روح الاعتداء السكامنة فيه ، ولو كان الغلام يتناول يده لأككة أو ركله أو أخذ بتلابيبه . والتفت إلى عباس — وكان يتجرع كأسه الثانية — وقال بحدة وكأنه نسي ما كانا آخذين فيه من أسباب الحديث .

— هذه حياة وليست لعبة خشبية ، يجب أن نعيش . . . ألا تقيم ؟ ولم ينتبه عباس إليه ، كان يخاطب نفسه قائلاً : « لن تعود حميدة ، اختفت من حياتي إلى الأبد ، وماذا تجدى عودتها ؟ : ولكنى سأبصق على وجهها إذا التقيت بها يوماً ، هذا أشد من القتل . أما ذاك الأفندى فالويل له منى ، سأدق عنقه . . . » . واستدرك حسين قائلاً :

— هجرت المدق فأطادنى الشيطان إليه ، سأضرم به النار ، هذه خير وسيلة للتحرر منه . . . فقال عباس بأسى :

— زقاقنا لطيف ، وما طمعت يوماً فى أكثر من حياة طيبة فيه . . . — إنك ظرووف ! وحلال أن تنحر فى عيد الأضحى . علام تبكى ؟ . . . إنك حامل وفى جيبك نقود ، ولتجمعن غداً بتقيرك مالا وفيراً . فإذا تشكو ؟ فقال عباس بليجة تشف عن الاستياء :

— إنك أكثر منى شكوى ، وعمرك ما حدث الله . . . فخدجه الشاب بنظرة قاسية أثابتة إلى رشده وجعلته يستدرك قائلاً بلين :

— لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولي دين ...
فقيقه حسين بصوت ارتجت له الحانة . وقال وقد أخذت الحفرة تلمب برأسه :

— خير لي أن أشتغل خماراً من أن أشتغل مكان أبي في القبوة ، الربح هنا موفور ، وفضلاً عن هذا فالخمر مبدولة للخمار بغير حساب ...
فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذراً في مخاطبة صاحبه الديناميتي ، وكان ديبب الخمر يسرى في أعصابه ، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه . وصاح حسين مرة أخرى :
— فكرة رائئة ! ... سألتجنس بالجنسية الإنجليزية ، في بلاد الإنجليز الكمل سواسية ، لا فرق بين ابن الباشا وابن زبال . فلا يبعد أن يصير ابن القهوجي رئيس وزارة ...

وانبعثت نشوة مباغتة في دم الحلو فقال بحماس :
— فكرة طيبة ! ... سألتجنس أيضاً بالجنسية الإنجليزية ...
ولكن حسين لوى شففيه ازدراء وقال بسخرية :
— مستحيل ، أنت خرع ، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الإيطالية ، ومهما يكن من أمر فسנסافر على سفينة واحدة ... قم بنا .
ونهمضا واقفين ، وأديا حسابهما ، وغادرا الحانة والحلو يتساءل .
— أين نذهب الآن ؟

لعل الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي الانطلاقا إلى الخارج في الأصيل من كل يوم . ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرأة المصقولة ، أصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الغرفة . وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها ، فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت في أحضان النضارة ، ونمت وترعرعت في مطارف الجاه والنعيم

على الرأس حمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة، عقص تحتها شعرها المدهون
الزيتي، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من
الاصباغ، بعد تجربة طويلة دلت على أن بشرتها البرنزية أفن للجنود الحلفاء
وأحب إليهم، الأشفار مكحلة والأهداب مدهونة منفصلة تهدف إلى عل
أطرافها الحريية، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر،
هلالان مزججان خطتهما يد ماهرة مكان الحاجبين، سلسلتان من البلاتين
ذاتان نبتتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين، غير ساعة ذهبية في معصمها
وهلال منفرس في مقدم العمامة، فستان أبيض يشف أعلاه عن قميص وردى
وتنضج حاشيته بسمة نخديها، جورب رمادي من الحرير الخالص لبسته
لا شيء إلا غاو ثمنه، وقد تطاير شدا عبق من تحت إبطيها وراحتيها وعنقها
فلشد ما تغير كل شيء !

ولقد اختارت سبيلها من بادية الأمر بمحض إرادتها، وبعد تجربة
وعناء، تكشف لها أفقه عن أفراح وضاءة وخيبة مريرة، فوقفت على
قمة الامتحان تردد عينها بين اليمن والشمال متحيرة ملتفة . . .
علمت من أول يوم ما يراد بها، فثارت فاضبة هائجة، لالتكسر إرادة
عشيقها الحديدية، ولكن استسلاما لداعي عجزتها وإشباعاً لغريزتها المتعطشة
للعراك، ثم أذغنت بعد ذلك وكأنها تدعن بمحض مشيئتها . وأدركت
بوضوح، وبفضل بلاغة فرج إبراهيم، أنها لكي تتمرغ في التبر ينبغي
أن تتمرغ في التراب، فلم تبال شيئاً . وفتحت صدرها للحياة الجديدة
بمحاسن وسرور وهمة، حتى صدق عليها قول عشيقها يوم وصلها بالتاكس
إلى حيها من أنها « عاهرة بالفطرة ! » وتجلت مواهبها فبرعت في فترة
قصيرة في أصول الزينة والتبرج وإن سخرها أول الأمر من سوء ذوقها،
فكانت سريرة التعلم محسنة للتقليد، ولكنها سيئة الاختيار لألوان ثيابها
وفي ميلها إلى الحلي تبذل ملموس، ولو كان ترك الأمر على ما تشتهي وتحب

لتجسدت وكأنها « عالمة » في زواقيها الفاقع وحليها التي تكاد تغطي جسمها . وفيما عدا ذلك فقد تعلمت الرقص بنوعيه ، ودلت على مهارة في تعلم المبادئ الجنسية للغة الإنجليزية . ولم يكن النجاح الذي جاءها يحجر أذنيه بمستغرب ، فتوافقت عليها الجنود وتساقطت عليها أوراق النقود ، وانتظمت في سلك الدمار لؤلؤة منعدمة النظير . وبدأ لها أنها فازت بكل شيء ، وأنها لم تخسر شيئاً ، فلم تسكن في عهدتها الأول بالساذجة فتأسى للخدعة التي أطاحت بها ، ولم تسكن بالفتاة الطيبة ، فتذهب نفسها حسرات على ما فقدت من أمل في الحياة الطيبة ولم تسكن بالفاضلة حقاً فتبكي على شرفها المثلوم ، ولم تشدها إلى ذلك الماضي ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فالغمرت في حاضرها المحبوب لا تلوي على شيء . وعلى العكس من ذلك كانت غالبية الفتيات اللاتي يضطرين في مضمارها ، فمنهن جماعة يتطاحن في قلوبهن الأسى والطمع والشقاء واليأس ، ومنهن بألسات يشقن ليقمن أود أسرات جائعات ، ومنهن تعيسات يخفين تحت شفاهن المصبوغة قلوباً دامية ، ونفوساً حنانه إلى الحياة الفاضلة ، أما هي فقد طابت بحياتها نفساً ، وأذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرية والرضا والفرح ، ألم تتحقق أحلامها ؟ . بلى الثياب والحلى والذهب والرجال التهافتون آيات على ذلك ، ناهيك بهذه السطوة السحرية التي دان لها المعجبون ، أفن الغريب بعد ذلك أن يلوح المدق كما يلوح السجن الآبق الطليق ؟ ! ولقد ذكرت يوماً كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها ، وتساءلت أكانت تفضل حقاً أن تزوجه ؟ . وجاءها الجواب بالنفي بلا تردد ، ولو تحقق ذاك الزواج لكانت الآن قابعة في بيت ، دائبة على القيام بدور الزوجة والخادم والأم وغير ذلك من الواجبات التي تدرى الآن عن تجربة ويقين أنها لم تخلق لها ، فله ما أبرعه وما أفطنه وما أبعد نظره ! . ومع ذلك أقول حذار ! .. إياك أن تتصورها امرأة شهوانية ، تستحوذ عليها شهوة طاغية . هي أبعد ما تكون عن ذلك ! والحق أن شدوذها لا يكمن في قوة شهوتها . لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتي تستأسرهن الشهوة وتستذلن فيجدن

بكل فال في سبيل إرضائها ، كانت تتلف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك ، وكانت — حتى بين ذراعي الرجل الذي محضته الحب — تتلمس أنامل الحب خلال اللسكات والصفحات ، وقد باتت شاعرة بهذا الشدود في عواطفها ، أو هذا النقص في طبيعتها ، وكان ذلك من دواعي تماديها واستمرارها ، بيد أنه كان ذلك من أسباب تعلقها بعشيقها ، وعن هذا التعلق نجمت الخيبة المريرة التي منيت بها . . .

* * *

كانت تجتر خواطر هذه الخيبة وهي ماثلة أمام المرأة تأخذ زينتها ، ثم طرقت أذنيها وقع خطاه — ذلك الرجل — ورات صورته في المراة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن ذاك العاشق الوهان ، فتحجر بصرها وتشنج قلبها . لم يعد الرجل الذي عرفت من قبل ، وهذه هي الخيبة المريرة . ولو طال به العهد لربما هان الخطب بعض الشيء ، ولكنه دهمها في نشوة الأيام الأولى ، فلم تنعم بحبه خالصاً في لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل ، إلا زهاء عشرة أيام ، ثم غلب المدرب فيه على العاشق ، ومضى يتكشف رويداً عن التاجر . ذلك الرجل القاسي اللفظ الذي يتجر بالأعراض . والواقع أن قلبه لم يعرف الحب قط ، ولعله من الغريب أن تقوم حياته على هذه العاطفة التي لم تحرك فؤاده أبداً . كانت طريقته إذا أوقع فريسة في شباكها أن يمثل معها دور العاشق — وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسففته عليه خولته — حتى إذا استنامت إليه تمتع بها فترة قصيرة ، ومن ثم يطمش إلى سيطرته عليها بما يبعث فيها من تعلق به وما يكبلها به من قيود مالية ، ثم بما يتهدها عادة من رقابة القانون . . . فإذا تم له سعيه بدا على حقيقته ، وتخفض العاشق عن تاجر الأعراض . ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجو المشبع بأنفاس النساء الذي يعيش فيه ، فانقلبت ولا هم لها إلا الاستئثار به . وصار ههما هذا شغلها الشاغل الذي نغص عليها صفوها ، فباتت فريسة للحب والغيرة والفضب . واستحوذت

عليها هذه المشاعر جميعاً وهي تنظر إلى صورته التي تطلعتها على صفحة المرأة ،
فتحجر بصرها وتوثبت إرادتها وتوترت أعصابها . أما هو فقال بليهة
سريعة متظاهراً بالعجلة :

— انتهيت يا عزيزتى . . . ؟

ولسكنها لم تعبأ به ، وتعمدت ألا تجيبه استكراها لما يبدى من
ملاحظات عن « العمل » ، وتذكرت بحسرة عهداً لم يكن يحدثها إلا عن
الحب والإعجاب ، الآن لا تنفرج شفتاه إلا عن العمل أو الربح . . . والآن
لا تستطيع عنه فكاً كما يحكم هذا العمل ، وبطفتان عواطفها نفسها . وإن
الغضب ليملاً صدرها ، ولسكن ماذا يجدى هذا الغضب ؟ . . . لقد فقدت
حريتها التي استباححت في سبيلها كل منكر . وإنها ليداخلها شعور بالقوة
والسيادة ما دامت في الطريق أو الحانة ، حتى إذا رأتها أو ذكرته حل محل
هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذل . ولو اطمأنت إلى قلبه لكان كل
عسير . فذل الحب في أعماقه ظفر ، أما والحال غير ذلك فما تدرى
إلا الجنون مهرباً من حيرتها ، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج في صدرها ،
ولسكنه كان يريد لها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطعة المرتقبة .
ولو كانت امرأة أخرى لكان عليه هجرها بغير عناء ، ولسكنه آثر أن يجرعها
كأس القنوط نقطة فنقطة ، واستوصى بالصبر والأناة شهراً طويلاً ، حتى
بات متأهياً للضربة الحاسمة . قال بليهة المرية عن العاطفة :

— هيا يا عزيزتى فالوقت من ذهب .

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدة :

— هلا أقلعت عن هذه العبارات السمجة ؟ !

— هلا أقلعت أنت يا عزيزتى عن الإجابات الجافة !

فهدج صوتها غضباً وهي تقول :

— أهكذا يحاول أن تخاطبني الآن ؟ !

فتظاهر بالملل وقال :

— أوه .. أنعمود مرة أخرى إلى هذا الحديث المسجوج ؟! .. » تخاطبني بهذه اللهجة « .. أنت لا تحبني » .. « لو كنت تحبني لما اعتبرتني مجرد سلة ! » .. ما جدوى هذا الكلام ؟! .. ألا أكون طاشقا إلا إذا رددت صباح مساء « أنا عاشق » ؟! .. ألا أكون محبا إلا إذا يادرتك كلما التقينا « أحبك » ؟! .. ألا يكون حب إلا إذا شغلنا حديث الحب عن عملنا وواجباتنا ؟! .. أحب أن يكون عقلك كبيرا كفضبك ، وأن تكرمي حياتك — كما أكرس حياتي — لعملنا العظيم ، وأن تجعليه فوق الحب نفسه وفوق كل شيء ..

وأصغت إليه بوجه مصفر من الغضب . هذا كلام بارد قاتر ، هذه مراوغة لا أثر فيها لعاطفة . ولقد بليت مثل هذا الكلام من قبل ، وكادت تألفه منذ آنت منه الفتور . وإنها لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدما متعمدا ، فكان يفحص يديها بعناية ، ويحسها على الزيد من الاهتمام بهما قائلا « أطيلي أظافرك واصبغيهما بالمانيكور .. يداك نقطة ضعف في جمالك ! » . وقال لها مرة أخرى متشفيا وقد طال بينهما الجدل : « حذار ، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل ، صوتك يا عزيزتي .. ازعقي إذا شئت من الفم لا من الحنجرة ، فهذا صوت خشن فظ ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف قطع ، ولعله أن يذكر السامع بالمدق ولو كنت في عهد الدين ! » .. هكذا تكلم الفاجر ! .. لشد ما آلمها قوله وأذل قلبها الفخور . وظل يصطنع معها الراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب ، ولكنه بمرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة ، وربما قال لها في ملل « الحب لعب ونحن جادون ! » أو قال بغير مبالاة « هلمى إلى العمل .. الحب كلام فارغ » . تباه ! لشد ما ملأ وءاء خيالها بالذكريات الأليمة ! .. وقد حذجته بنظرة قاسية وقالت بحدة : — كلامك هذا لا يجوز علي ، لماذا تذكرني دائما بالعمل ؟! ألاهية عنه أنا ؟! إنك لتعلم أنني أفوق الأخريات وأبرع عليهن ، وإنك لترجح من

كدي أضفاف ما ترج من كثيرات مجتمعات ، فاهجر أنت هذا الحديث
المعاد الممجوج ، وخبرني صراحة فقد ضقت باللف والدوران : أما زلت
تجنني ؟ ... !

وحدثته نفسه بأن يتذفها بالجواب القاطع ! ألم يمهده بما فيه
الكفاية ؟ . . . ونشط فكره في سرعة وقلق وعيناه اللوزيتان لا تتحولان
عن وجهها الفاضل ، ولكنه تردد وآثر السلامة ولو إلى حين ،
فقال يداريها :

— عدنا كما توقعتم إلى الحديث القديم . . .

فاتفجرت صارخة :

— أجنبي صراحة . أحسبني أموت أسى لو حرمتني نعمة حبك ؟

ليس الوقت مناسباً . لعله لو جابته بهذا السؤال على أثر إياها من
الخارج ، أو في الصباح — حين يتسع الوقت للملاحة والشجار — لكان
أجابها كما يشاء ، أما الآن فالجواب الصريح حري بأضاعة ثمرة اليوم هباء
فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء :

— أحبك يا عزيزتي . . .

أقبح بكلمة الحب إذا نددت عن فم ممول ، كالبصقة . . . استحوذ عليها
القهر ، وشعرت في قهرها بأنها لا تتأبى عن هوان وإن جل لو ضمن أن
يميده إلى أحضانها ! وأحست لحظة أن حبه مطلب تهون من أجله الحياة ،
ولكنها كانت لحظة طيرة سرطان ما أفاقت من غشيانها ، ثم امتلأ قلبها
ضغينة ، فاقتربت منه خطوات وعيناهما تلحان لمعان الماس الناشب في
عمامتها ، وقالت مصممة على أن تشق طريق التحدى حتى نهايته :

— تجنني حقاً ؟ ! . إذا فلنتزوج .

وانطلقت عيناه بالدهشة ، ونظر إليها بين مصدق ومكذب . ولم تكن
تعنى ما قالت ولكنها أرادت سبر أغواره ، فقال لها :

— وهل يغير الزواج من أمرنا شيئاً ؟

— أجل ، لتزوج ، ولنهرجر هذه الحياة .

وقد صبره ، وتولدت في صدره عزيمة صادقة : أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة ، وأن يحقق ما جال بخاطره طويلا ولو ضاعت ثمرة الليلة ، وفيه ضاحكا في غيظ وسخرية وقال هازئا :

— نعم الرأي ! ، أحسنت يا عزيزتي ، تتزوج وتعيش كما يعيش الشرفاء .
إبراهيم فرج وحرمة وأبناؤها ليمتد ! ، ولكن خبريني ماهو الزواج ؟ ..
لقد أنسيت كما أنسيت الآداب الشريفة جميعا ، أو دعيني أتذكر قليلا ، ..
زواج ؟ .. شيء خطير فيما أذكر يتضمن رجلا وامرأة وماؤنا ووثيقة دينية وطقوسا كثيرة ، . متى عرفت هذا كله يا إبراهيم ؟ في الكتاب أو المدرسة ؟ ! ولكن لا أدري أما تزال هذه العادة متبعة أم قد أقلع الناس عنها ! . . . خبريني يا عزيزتي الا يزال الناس يتزوجون ؟ !

وارتعشت أطرافها غضبا ، وأفعم قلبها يأسا وغما ، ونظرت إليه فاذا به مبتسما هازئا سادرا فجئن جنونها وارتمت عليه ناشبة أظافرها في عنقه ، ولم تفجؤه حركتها المبالغثة فتلقاها بسكينته ، وقبض على ساعديها وفرج بينهما ثم تخلص منها والابتسامه الهازئة لا تفارق شفثيه ، فاشتمد حنقيا وغضبها ، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفمته بكل ما أوتيت من قوة وعصبية . وغاضت ابتسامته ولاحت في عينيه نظرة وعيد وشر ، فردت عليها بنظرة جريئة متحدية ، وانتظرت شبوب العاصفة بجزع وتلهف ، وكادت تنسى أسباب الاميا في لذة العراك المرتبة ، ومنتميا أحلامها المستيرية بختام سميد لهذا النضال البهيمي . ولكنه كان من ناحية أخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب ، ولا يغيب عنه أن دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذي يروم نقضه ، ويزيد من تعلقها بها ، فضبط نفسه ، وكبح جماح غضبه ، وصمم على أن يكشفها بالقطيعة السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع ، فراجع خطوة ، وأتقتل آفلا وهو يقول مهدوءا :

— هلمي إلى العمل يا عزيزتي . . .

ولم تكذب تصديق عينيها ، واثقت على الباب الذي غيبه نظرة ساهمة ونق
بها القنوط . وأدركت سر تهقيره بغريزتها فاستشف قلبها الحقيقة المفجعة .
وتقلقل صدرها برغبة حارة مباغتة في قتله ! ، انفجرت في صدرها بقوة
آسرة . لا كأمنية الضعيف الخاقد ، ولكن رغبة فتاكة شمعت بأنها
في نطاق طاقتها . لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا
الرجل ، وها هو يتم صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعاً .
ولكن أيرضيها حقاً أن تبني الحياة من أجل الفتك به ؟ إنها استهانت
بكل شيء في سبيل الحياة ، أما الاستهانة بالحياة نفسها . . ؟ ! وانقبض
صدرها ، واستحوذ عليها قلق مفهم بالنفور ، وبقيت رغبتها في الانتقام
تتلظى ويندلع طغيها . ينبغي أن تفادر البيت أولاً ، وفي الخارج مهرب
من جحيم الفكر ، ومجال للأناة والتدبير . وسارت متناقلة صوب الباب ،
ثم ذكرت أنها تهجر هذه الحجرة — حجرتيها — آخر مرة ، فدارت
على عقبيها كأنما لتلقى عليها نظرات الوداع . تنزى قلبها في صدرها في تلك
اللحظة الفاصلة ، رباه . . كيف انتهى كل شيء بهذه السرعة ؟ ! . . هذه
المرأة كم بدت على صفحتها فرحة مستقبلية ، وهذا السرير الوثير مهد الغرام
والأحلام ، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغي إلى إرشاداته
بين المناق والقبل ، وهذا الخوان يحمل صورتها معها في ثياب السهرة ! .
ثم ولت الذكريات ظيورها وفرت من الحجرة . وفي الطريق لفحصها الهواء
الدافئ فتذسمة في إعياء ، وأخذت في سبيلها وهي تقول لنفسها « لن أعدم
طريقة لفتك به ! » كم يكون هذا شافياً على شرط ألا تدفع حياتها ثمناً له ،
لم تخلق الحياة للتضحية ، الحياة فوق كل شيء ، بل فوق الحب نفسه . حقاً
بات الحب ندباً عميقاً في سويداء قلبها ، ولكنها ليست المرأة التي يفنيها
الحب . بها جرح عميق ، ولكن الجرح يعيش حتى وهو يتزف ، بل
يستطيع أن يتمتع بحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك .
هكذا لاقت خبيثتها . ورأت عربة فأشارت إلى الخوذي وركبت ،

واستشعرت حاجة ملحة إلى مزيد من الراحة والطواء فقالت له :
— إلى ميدان الأوبرا أولاً ، ثم عد من شارع فؤاد الأول . واحدة
واحدة من فضلك . .

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها إلى الوراء ، واضعة رجلا على رجل ،
فانحسر الفستان الحريري عن بطن نخلتها ، واستخرجت من حقيبتها علبة
سجائر ، وأشعلت سيجارة ، وراحت تدخن بشغف غير طائفة بالأنظار التي
تتخاطف ما انجلي من لحنها . . .

وغرقت في خضم الفكر . هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه ، ومع
ذلك فيهيات أن تسترخي يدها القابضة على حبل الحياة . وتعتزت بآمال
كثيرة ومسرات مرتقبة ، ولكن لم يجر لها في خاطر أنها قد تستجد حبا
ينسبها هذا الحب الخائب ، لأنها كانت حاقدة على الحب ، ولأن الإنسان —
إذ يفقد جوهره الحب اللامعة — لا يتصور أنه سيسعد بالعثور عليها
مرة أخرى . وانتبهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور في محيط الأوبرا ،
ولحت في دورانها عن بعد ميدان الملكة فريدة ، فطار الخيال بها إلى
الموسكى والسكة الجديدة والصناديق والمدق ، ولاحت لعينها أخطاط
أطراف نساء ورجالا ، وتساءلت : ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء ، إذا
رأها في هذا الزى ؟ . . . يستطيع أحدهم أن يستشف حميدة وراء تيتي ؟ !
وماذا تبالي ؟ . . . لا أب لها ولا أم ! . وتفخت دخان سيجارتها في استهانة
ورمت بالعقب . وأخذت تتسلى بمشاهدة الطريق حتى رجعت العربة إلى
شارع شريف ، وتركتها ، واتجهت نحو الحانة التي تقصدها ، وفي تلك
اللحظة قرع أذنها صوت كأنما انشق عنه قبر هاتفا « حميدة » ، فالتفت
نحوه وقد تملكها الذعر ، فرأت عباس الطلو على بعد ذراع منها لاهثا . .

وهتفت وهي لا تدري :

— عباس ...

كان الفتى يلثم مبهورا بعد أن ركض شوطا كبيرا وراء العربية من ميدان الأوبرا ، وقد اندفع لا يلوى على شيء ، يصطدم بالسكتل البشرية ، لا يمتaque ما ناله من دفع ، ولا يشنيه ما لحقه من شتم ولعن . وكان قبل ذلك يسير متأبطا ذراع حسين كرشة ، يتخبطان على غير مدي — عقب مفادرتهم الحانة فيتا — حتى انتهى بهما التخبط إلى ميدان الأوبرا ، فالتقى بصرحسين بالعربة التي تحمل حميدة ، ورأى الجالسة داخلها ، فلم يعرفها ، وأرغش حاجبيه استحساناً وهو يلفت صاحبه إليها ، ونظر عباس إلى العربية المقبلة عليهما في طوافها بالميدان ، وعلق بصره بالفتاة الغائبة في افكارها ولم يستطع أن يسترد عينيه ، جذبهما بقوة سحرية شيء في الوجه ، وفي القوام ، شيء كالشبه ، أو هو شبه رقيق يحسه القلب قبل أن تحسه العينان ، وتمشت في مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحبا ، وهتفت القلب « هي ؟ » ، وكانت العربية قد ولته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزيكية ، فلم يأل عدوا وراءها بلا تدبر ولا تفكير وصاحبه يزعق وراءه معربدا صاحبا . وفاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأول ولكن عينيه لم تتحولا عن العربية ، ثم استأنف المدو جاهدا لا تكاد تسعفه قدرته إلا قليلا ، حتى أدركها وهي توشك أن تدخل الحانة فنادها ، ولما أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشك باليقين ، وأدركت حواسه ما سبق القلب إليه ، فوقف حياها لاهثا مبهورا لا يدري كيف يصدق عينيه . وغلبتها الدهشة والانزعاج أول وهلة واستحوذ عليها الانفعال ، ثم شعرت بخرج موقفها وأشفقت من فضول المتسكمين ، فتماكت مشاعرها ، وأشارت إليه ومضت في عجلة

إلى عطفة سابقة للحنانة — وهو يتبعها — ودخلت أول باب إلى يسارها
وكان حانوت أزهار ، وحينها بأثمة الزهور — التي عرفتها بحكم تردها
على المكان — فردت تحيتها وسارت به إلى نهاية الحانوت متحامية
مواقع الأنظار . وأدركت بأثمة الزهور أنها تريد أن تحتل بصاحبها
فمضت إلى مقعدها وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأن أحداً
لم يقتحم عليها حانوتها . وقفاً وجيئاً لوجهه ، يلفه الانفعال والحيرة ،
وترتعش أطرافه تأثراً . ما الذي دطاه إلى هذا العدو القاتل ؟ ماذا يروم من
هذا اللقاء المغتصب ؟ ! وجد نفسه في تلك اللحظة عرياً من كل رأى أو عزم ،
ولقد كانت ذكريات الشر الذي هصر آماله — في أثناء عدوه — تذر على
عينيه غباراً فتكاد تحجب عنه الطريق ، ولسكنه لم يبيت رأياً أو يستجد
عزماً ، فركض ركضاً آلياً لا يتبين له غاية ، حتى إذا هتفت باسمه فقد البقية
من وعيه وتبعها إلى الحانوت كالسائر في نومه . وأخذ يفيق رويداً من
الإعياء والجهد والانفعال ، وراح بصره يعاين المرأة الواقعة حياله بلباسها
الجديد وزينتها الغريبة متمسكاً عبثاً أن يجسد فيها موضعاً للفتاة التي أحبها ،
فارتد البصر كليلاً ، وتجرع قلبه غصص اليأس المرير . لم تكن بساطة قلبه
من البلاءة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى ، ولقد أجبرته الشائعات في المدق
على تصديق أمر فظيع ، ولكن الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة الماثلة
لعينه . وامتلاً قلبه المقهور شعوراً بتفاهة الحياة وعبثها ، بيد أن غضبه الذي
أصلاه ناراً حامية في ليله ونهاره ، لم ينفجر ، فكان أبعد ما يكون عن البطش
بها أو حتى البصق عليها . وجملت حميدة تنظر إليه في ارتباك وحيرة ، واستشعر
قلبها خوفاً حيال هذا الأثر من الماضي الذي تتحاماها ، ولسكنه لم يحرك بها
عظماً أو ندماً ، بل استثار ازدراءها ومقتها فلعلت في سرها شؤم الحظ الذي
رمى به في طريقها . واشتد الصمت على أعصابهما ، ولم يعد في الوسع احتمال ،
فقال الحلو بصوت مبجوح متهدج :

— حميدة !.. أهذا أنت ؟ !.. رباه كيف أصدق عيني ؟ !.. كيف تجرت
بيتك وأملك وانقلبت إلى هذه الحال ؟ !

وأجابته في ارتباك غير خاف :

— لا تسألني عن شيء ، فليس عندي ما أقوله ، وهذا قضاء الله الذي لا يرد ..

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر ، فاستفزا غضبه وأثارها حنقه ، فعلا صوته مزججراً حتى ملأ الحانوت :

— كاذبة ، فاجرة ... ، أغواك فاجر مثلك ففرت معه . وتركت وراءك في حيك أسوأ الذكر ، وهاهو الفجر السافر يطالعني في وجهك وتبرجك الفاضح ..

واستفز هذا الغضب المفاجئ ، شرستها الطبيعية ففضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف ، وضاعفها ما احتملته في يومها من حنق وخيبة ، فاربذ وجهها وصرخت في جنوني :

— صه .. لا تزعق كالجانين ، أحسبت أنك تخوفني بصراخك ؟ ! ماذا تريد مني يا هذا ؟ .. لا حق لك على فاعرب عن وجهي ..

وخبا غضبه قبل أن تتم كلامها ! قهر غضبها غضبه فأماته في صدره . وكأنه كان يشعله الماء وتطفئه النار . وحملق في وجهها ذاهلاً وغنم بصوت صرلش النبرات :

— كيف سوات لك نفسك أن تقولي هذا القول ؟ .. أأست .. ألم تكوني خطيبي ؟

وتشفت بهزيمته ، وارتاحت إلى غضبتها التي أسعفتها في الوقت المناسب وقالت بتماهل :

— أي فائدة تجني من ذكر الماضي الآن ؟ ! لقد مضى وانقضى .. فقال متحيراً متوجعاً :

— أجل مضى وانقضى ، ولكنني في حيرة من أمري وأمرك ، ألم تقبلي يدي ؟ .. ألم أهاجر إلى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معا ؟ !

لم تعد تشمر نحوه بارتباك أو حرج ، وتساءلت في جزع : متى يمسيك
عن هذا ؟ متى يفهم ؟ متى يرحل ؟ . ثم قالت بليهة لا تخلو من برم :
— أردت شيئاً وأرادت الأقدار سواه . . .

ولم يغب عنه تاملها ولكنه بات أشد تشبثاً بالكلام والاستفسار :
واستمد من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول بيأس :

— ماذا صنعت بنفسك ؟ كيف انقلبت إلى هذا المصير الأسود ؟ . .
أى شؤم أعمر بصيرتك ؟ . . . ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك
المجرم الذى خطفك من حياتك الظاهرة وطرحك في مزرقة الدمار ؟ . .
واكفهر وجنينا ، وتناهى بها الجزع ، وقالت بليهة تشي بالملل :

— هذه حياتي ، هذه النهاية التى لاهرب منها ، نحن الآن غريبان وكلانا
ينكر صاحبه ، لم يعد بوسعى الرجوع ، وإن تستطيع معها قلت أن تغير من
الواقع شيئاً ، وحذار أن تفلظ لى القول فليست على حال أملك معها الساحة
أو العفو ، وإنى لأقر بعجزى حيال حظى ومصيرى ، ولكنى لا أحتمل أن
يضاعف لى إنسان الكرب بالفضب والزجر . إنسى ، واحتقرونى كما تشاء ،
واتركنى بسلام . . .

ما هذه بنتاته . أين منها حميدة التى أحبها وأحبته ؟ يا عجباً ؟ ألم تحبه
حقاً ؟ ألم تلتصق شفتيها بشفتيه على بسطة السلم ؟ ألم تدع له يوم الوداع وتعهده
باستشفاع الحسين لإجابة الدعاء ؟ . . . فمن تكون هذه الفتاة ؟ ! ألا تستشعر
ندماً ؟ ألم تأنس إثاراً من حنان قديم ؟ وأوشك أن يغضب مرة أخرى لولا
إشفاقه من غضبها ، فتتهد تنهد المقيظ المتبور وقال :

— إنك تحيريننى ، وكذا أضعيت إليك تضاعفت حيرتى ، لقد عدت
بالأمس من التل الكبير فدهنى الخبز الاسود على غرة ، أتعلمين ماذا دهانى
لهذه العودة ؟ ! . . . (وأبرز علبة القلادة وأراها إياها) . . . عدت بهذه
هدية لك ، وكان فى نيتى أن اعقد عليك قبل أن أرجع إلى البلد . . .

وألقت على العلبة نظرة صامتة . وفى أثناء ذلك وقعت عيناه على الهلال

الماسى والقرط الاثر لؤى فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه ، وتناهى به الضيق
فسأها بحدة :

— ألا تأسفين على هذه النهاية ؟ !

ولامت عينها بخاطر فامض بث في نفسها يقظة محمومة ، فقالت بلهجة
حزن مصطنعة :

— أنت لا تدري كم أنى شقية .

فأسمت عيناه في دهشة وريبة ، وقال بألم بالغ :

— يا للشقاء يا حميدة ! ... لماذا أصبحت لنساء الشيطان ؟ ... كيف

هانت عليك حياتنا الشريفة ؟ ... كيف نبذت الحياة الطيبة والأمل المرتقب

من أجل (وهنا تحشرج صوته) ... مجرم آثم وشيطان رجيم ؟ ...

هذه جريمة لا تغتفر ...

وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلتهم أفكارها ، فقالت بلهجة

الأسيفة الجديدة .

— إني أؤدى ثمنها من لحمى ودى ...

وازدادت دهشته ، وخالطها ارتياح فامض سروراً بالشقاء الزعوم الذى

اعترفت به ، ولكنها لم تنكسر عن حدثها اعتباطاً ، كانت أفكارها

تتوارد بسرعة جنونية في إلهام شيطاني ، خطر لها أن تحرضه على الرجل

الذى هرس قلبها بقسوة وسخرية ، وأملت أن يجعله أداة انتقامها وهى

بأمن من عوادي الشقاء . ورقت نظرة عينها وهى تقول بصوت ضعيف :

— لست إلا شقية يا عباس . لا تؤاخذنى على سوء قولى فقد أفقدنى

الشقاء وعي . إنكم جميعاً ترونى طاهرة فاجرة ، والحق أنى شقية بالأسف ،

خدعنى الشيطان الرجيم كما دعوته بحق ، لا أدري كيف أذعنت إليه ، ومع

ذلك فلست أتحل لنفسي عذراء ، ولا أطمع أن أسألك العفو ، فإنى أعلم

أنى مذنب ، وها أنذى أدفع ثمن جريرتى النكراء . اعف عن غضبي الذى

أهاجته كلماتك العادلة ، وابغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة

الكريمة ، واشتيت بي فلست في حاضري إلا ألموبة رخيصة في يد من لا يرحم ، يعلقني في الطرق ويستغل شقائي بعد أن استلبني أعز ما أملك ، إني أمقته ، أمقته بكل مافي من شقاء ومهانة هما من غرسه ، ولكن هيهات أن أجد لي منه مهرباً . .

أذهله حديثها الشاكي عن نفسه ، وراعتة نظرة الشقاء تنفسي عينيها ، ففسى المرأة المتنمرة التي كادت تفتك به منذ برهة قصيرة ، وأهابت به رجولته أن يفضب ، فزجر صائحاً :

— يا للشقاء يا حميدة ، إنك شقية ، وإني شقي ، كلانا شقي بفعل هذا المجرم . أجل ، لا أستطيع أن أنسى أنك أخطأت خطأ أثمياً ، وأن هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد ، ولكن بينا يشقى كلانا بهذا الخطأ ، إذا بالمجرم الأول مطعمئ سعيد كأنما يسعد بشقائنا ، فلا كانت حياة إذا أنا لم أحطم رأسه ! . .

وشمرت بالارتياح فنكست بصرها أن يفضحها ، وكانت سرعة انزلاقه إلى شباكها فوق مطعمها ، وارتاحت بصفة خاصة إلى قوله : « هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد » فأمن قلبها أن يجره الافعال إلى حد العفو عنها ، والسعي لاستردادها ، وما كانت تحلم بهذا كله . أما الخلو فاستدرك يقول هابسا راغياً :

— لا ارتاح لي بال قبل أن أحطم رأسه وأهشم عظمه ! . أجل ، لا أستطيع أن أنسى أنك فررت معه ، ولا أنهم رأوك نسرين في صحبته فلا أمل أن نجتمع مرة أخرى ، لقد فقدت حميدة التي أحببتها إلى الأبد ، ولكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى كلينا . خبريني أين أجده ؟
ف قالت وعقلها في تفكيره أسرع من لسانها في نطقه :

— لا سبيل لك عليه اليوم ، ولكن تعال يوم الأحد ظهراً إذا شئت فتجده في الحانة عند أول هذه العطفة ، ولن نجد مصريا سواه فيها ، فإذا التبس عليك الأمر أشرت إليه بعيني . . ولكن ماذا تنوي أن تفعل به ؟

نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تتم عن الإشفاق عليه من العواقب ،
ولكنه أجاب في جنون الغضب واليأس قائلاً :

— سأحطم رأس القواد الوضيع . .
وتساءلت وعيناها تتفرسان في وجهه : أليستطيع الحلو أن يقتل ؟ . .
ولم يغب الجواب عن فراستها ، ولكنها أملت أن يثير من حوله فضيحة
تسوقه إلى يد القانون ، فتنتقم منه وتخلص من أسره . وارتاحت إلى أفكارها
بلا تدبر أو نقد ، بيد أنها لم تخل من رغبة صادقة في ألا يصيب الحلو شرفادح
من مخاطرته ، وتمنت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحية
لفعله . . . ولذلك قالت تحذره :

— لا تبلغن بك الرغبة في الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك ! . اضربه
افضحه . . جره إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه . . .

ولكنه لم يكن يصغي إليها ، وكان يقول وكأنه كان يخاطب نفسه :
— لا يصح أن نشق بلائمن . انتهت حميدة ، وانتهى عباس ، فكيف
بروح القواد آمننا ضاحكا من تماسنا ؟ لأدقن عنقه ولأكتمن أنفاسه ،
(ثم علا صوته موجهاً إليها الخطاب) : وأنت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك
إذا نحيت عن سبيلك هذا الشيطان ؟

وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدي إليه هذا السؤال ، وأشفقت من أن
يتعارق إلى مسارب نفسه ضعفه القديم ، فقالت بحزم وهدوء :

— انقطع ما بيني وبين العالم القديم ، ولكني سأبيع ما عندي من حلي
وأجد لنفسي عملاً شريفاً في مكان بعيد . . .

وصمت صمتاً طويلاً متفكراً محزوناً ، فعانت في صمته من القلق ألواناً ،
حتى طامن من رأسه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— لا يستطيع قلبي أن يعفو . . لا يستطيع ، لا يستطيع . . . ولكن
لا تعجل بالاختفاء مرة أخرى حتى نرى كيف ينتهي هذا الأمر . . .

ووجدت في لهجته ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام ، فلمعت

عيناها في حذر وقلق ، وآثرت في أحماق قلبها التأثر أن يهلك هو وغريبتها
على أن يعود إليها فاتحاً ذراعيه ، بيد أنها لا تستطيع أن تفصح له عما يدور
بخلدها ، ولن يشق عليها الاختفاء إذا شاءته ، وإذا تم لها الانتقام الذي
تتأهب عليه فما أيسر أن تشد الرحال إلى الاسكندرية التي حدثها عنها
إبراهيم فرج كثيرا ، وهناك تصفو لها الحياة وتطيب في حرية لا يحدها
قيد ، وفي أمن من المتطفلين ، ولذلك لم تجد بأساً في أن تقول له بمثل
لهجته الرقيقة :

— لك ما تشاء يا عباس . .

وكان قلبه يهاني مرارة الشقاء والقنوط والتحفز للانتقام ، ولكنه
ما انفك ينبض بالحيرة والعطف . . .

٣٣

كان يوم وداع وسرور ، فديت في قلوب الزقاق طائفة واحدة ، ذلك
أن للسيد رضوان الحسيني منزلة رفيعة في القلوب جميعا على السواء . كان
السيد قد امتخار الله في أداء فريضة الحج هذا العام فأخاره ، وعلم الجميع
أنه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن إلى السويس في طريقه إلى الأراضي
المقدسة . وامتلاً بيته بالمودعين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء ، وحفوا به
في الحجرة القديمة الوديمة التي طالما أضيفت جذرائها إلى سمرهم الورع اللطيف
هاما بعد عام ، واستفاض حديث الحج ، وثارت ذكرياته ، ولهجت بها
الألسن في أركان الفرفة حول خط متموج من دخان البخور يتصاعد من
الجمرة ، ورووا تنقاً من أخبار الحج شملت العاصرين والغابرين ،
واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة . ورتل
ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، ثم أنصتوا جميعاً إلى
فيض من كلام السيد رضوان أفصح به فؤاده عما يكنه من رقة وطيبة . . .

وكان أحد الأصفياء قد قال له

— سفر شهيد وعود حميد . . .

فأشرقت في وجه السيد ابتسامة وضاعة كست بهجالاته على جمال ، وقال
بصوته الحنان :

— أخى لا تذكرنى بالعود . إن من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من
خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيب دماءه وينفد
سعادته . سأذكر العودة حقاً إذا فصلت عن مهبط الوحي في طريقى إلى
مصر . وأعنى بها العودة إلى الحج مرة ثانية إذا أذن الرحمن وأمان . من
لعمري يقرنى ما تبقى من العمر في البقاع الطاهرة ، أمسى وأصبح فلا أرى
إلا أرضاً تطامنت يوماً لأمس أقدام الرسول ، وهواء خفقت بتضاعيفه
أجنحة الملائكة ، ومنايا أصنعت للوحي الكريم يهب من السماء إلى الأرض
فبرقع بأهل الأرض إلى السماء ، هنالك لا يطوف بالخيال إلا ذكريات الخلود ،
ولا يحقق الفؤاد إلا بحب الله ، هنالك الدواء والشفاء . أخى . . أموت
شوقاً إلى استطلاع أفق مكة ، واستجلاء سماواتها ، والإنصات إلى همس
الزمان بأركانها ، والسير في مناكبها ، والانزواء في معابدها ، وإرواء
الغلة من زمزمها ، واستقبال الطريق الذى ميده الرسول بهجرته فتبعته
الأقوام من ثلثمائة وألف عام ولا يزالون ، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر
النبوى والصلاة فى الروضة الشريفة ، وإن بقلبي من مكنون الهيام
ما يقصر الزمان عن بشه ، ولدى من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل
عن تصويره . . أرانى يا إخوان ضارباً فى شعاب مكة ، تالياً الآيات كما أنزلت
أول مرة ، كأنما أسمع درساً للذات العلية ، أى سرور ! . . . وأرانى ساجداً
فى الروضة متخيلاً الوجه الحبيب كما يترأى لى فى المنام أى سعادة ! . . .
وأرانى متخشعاً لقاء المقام مستغفراً فأى طمأنينة ! . . . وأرانى وارداً زمزم
أبل جوارح الشوق بندى الشفاعة فأى سلام ! . . . أخى لا تذكرنى
بالعودة وادع الله معى أن يحقق لى المنى . . .

فقال له صاحبه :

— حقق الله مناك ومتعتك بطول العمر والعمارة . . .

فضم السيد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألفت عيناه بسرور وهيام وراح يقول :

— نعم الداء ، والحق إن حبي الآخرة لا يدفعني إلى الزهد في الدنيا أو التأمل من الحياة ، لطالما لمستم بأنفسكم حبي الحياة والسرور بها ، كيف لا وهي من خلق الرحمن ؟ خلقها الله وملاها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتشكر ومن شاء فليشكر ، ولذلك أحبها ، أحب ألوانها وأصواتها ، وليلها ونهارها ، ومسراتها وآلامها ، وإقبالها وإدبارها ، وما يدب على ظننها من حبي أو يقيم عليه من جهاد ، هي خير خالص ، وما الشر إلا عجز مرضي عن إدراك الخير في بعض جوانبه الخافية ، فيظن العاجز المريض بدنيا الله الظنون ، لذلك أقول لكم إن حب الحياة نصف العبادة وحب الآخرة نصفها الآخر ، ولذلك يهولني ما تنوء به الدنيا من دموع وأانات وسخط وغضب وغل وسخيمة ، وما تبثني به فوق هذا كله من ذم الرضى العاجزين ، أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا ؟ أكانوا يحبون لو لم تخرج من العدم ؟ أتسول لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلهية ؟ وما أبرئ نفسي ، فنقد ملكني الحزن مرة على اقتطاع فلذة من كبدي ، وتساءلت في غمرة الحزن والألم ماذا لم يبق الله على طفلي حتى يتمتع بحظه من الحياة والسعادة ، ثم شاء الله أن يهينني . فقلت لنفسي أليس هو — عز وجل — الذي خلقه ؟ فلماذا لا يسترده وفقاً لشيء ؟ ولو أراد الله له الحياة للبت في هذه الدنيا حتى يشاء الله ولكنه استرده بالحكمة اقتطعت مشيئته ، فهو لا يفعل شيئاً إلا بالحكمة ، والحكمة خير ، فقد أراد ربي به وبني خيراً ، وسرعان ما غلبني السرور بإدراك حكمته على حزني ولسان قلبي يقول ربي لقد وضعتني موضع البلاء لتختبرني ، وها أنا ذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان ، ملئماً بحكمتك ، « فاللهم شكراً » وصار ديدني إذا أصابتنى مصيبة أن ألهج من أعماق قلبي بالشكر والرضا

كيف لا والله يخصني بالامتحان والمنايا ، وكلما عبرت حنة إلى بر السلام والإيمان ازددت إدراكا لما في مقاديره من حكمة وما فيها بالتالي من خير ، وما تستحق بعد ذلك من شكر وسرور ، وهكذا وصلت المصائب ما بيني وبين حكيمته على دوام لا ينقطع ، حتى خلعتني طفلا مدالا في ملكوته يقسو على الأزدجر ، ويخوفني بعبوس مصطنع ليضاعف سروري بالأنس الحقيقي الدائم ، وإن الحبيب ليسر محبوبه بالصد حيناً ، وإن عرف المحبوب أن الصد مكر محب لا هجر قال ، تضاعف حبه وسروره . فما عدوت أن وقر في اعتقادي أن المصائب في هذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه ، خصهم بحب مقنع ، ورصد هم غير بعيد ، ليرى إن كانوا حقاً أهلاً لحبه ورحمته . . . فالحمد لله كثيراً ، بفضلته عزيت من حسبوا أنتى أهل للعزاء . . .

ومسح على صدره الواسع بيشير وانشرائح وهو يجرد من إلحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المعنى إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه في سلطنة الفن ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد :

— يذهب أناس إلى أن هذه المصائب وأمثالها مما يبتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفطن لحسنتها عامة الناس ، وتراهم يقولون إنه لو تفكر الأب الثا كل مثلاً لوجد أن ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آباءه الأولين ، ولكن لعمري إن الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البريء بالذنب ، وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنه عزيز ذو انتقام ، ولكني أقول بإسادة إن الله تعالى غنى عن الانتقام ، وإنه إنما أضاف هذه الصفة لذاته لينبه الإنسان إلى احتذائها ؛ وقد سبقت إرادته بالألا تستقيم أمور هذه الدنيا إلا بالشواب والعقاب ، أما ذاته العزيزة الجليلة فستبها الحكمة الربانية والرحمة الإلهية . ولو أنني اكتشفت تحت مصائب عقابا أستحقه ، أو وجدت وراء جثث أبنائي جزاء أستأذهله ، لا عبرت حقاً ، ولا زدجرت حقاً ؛ ولكن كان يبقى في النفس ضنى وفي العين دموع ،

ربما هتف قلبي المحترق : ضعيف أذنب وبرىء هالك ، فكيف المحفور والرحمة ؟ ! . فأين هذا من مصيبه تستشف الحكمة والخير والسرور . . . وأثار رأيه اعتراضات كثيرة ، فتمسك البعض بالنص ، وأول البعض التفسير ، ورد آخرون الانتقام إلى الرحمة . وكان كثيرون أقوى منه مازضة وأوسع علماً ولكنه لم يكن متهيباً للجدل ، كان متفتحاً فحسب للتعبير عما يضطرم في فؤاده من الحب والسرور ، فجعل يمتسم ببراءة الطفل ، متورد الوجه متألق العينين ، وراح يقول بصوت رقيقه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين :

— معذرة يا سادة فإني أحب الحياة ، بل أحب نفسي ، لا كذبات تتعلق بي ، ولكن كمنلة من قلب البشرية ، ونبض من الحياة ، وخلق للصانع الأجل ، وتجربة للحكمة الإلهية ، وأحب الناس جميعاً حتى المجرمين الشائمين . أليسوا يرموني إلى عناء الحياة الممض في سبيل الكمال ؟ . . أليسوا ظلمة تلقى عتمتها على بهاء الخير ضياء ؟ . ذروني أبح لكم بسر دفين ، أو تعلمون ما الذى بعثنى إلى الحج هذا العام . . .

وصمت السيد هنيئة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج ، ثم قال يجيب نظرات الاستطلاع التى عكستها الأعين :

— لا أنكر أن الحج أمنية طالما نازغنى الفؤاد إليها ، ولكن قضت إرادة الله أن أوجلبها عاماً بعد عام ، حتى حسبتنى قد بت أثر الشوق إلى الحبيب على الحبيب نفسه ، ولأشواق العبادات لذة كقضائها . ثم كان من أمر زقاقنا ما تعلمون ، فشد الشيطان على أعين رجلين وفتاة من جيراننا ، أما الرجلان فتأدهما إلى قبر ينبشانه وفادرها في السجن . وأما الفتاة فاستدرجها إلى مساوية الشهوات وغاص بها في حمأة الرذيلة ، هنالك زلزل قلبي زلزالاً شديداً تصدعت له أضلعي ، ولا أكتممكم يا سادة أن شعوراً بالذنب داخلني لأن أحد الرجلين كان يقتات على الفتات ، وقد نبش القبر لعله يجسد بين عظامه النيخرة لقمة يستسفيها ، كالكاب الضال يلتقط رزقه من أكوام الزباله .

فلشد ما ذكركنى جوعه بجسمى السكتز ووجهى المتورد ، حتى استحوذ على الحجل وغلبنى استعمار ، وقلت لنفسى معنفاً متقزراً ما ذا فعلت — وقد أتانى الله خيراً كثيراً — لدفع البلاء او التخفيف من وقعه : ألم أترك الشيطان يعبت بأهل جبرتى وأنا ذاهل عنه بسرورى وطمأنينتى ؟ ألا يكون الإنسان الطيب بتقاعدته عوناً للشيطان من حيث لا يدرى ؟ . . . واستصرخنى الضمير الممذب أن ألبى النداء القديم ، وأن أشد الرحال إلى أرض التوبة مستغفراً ، حتى إذا شاء الله لى أن أعود عدت بقلب طاهر ، وجملت من قلبى ولسانى ويدي أعوانا للخير فى مملكة الله الواسعة . . . ودعاه الإخوان بصدق وحرارة ، وواصلوا الحديث فى سرور وجهور .

وأبى السيد رضوان بعد أن ودع بيته إلا أن يزور قهوة كرشة مودها . فاقعد مجلسه محوطاً بالعلم كرشة وعم كامل والشيخ درويش وعباس الحلو وحسين كرشة . وجاءت المعامة حسنية القرانة فقبلت يده وحملت السلام أمانة وقد قال لهم السيد :

— الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلاً : يؤديها عن نفسه وعن تقعد بهم الأعداء من الصادقين .

فقال له عم كامل بصوت الأطفال :

— صحتك السلامة فى الحل والترحال ، وعسى ألا تنسى أن تجيئنا بسبحة من المدينة النورة . . .

فابتسم السيد وقال :

— لن أكون كمن وهبك كفناً ثم ضحك عليك .

وضحك عم كامل وكاد يعود إلى هذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عباس الحلو الواجم فأمسك . وقد أثار السيد هذه الذكرى متمهداً ليدخل منها إلى نفس الشاب التعس مدخلاً لطيفاً ، والتفت إليه بحنان وقال :

— يا عباس اصنع إلى كما ينبغى لشاب شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل واللفظ ، عد إلى التل الكبير فى أول فرصة ، بل اليوم إن سمعت وأطعت .

واعمل بما أوتيت من همة . واقتصد من النقود ما تشق به حياة جديدة
إن شاء الله . إياك وأني تلقى برأسك في خضم السكر ، أو أن تمن عزيمتك
لقاء اليأس والغضب ، ولا تحسن ما اعترضك من سوء الحظ هو ختام
ما قدر لك في الحياة . إنك بعد شاب في نهاية الحلقة الثانية من عمرك ،
وما تلقاه من ألم ليس إلا بعض ما يصيب الإنسان في حياته ، وكأنه ما ينتاب
الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولغهما ، فإذا صمدت له بشجاعه جزته
رجالاً خليقاً بالرجولة ، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر ببمسة الظافر
وتأمني المؤمن . انهم مستوصياً بالصبر متعوذاً بالإيمان . واسم إلى رزقك ،
ولتهمأ بسرور المؤمن إذا أدرك أن الله قد اختاره لمصاف المصابين من أوليائه .
ولم يحر عباس جواباً . ولكنه لما رأى عيني السيد لا تتحولان عنه ،

ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا ، وغغم بلا وعى تقريباً :

— سيمضي كل شيء كأن لم يكن .

فابتسم السيد ، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول :

— أهلاً بشاطر زقاقنا . سادعو الله لك الهداية في أرض مستجابة

الدعاء ، ولأجدنك إن شاء الله حين عودتي محتملاً مكان أهلك كما يريد لك ،
ونعم ما أراد ، وطوبى للمعلم الصغير الجديد .

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقاً :

— ياسيد رضوان ، اذكرني إذا أحرمت ، وذكر أهل البيت بأن

محبهم تلف ، وشده الغرام ، وأنه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حب

لا تنفع له غاة ، واشك إليهم خاصة ما يلقي من ست الستات .

وفادر السيد رضوان القبوة يحف به الصحاب ، وقد لحق به من

البيت قريبان اعترما السفر معه حتى السويس . ومال السيد إلى الوكالة

فهو جند السيد سليم علوان مكباً على بعض دقاته ، فابتسم قائلاً :

— تأذن الرحيل فدعني أعانقك .

ورفع الرجل وجهه الذابل في دهشة ، وكان علم عبيد الرجل دون أن يحرك ساكناً ، ولكن السيد رضوان لم يلبث بالآ إلى إهماله ، وكان يسير من سوء حالته ما يعلم الجميع ، فأبى أن يغادر الحى قبل أن يودعه . وكانما شعر الآخر بخطئه في هذه اللحظة فاعتراه ارتباك ، إلا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقبله ودعا له طويلاً ، ولبت عنده ملياً ، ثم قال وهو ينهض قائماً :

— لنسبح الله ان نخرج مما فى هامننا القادم .

فمنهم السيد سليم وهو لا يعنى ما يقول :

— إن شاء الله .

وتعانقا مرة أخرى ، ورجع السيد إلى صحابه ، ومضوا جميعاً إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظر عربية محملة بالحقائب ، فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريباه ، وانحدرت العربية صوب الفورية تتعلق بها الأعين ، ثم مالت إلى الأزهر .

٣٤

قال عم كامل لعباس الحلو :

— ليس وراء نصيح السيد رضوان مذهب لناصح ، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر ، وسوف أنتظرك طال الزمان أو قصر ، وستعود بإذن الله ظافراً وتكون على رأس حلاقى هذا الحى جميعاً .

وكان الحلو يجلس على كرسي أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عم كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة . ولم يكن باح لأحد بسره الجديد ، وقد هم حين نصحه السيد رضوان الحسينى بالإفصاح عما يثقل كاهله ، ولكنهم تردد لحظة فوجه السيد خطابه إلى حسين كرشة وسرمان ما عدل عما قام بنفسه . ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكر فيها ملياً ، بيد أن

يوم الأحد استحوذ على الشطار الأكبر من أفكاره . وكان مضى على اللقاء
الغريب في حانوت الورد ليلة ونهار ، فقلب وجوه السكر في هدوء وأناة
وعرف في النهاية أنه لا يزال يحب الفتاة ، وإن كانت أسبابهما قد انقطعت
إلى الأبد ، وأن رغبته في الانتقام من غريمه لا تقاوم . وقد ألصقت إلى
كلام عم كامل صامتاً ، ثم تنهد من الأعماق ، تنهد إنسان تحس كبته
الأقدار بأغلال الشقاء ووضعت على شفا جرف هار من الدمار . وسأله عم
كامل بقلق :

— خبرني عما اعتزمت ؟ .

فنهض الشاب قائماً وهو يقول :

— سأمكث هنا بضعة أيام أخر : على الأقل حتى يوم الأحد ، ثم

أتوكل على الله .

فقال عم كامل في إشفاق :

— ليس السلوان بالمطلب المسير إذا نشدته صادقاً .

فقال الشاب وهو يفادر موضعه :

— صدقت ! ... السلام عليكم .

ومضى وفي نيته أن يقصد حانة فيتا حيث يظن أن حسين كرشة قد
سبقه إليه اعقب توديع السيد رضوان مباشرة ، وظل فكره فريسة للأفكار
القلقة ، وقلبه نهياً للعواطف المضطربة ، إنه ينتظر يوم الأحد ، وما يوم
الأحد بيعيد ، ولكن ما عسى أن يصنع إذا حان الحين ؟ ! . أيضى إلى
الموعد حاملاً خنجراً ليغمده في قلب غريمه ؟ . لعل هذا ما يتحرق إليه
بكل ما يمتلئ به قلبه من غضب وحقد وشقاء ، ولكن هل يسهه
ارتكاب الجريمة ؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة ؟ ! . وهز رأسه
في شك وكمد وحقد ، إنه أبعد ما يكون عن العنف والإجرام ، وهذا
ماضيه يشهد له بالوداعة والسالمية ، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم الأحد ؟
وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقص عليه قصة حميدة ويسأله

الشورة والعون ! ، بل العون قبل سواه ، لأنه يبدو عاجزاً بغير هذا العون . وفي هذه الحال من الإقرار بالعجز ماودته نصيحة السيد رضوان الحسيني « ... عد إلى القل الكبير في أول فرصة ، بل اليوم إن سمعت وأطعت ، .. إياك وأن تلقى برأسك في خضم الفكر أو أن تن عزيمتك لقاء اليأس والفضب ... » ، استحضر كلام السيد الذي أوشك أن ينساق أجل ، لماذا لا يطوى الماضي بأحزانه وينطلق في شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل ؟ لماذا يحمل نفسه مالا طاقة لها به ؟ لماذا يعرض حياته لأهوال أخفها السجن ؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأى حاسم ، ولم تزل نفسه تنازعه إلى الانتقام ، ولعل الانتقام لم يكن وحده الذي يستبد بشموره ، ولعله خاف العدول عنه لأن في هذا العدول قطعاً حاسماً لهذا الخيط الواهى الذى وصله بحميدة أمس ، وقد أبى أن يصدق أنه يستطيع العفو عما سلف ، وقال وكرر القول — بداع وبلا داع — إن أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد ، ولكن هذا الإلحاح فى القول نفسه أخفى رغبة — لعله لم يدرها — فى استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما ! ، فكان نزوعه إلى الانتقام ظلاً لتعلقه بالمرأة التى يحبها ولا يطيق هجرها . وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا . وكان حسين كرشه بمجلسه يكرع من النبيذ الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه ، فمضى إليه وحياه تحية مقتضبة ، وقال برجاء طار :

— حسبك ما شربت فإني أريدك لأمر هام .. هلم معي .

ورفع حسين حاجبيه منكرأ ، وكأنما كبر عليه أن يعكر القادام صفوه ، ولكن عباس — وقد أذهله الهم عن وعيه — أمسك بذراعه وشده حتى أقامه وهو يقول :

— إني فى مسيس الحاجة إليك .

فنفض الشاب مستاء ، ودفع ما عليه ، وغادر الحانة برفقة صاحبه ، وقد أصر عباس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته .

ولما صار في الموسيقى قال وكانما يزجج كابوساً عن صدره :

— وجدت حميدة يا حسين . .

فلاح الاهتمام في العينين الصغيرتين وسأله :

— أين ؟

— ألا تذكر امرأة العربى التى عدوت وراءها أمس وسألتنى عنها ؟

اليوم دون أن تظفر منى بجواب شاف ؟ هى حميدة دون غيرها . .

فصاح الشاب بدهشة وسخرية :

— أسكران أنت ؟ . . ماذا قلت !

فقال عباس بليجة جدية شديدة التأثير :

— صدقتى فيما قلت : هذه المرأة هى حميدة بلحمها ودمها ، وقد عرفتها

من أول نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت حتى أدركتها وحادثتها .

فتساءل حسين فى دهشة وإنكار :

— كيف تريدنى على أن أ كذب عيني ؟ !

فتنهذ الحلو بأسى ، وراح يروى له ما دار بينهما من حديث دون أن

يخفى عنه شيئاً ، والآخر يصغى إليه باهتمام شديد ، حتى ختم حديثه قائلاً :

— هذا ما أردت أن أطلعك عليه ، ولقد تردت حميدة فى الهاوية

ولا نجاة لها ، ولكننى لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب .

وحدثه حسين بنظرة طويلة احتار فى تفسيرها ، وكان الفتى بطبعه

مستمعاً قليل الاكتراث ، فأفاق من دهشته بأسرع مما قدر صاحبه ، ثم

قال بازدياد :

— حميدة هى المجرمة الأصلية ، ألم تقرر ممه ؟ . . ألم تستسلم له ؟ . .

أما هو فماذا تؤاخذ به ؟ . . فتاة أعجبتة ففواها ، ووجدتها سهلة فنال

منها وطره ، وأراد أن يستغلها فسرحتها فى الحانات ، هذا لعمري رجل

حاذق ، وبودى لو أفعل مثله حتى تنجاب عنى هذه الأزمة التى أكابدها .

حميدة هى المجرمة يا صاح .

وكان عباس يحسن فهم صاحبه ، فلم يداخله شك في أنه لا يتودع عن شيء مما ارتكبه غريمه ، ولذلك تحامى عن حكمة ذم الرجل في سلوكه أو خلقه ، وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال :
— ولكن ألا ترى أن هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه ؟

ولم ينب عنه قوله « كرامتنا » ، وأدرك أنه يشير إلى الأخوة التي تربطه بحميده ، وذكر لتوه شقيقته المطروحة في السجن بسبب فضيحة مماثلة ، فاستشاط غضباً وحنقاً وزأر صائهاً :
— هذا شأن لا يعنيني ، ولتذهب حميدة إلى الشيطان .

ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فيما قال ، ولو كان لقي ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه . ولكن الحلو خضع بقوله فصداقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب :

— ألا يفضيك أن يعتدى رجل على بنت من زقنا هذا الاعتداء المنكر ؟ .. أسلم لك بأن حميدة مجرمة حقاً ، وأن عمل الرجل في ذاته لا غبار عليه ، ولكن أليس هو بالنسبة إلينا اعتداء مشيناً يستوجب الانتقام ؟ !

فصاح حسين بحدة :

— أنت أحمق ، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهم ، ولكن نيران الفيرة تلتهم قلبك الخرع ، ولو أن حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحاً . كيف لقيتها يا رطل ؟ ! . نازعتها الحديث والشكاة ؟ ! . مرحى . مرحى . حيث من رجل هام ! . لماذا لم تقتلها ؟ ! . لو كنت مكانك ورميت المصادفات إلى يدي بالمرأة التي خانتني لخنقتها بلا تردد ، ثم ذبحت عشيقها . واختفيت عن الأنظار ، .. هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل . وتلبست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية ، فاستدرك من مجراً :
— لست أقول هذا متهرباً ، فالحق أن هذا الرجل ينبغي أن يدفع

عن اقتدائه خالياً ، وليد فمه خالياً ، وسنمضي معاً في الموعد المضروب
ونوعمه ضرباً ، ثم نرصده بظلمته جميعاً ونوالى ضربه ولو اقتضى الحال
أن نحدث له جيشاً من الأعوان ، ولا نسكف عنه حتى يفتدي نفسه بمبلغ
كبير من المال ، وبذلك ننتقم ونستفيد مما . . . !

وسر عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة ، وقال بحماس :

— نعم الرأي هو . . . حقا أنت رجل الملمات . . . !

وسره الشاء ، ومضى يفكر في تنفيذ خطته مدفوعاً بنفضه لسكرامته
وميله الطبيعي إلى المدح والثناء وطعمه في الحصول على مبلغ من النقود ، ثم
غمغم بصوت ملته النذير « ما يوم الأحد بعيد ! » ، وبلغا عند ذاك
ميدان الملكة فوقف عن السير وهو يقول :

— عد بنا إلى حانة فيتا . . .

ولكن الآخر تشبث بذراعه وهو يقول :

— أليس من الأفضل أن نغضى إلى الحانة التي سنلقاه بها يوم الأحد
لتعرف الطريق بنفسك ؟

وتردد حسين لحظات ، ثم سار معه كما أراد وقد حثا الخطأ . وكانت
الشمس قد مالت للمغيب ، ولم يكده يبقى من نورها إلا ظلال خفيفة ، وشمل
السماء ذلك الهدوء الحالم الذي تخلص إليه إذا تراءت لها طلائع الظلام .
واشتعلت مصابيح الطريق واطرد سيل الساباة لا يعبؤون اختلاف الليل
والنهار . ودوى سطح الأرض على غير انقطاع ، فمن جمجمة الترام إلى أزيز
السيارات ، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمارات غير همهمة البشر ، فكأنهما
بخروجهما من المدق إلى هذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاخبة .
وارتاح عباس الحلو وانقشعت الحيرة التي غشيتة طويلاً فعرف سبيله بفضل
صاحبه الجريء القوي ، أما حميدة فقد ترك أمرها معلقاً للظروف المجهولة
تفصل فيه بما تشاء ، ولم يستطع أن يبت فيه برأى ، أو أنه أشفق من
البت فيه برأى حاسم ، وقد خطر له لحظة أن يفتح صاحبه ببعض خواطره

ولكنه ما كاد يخلتس إلى وجهه الأسود نظرة حتى غاص الكلام في حلقه فلم ينبس بكلمة . وواصل السير حتى بلغا موقف الأمس الذي لا ينسى فلكرز عباس صاحبه وهو يقول :

— هالك دكان الأزهار التي حادثتها فيها .

ونظر حسين إلى الدكان التي يشير إليها صامتا ، ثم سأله باهتمام :

— وأين الحانة ؟

فأومأ له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم « ها هي ذى » ، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص السكان وما يحيط به بعينه الصغيرتين الحادثتين . ونظر عباس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمران بها ف جذب عينيه منظر غريب . ندت عنه شهقة ، وتصلبت عضلات وجهه ، ثم جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى . رأى حميدة في جلسة شاذة بين نفر من الجنود ، كانت تجلس على كرسى وإلى ورائها جندى واقفا يسقيها خمرًا من كأس في يده ، ينحني عليها قليلا وتميل هي برأسها إليه وقد مدت ساقها على حجر آخر يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون . بهت الفتى وتسمر في موقفه ، ونسى ما كان علمه عن مهنتها ، وكأن الخطب يدسه على غير علم به ، وطمس الدم الفائر بصيرته ، فلم يعد يعرف غريماً له في دنياه سواها ، واندفع إلى الحانة كالجنون وصاح بصوت كالرعد :

— حميدة . . .

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسى ، وحملت في وجهه بعينين ملتهبتين ، وغلبتها الدهشة ثواني ، ثم ثابت إلى رصدها وقد هاها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة ، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير :

— لا تبقي هنا لحظة واحدة . . . أغرب عن وجهي . . .

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فخن جنونه ، واخفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد ، ووجد أخيراً ما طناه في الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقباً في مرجل نفسه ، فانطلق منه صارخا

مصفرأً مجنوناً ، ولمح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة ، فتناول واحدة وهو لا يدري ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط ، في سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد ، لا من الجنود ولا من عمال الحانة ، فأصاب الزجاجة وجهها ، وتفجر الدم غزيراً من أنفها وفيها وذقنها ، وامترج بالأدهنة والمساخيق وسال على عنقها وفستانها . واختلط صراخها بزئير السكرى الهائجين ، وانقض عليه الفاضبون كالوحوش الكواسر ، وتطايرت اللسكات والركلات والزجاجات . . .

ووقف حسين كرشه على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعاً . وكلما تلقى ضربة هتف صارخاً : « يا حسين . . يا حسين » ، ولكن النقي الذي لم ينكص عن خوض معركة في حياته لبث متسماً لا يدري كيف يشق سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين ، وتملكه الغضب ، واشتعلت بصدرة ثورة جاثمة ، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة على يجد آلة حادة أو عصاً أو سكيناً وبقي مقهوراً مغلوباً على أمره ، وقد مضى السابرة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة بأعين فزعة وأيد مغولة . . .

أضاء الصباح بجنبات الزقاق ، وألقت الشمس شعاعاً من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكان الحلاق ، وغدا الغلام سينقر صبي القهوة فلاء دلواً ورش الأرض . كان المدق يقلب صفحة من صفحات حياته الزتبية ، وأهله يستقبلون الصباح بهتافهم المحفوظة . وفي هذه الساعة البكرة ينشط عم كامل على غير عادته فيقف أمام صينية البسبوسة يحف به صبية المدرسة الإلزامية ويمتلئ جيبه بالملايم ، وفي مواجهته أكب الحلاق العجوز على المواسي يشحذها ، ومضى جعدة الفران يحمل العجين من البيوت ، وأقبل

العمال على الوكالة يفتحون أبوابها ومخازنها ويخرقون السكون الخيم بجلبتهم التي لا تنقطع طوال النهار ، بينما تربح المسلم كرشه وراء صندوق المراكات في جلسة حاملة يقضم شيئاً بشنيتيه ويلوكه في فمه ثم يعتصره بقدح من القهوة ، وقد جلس على كتب منه الشيخ درويش في صمت وغيوبة . وفي هذه الساعة الباكورة أيضاً تلوح الست سنية عفيفي في نافذتها ، تشيع زوجها الشاب وهو يفادر الزقاق في طريقه إلى القسم . هكذا تطرد الحياة في المداق على وتيرة واحدة إلا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتيات أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله ، ولكن سرعان ما تنداح هذه المقاطعات في بحيرته الهادئة أو الراكدة ، فلا يكاد يأتي المساء حتى يحجر النسيان ذبوله على ما جاء به الصباح . أضواء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة ، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشه مكفهر الوجه ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة ، يضرب الأرض بخطوات ثقيل ، ففضى إلى مجلس أبيه وارتمى على كرسي لقاءه وهو يقول بصوت غليظ دون تحية أو سلام :

— قتل عباس الحلوي يا أبي . . .

وكان المعلم قد أوشك أن يتنهره لقضائه الليل خارج البيت ، فلم ينبس بكلمة ، وحمق في وجهه بعينين ذاهلتين ، ولبت لحظات جامداً ساها كأنه لم يفهم ما ألقى على سمعه ، ثم سأله بانزعاج شديد :

— ماذا قلت ؟

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردتين فقال بصوته الأجش :

— قتل عباس الحلوي . . . قتله الإنجليز ! . . .

وازددت الفتى ريقه ثم أحاد على أبيه ما حدث به عباس وهما يسيران في الموسكى قبيل مغيب الأمس ، وقال بصوت حاد مضطرب :

— وقد مضى بي ليربى الحانة التي وعدته إياها الفتاة الشريرة ، وأنا لنمر يبابها إذ رأى العاهرة تعربد في جمع من الجنود ، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورمها بزجاجة في وجهها قبل أن أتنبه لقصده ، وهاج

الجنود وانقضوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضرباً حتى سقط بينهم
لا حراك به . . .

وكرر قبضته بحنق وقرض أسنانه قاتلاً بغضب :

— يا للشيطان ! . . ما كان يوسعي أن أخف إلى نجدة ! : حالت دون
ذلك جموع الجنود الكثيفة التي سدت الباب سدا . . . آه لو بلغت يداي
عنق جندي من أولئك الملائين . . .

وكان هذا ما يحز فؤاده حزاً ، وما يشب في صدره نار الغضب من
غير انقطاع ، حتى لقد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفي من الخزي والعار .
أما المعلم كرشه فقد ضرب كفاً بكف وقال :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، وماذا فعلتم به ؟

— جاءت الشرطة بعد تقاذ القضاء ، وضربوا حول الحانة حصاراً .
وما عسى أن يفيد الحصار ؟ ، وحلوا جثته إلى قصر المني ، وتلقوا الماهرة
إلى الإسعاف . .

فسأل المعلم باهتمام :

— وهل قتلت ؟ . . .

فأجاب الشاب والحقد يأكل رأسه :

— لا أظن . . . لا أظن الضربة كانت قاتلة . . . ضاع الفتي هدرأ

— والإنجليز ؟

فقال الشاب بلهجة أسيفة .

— تركناهم والشرطة تحيط بهم . ولكن من ذا يستطيع أن يناد

منهم حقاً ؟

فضرب المعلم كفاً بكف مرة أخرى وقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، وهل علم أهل الفتي بالخبر الأسود ؟

أذهب إلى خاله عم حسن التباقي بالخمر تقش وأذنه بموته ، والله يفعل ما يريد
ونمض حسين يغالب تمبه وإعياءه وفادر القهوة . وذاع الخبر ، وأطاح

المعلم كرشة القصة التي رواها ابنه مرات ومرات على السائلين ، فتناقلتها
الأسن ، وزادت عليها ما شاء لها الهوى ، وجاء عم كامل القهوة مترنجاً
وقد دهمه الخبر فصمقه وارتمى على أريكة وراح يبكي بكاء مرأً وينتحب
كلاً أطفال ، ولا يكاد يصدق أن الفتى — الذى أعد له كفنأً — لم يهد
من الأحياء . ونمى الخبر إلى أم حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال
بعض من رآها إنها « تبكى على القاتل لا على القتيل ! » . وكان أشد الناس
تأثراً السيد سليم علوان ، لا حزناً على الفقيد ، ولسكن فزعاً من الموت
الذى اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه ، فماودته أفكاره
السوداء وتصوراته المريضة ، واخيلة الاحتضار والموت والقبر التى نهكت
أعصابه . واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه ، وجعل يروح
ويجىء فى الوكالة ، أو يخرج إلى الزقاق فيلقى نظرة زائغة على الدكان التى
كانت دكان الحلو أعواماً طوالاً . وكان أعفى نفسه — لشدة الحرارة —
من شرب الماء الدافئ فأمر العامل المكاف بخدمته بأن يدفء له ماء الشرب
كما كان يفعل فى الشتاء ، وقضى تلك الساعة نهياً للخوف والقلق وبكاء
عم كامل يصك مسامحه صكا . . .

وانداحت هذه الفقاعة أيضاً كسوابقها ، واستوصى المدق بفضيلته
الخالدة فى النسيان وعدم الاكتراث ، وظل كدأبه يبكي صباحاً — إذا
عرض له البكاء — ويقيقه ضاحكا عند المساء ، وفيما بين هذا وذاك تصر
الأبواب والنوافذ وهى تفتح ثم تصر كرة أخرى وهى تغلق . ولم يحدث
فى هذه الفترة أمر ذو بال اللهم إلا ما كان من إصرار الست سنية عفيفى
على إخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور بوشى قبل سجنه ، وما كان من
تطوع عم كامل بنقل أثاثه ومعداته الطبية إلى شقته ، وقيل فى تفسير هذا
إن عم كامل أثر إشراك الدكتور فى مسكنه على الوحدة التى لم يألفها ، ولم